

أحمد سلامة

الزعفرانة

موعد مع السيـدة الجميلـة

دار دوّن

أحمد سلامة

الزعفرانة

موعد مع السيدة الجميلة

رواية



إهداء

إلى السيدة الجميلة: مايسة عبد الرحمن

«عندما تفرح، أفرح. وعندما تحزن، أحزن. وحين تكونَ،
أكونُ أنا أيضًا.
لأنني أنت، وأنت أنا»

(١)
يحيى

لم يكن عليها سوى أن تبتسم، ليتغير التاريخ كله بعد ذلك.

أمام باب غرفتي الصغيرة في كامب «وادي حبيبة» طلبَتْ وهي تبتسم أن تدعوني إلى القهوة لأنها لا تعرف أحدًا هنا.. وكيف كان لي أن أعتذر رغم أنني اعتذرت؟ وهل كانت «زينب» لتسامحني على هذه الذلة؟ وهل كانت الذلة الأولى في ردّ الابتسام بابتسام؟ أم في تصنتي على ياسمينا منذ البداية وهي تتشاجر مع بائع التماثيل الفرعونية في البازار؟

سقط قلبي بين قدمي وهرب مبتعدًا بعدها.. ربما لهذا السبب ظللت ألفلف في غرفتي بالكامب بعد أن تحدثت معها لتلك الدقائق القليلة.. كنت أهرب منها.. أو أنني كنت أهرب من عينيّ زينب الحزينتين. الأمر المؤكد هو أنني كنت أبحث عن قلبي الذي نطق منذ صمتٍ طويلٍ بين جبال هذه المدينة الصغيرة جارة البحر.

في السنوات الثلاث الأخيرة لم أكن أتحمل جدران نفس الغرفة لفترة طويلة. أصبحت الجدران تضغط أنفاسي وتحبس صدري، حتى صرتُ أتمنى أن أسكن العراء للأبد.. لكن غرفتي الأخيرة في

كامب وادي حبيبة كانت الأكثر لطفًا مما سكنت سابقًا.. الغرفة معظمها من الخشب المضغوط خفيف الحمل، تشعرني أحيانًا أنها قابلة للتمدُّد مع ضيق نفسي.. جدرانها قابلة للفك والتركيب في أي لحظة كجميع غُرَف الكامب المترابطة ببعضها البعض.. كرافانات متراصة وملتصقة ببعضها.. خفيفة الحمل وغير مكلفة.. الكامب كله تقريبًا كان معدًّا للفك والتركيب للانتقال في أي لحظة.. كان أشبه بغرف عمال التنقيب والحفر في شركات البترول المترامية طيلة الطريق بين الغردقة وطريق السويس.. وكانت غرفتي تقريبًا هي أكثر الغرف اتساعًا.. وكان هذا طبيعيًّا جدًّا؛ فأنا الوحيد الذي كان يقضي الليل هنا في قلب الصحراء ولا يعود مع العاملين بالمكان إلى نزل عاملي الفندق التابع له الكامب بالغردقة، بعد انتهاء أنشطة الكامب المسائية.. ورغم أن الغردقة لم تكن تبعد أكثر من عشرين دقيقة بالسيارة.. إلا أنني كنت أحب المبيت هنا في الصحراء وبين الجبال.. خاصة في ليالي الشتاء الباردة، حيث يندر الزبائن من السائحين العرب والأجانب الذين ينظم لهم الفندق بالغردقة رحلات السافاري وتسلُّق الجبال والسهر في الوديان المحيطة.

في ليالي الشتاء الباردة تحديدًا كان الجميع يعود للسكن بالغردقة باستثناء حارسين عجوزين يسهران طوال الليل أمام خزان المياه الرئيسي جوار بازار الكامب.. يشعلان النار للتدفئة ويستمعان إلى أغاني بدوية بديعة ويظلان يدخنان الحشيش ويطلقان النكات البذيئة على السائحين وحتى مطلع الفجر.

أما أنا فكنت أترك نفسي إلى الليل والصحراء.. أحيانًا أقضي الليلة وحدي وأحيانًا أخرى أستضيف وجهًا ما للمسامرة.. تارة «زينب»

وتارة «سباستيان».. ليلة أستضيف وجه جدي «سليم» للسمر وتارة أستضيفه للاعتذار.. وفي أحيانٍ قليلة جدًّا كانت «ميريت» تقتحم السهرة بوجهها اللعوب ليتكدر من الليلة ما بقي منها.. فأنام مبكرًا قبل أن تزور الشمس الجبل، وأضطر إلى الاستيقاظ مبكرًا رغم ندرة العمل.. مثلما حدث هذا النهار.

صحوت كدرًا ناقمًا على وجه «ميريت» الذي أفسد سهرة البارحة.. لعنتُها في سري مَرة وبصوت مسموع مراتٍ أخرى، بعد دقائق وجدت اتصالًا من الشيخ «ياسين» لم أسمعه وأنا نائم، أعَدتُ الاتصال به وكانت التغطية سيئة للغاية، فعلمت أنه بقرية الجبل.

ألقيت على كتفي غطاءً ثقيلًا اتقاءً للبرد الهارب من ليلة البارحة، وخرجت من الغرفة لأسمعه بوضوح، إلا أن التغطية كانت لا تزال سيئة، ربما أصبحَتْ أكثر سوءًا.. أنهيت الاتصال يئسًا ودخلت لأغسل وجهي بأحد الحمّامات المشتركة، فعاد الهاتف يرتعش في جيبي، ووجدت الشيخ ياسين يتصل ثانية.. رددت عليه سريعًا ويدي ما زالت مبتلة وكنت متوقعًا نفس التغطية السيئة للشبكة، إلا أن صوته جاء واضحًا وعاليًا أيضًا.. كان يؤكد على موعدنا المسائي عنده بقرية الجبل مساء اليوم.. وظل يؤكد أن الأمر هامٌّ وضروريٌّ.

رفض بالطبع أن يعطيني أي تفاصيل متعلّلًا بسوء التغطية عنده.. نظرت إلى ساعتي وأنا أحدِّثه فوجدت أنه ما زال أمامي وقتٌ كافٍ قبل الموعد.. أخبرته أنني سأحضر، ثم عدت إلى الغرفة لأجفف وجهًا لم أغسله بالكامل.

ما زال أمامي ساعتان لأتناول أي إفطار أجده في كافيتيريا الكامب، ثم أبحث عن سيارة دفع رباعي بالأجرة تقبل أن تقلني إلى قرية الجبل.

انتعلت حذاءً ذا رقبة عالية اتقاءً للعقارب التي بدأت تظهر مؤخرًا وعلى استحياء في محيط الكامب الذي أقطنه منذ تركت طابا.. ثم ارتديت المعطف الوحيد الذي أملكه تحسُّبًا لبرودة الجبل لو خانتنا المودة في خيمة المجلس مع الشيخ وطال الحديث لآخر الليلة.

عند باب الغرفة وقبل خروجي مباشرة لمحت حركة خفيفة في المرآة المعلقة بباب الغرفة، أجفلت لحظة ثم انتبهت إلى أنه انعكاسي في المرآة.. لمتُ نفسي للمرة الألف على عدم تغطية المرآة لكرهي الشديد للمرايا.. لم أعد أطيق المرايا منذ رحلت زينب.. وكان هذا بالضبط ما حدث.. عندما اعتدلت كنت قد رأيت وجهها كاملًا في المرآة مكان وجهي وقد رقدت ممدة على الفراش أمامي بدموعها الصامتة التي لم تفارق وجهها أبدًا.. ابتسمت لها في المرآة محييًا إياها حتى بدأ طيفها يختفي رويدًا إلى أن غاب وعاد وجهي الذي أكرهه في المرآة ينظر لي في لوم.. فعلمت أن اليوم لن يكون عاديًا أبدًا.

خرجت متجهًا إلى الساحة.. ربما أجد سيارة أحد العرب تقبل أن تنقلني داخل الجبل قبل أن يحل الليل.. وفي طريقي لم تفارق عينا زينب الدامعتين رأسي.

تمشيت قليلًا إلى أن وصلت لنافورة صخرية خربة تتوسط الساحة جوارها الجاراج خالٍ تمامًا.. ولم أجد أيًا من العربات بالطبع.. الوقت ليس موسمًا لأنشطة الكامب، ومعظم السائقين إما لم يأتوا.. وإما أنهم بالجبل الآن مع من التقطوهم من فتات السائحين.

وقفت قليلًا أتلفت حولي.. يبدو المكان كأنه مهجورًا للوهلة الأولى.. فقط سائحان يتمشيان إلى الكافيتيريا.. تذكرت الإفطار الذي

لم أتناوله بعد، ثم قررت أن أدخل أولًا إلى بازارا «عارف» الملحق بالكامب أسأله عن إمكانية طلب سيارة ذات دفع رباعي لتوصيلة داخل الجبل.. عارف بالتأكيد أحد أقرباء الشيخ ياسين، كلهم أقرباء بعضهم هنا، ربما يهتم بطلبي إن عرف بنيّة ذهابي إليه.

كان مدخل البازار يحتل قسمًا صغيرًا من سور الكامب.. شُكِّل على هيئة كهف صخري صغير تحتل قسمه العلوي يافطة زرقاء عريضة مكتوب عليها (بازار عارف - تحف - هدايا - مستلزمات سافاري).. ونُقِشَت عليه رموزٌ لاتينية وفرعونية بشكل مبعثر.

عندما قدمت هنا للمرة الأولى منذ ولمحت هذا البازار جربت قراءة بعض الكلمات الفرعونية المبعثرة على مدخل البازار.. وأذكر أنني لاحظت من بينها كلمات مكتملة فعلًا وتشكّل معنًى مفهومًا مثل «سيد- عظيم- معبود» وكلمات أخرى كثيرة وأحرف أخرى لا تشكل أيَّ معنى رسمت على سبيل الزينة.. إلا أنني أذكر جيدًا أنه من بين التجميعات كانت توجد كلمة «أحمق» وفكرت أن أخبر صاحب البازار بذلك.. لكني لما تخيلتني وأنا أخبره لم أعلم هل سيشفع لي كوني كنت أقوم بدراسة تلك اللغة المصرية القديمة حتى برعت فيها؟ أم إنه سيظنني أسخر منه؟

بحثت عن الكلمة فوق اللافتة ووجدتها بسهولة.. ترى مَن السخيف الذي قام بتركيب هذه الأحرف ليضع سُبَّة مصرية قديمة على لافتة بازار فقير في قلب الصحراء بين الجبال؟.. وهل كان يقصد ذلك، أم أنه فعلها جهلًا بمعناها؟

تذكرت سباستيان وقتها.. وجالت بذاكرتي أيامُ كنت أعلِّمه كلمات الغزل المصرية القديمة كي يرسل بها لخطيبته في لبنان قبل أن ينفصلا..

وقبـل أن يسـافر إليهـا ليسـتعيدها.. ليتـك لم ترحـل أبـدًا يـا صديقـي.. لشـدة مـا احتجتـك بعدهـا.

قـررت بينـي وبـين نفسـي أن أخـبر عـارف صاحـب البـازار، أو مـن يعمـل بـه حاليًـا بهـذه المعلومـة القيمـة إن كان كريـمًا معـي ودبَّـر لي سيارة لتنقلنـي إلى قلـب الجبـل، وقـد بـات مـن الواضـح أني ربـما أتأخـر عـلى موعـدي مـع الشـيخ ياسـين.

دفعـت البـاب الخشـبي بيـدي ودلفـت إلى البـازار فأصـدر صـوت موسـيقى أجـراس الأطفـال.. والتقطـت أذني صوتًـا عاليًـا وكأنـه شـجارٌ صمـت فـورًا عنـد دخـولي.. لكننـي كنـت قـد التقطـت الجملـة الأخـيرة مـن صاحبتهـا التـي كانـت تقـول في عصبيـة:

- Fifty dollars! For such poor quality?!

كانـت صاحبـة الصـوت تولينـي ظهرهـا وأمامهـا عـارف نفسـه وقـد احمـر وجهـه وبـدا أنـه كان ينصـب عـلى إحـدى السـائحات في سـلعة مـا ولكنـه فشـل في ذلـك.. وكانـا يقفـان في ركـن البـازار.

أربكتنـي صمتهـما المفاجـئ.. فتركـت البـاب ينسـحب مـن يـدي ودخلـت أقلـب في البـازار بعينـي مبتعـدًا عنهـما.. التفـت إليّ عـارف بينـما هـي مـا زالـت تولينـي ظهرهـا فوجـدت مسـاحة أكـبر للفضـول إلا أن عـارف بـادرني بالسـؤال هربًـا مـن مواجهـة واضـح أنـه لـن يربـح منهـا شـيئًا:

- اتفضل يا دكتور يحيى.. تحت أمرك.

اضطـرني سـؤاله للاقـتراب منهـما فوضعـت كلتـا يـدي في جيبـي معطفـي وقلـت:

- أين ذهبت العربات جميعها؟ أريد توصيلة ضرورية إلى الجبل حالًا.

وقبل أن يحاول الهروب من مساعدته لي سارعت محاولًا توريطه:

- عندي موعد هام مع الشيخ ياسين.

فردَّ متنبهًا:

- آه.. تقصد الشريف ياسين.. للأسف يا دكتور.. العربات الأربع كلها بالجبل الآن.

خبطت بأطراف أصابعي في سرعة فوق زجاج الفاترينة التي أمامي مبديًا استيائي، ثم اقتربت منها خطوتين معلنًا عدم استسلامي لتهرُّبه منّي بسهولة وقبل أن أبدي المزيد من غضبي التقطت رائحة عطر قوية جدًّا تفوح منها.. رائحة غلبت على رائحة البازار، وهزمت عبق البخور المعتَّق الذي يستخدمه عارف دومًا، هربت عيني تتفحصها وهي ما زالت لم تمنحني وجهها بعد، بينما خرجت نبرة صوتي أقل حدة مما انتويت.. احترامًا لهذا العطر:

- مِن فضلك يا عارف، تصرف بأي طريقة، الأمر هام جدًّا، لقد أكَّد عليَّ الشيخ ياسين وهو ينتظرني الآن، أعلم أنك تستطيع مساعدتي.

تابع عارف متهربًا:

- يعلم الله يا دكتور أني أريد مساعدتك لكن ما باليد حيلة.. ربما بعد ساعة.

عندها استدارت صاحبة العطر وهي ما زالت شِبه متكئة على البار أمامها ورمقتني بعينيها الواسعتين اللتين احتلتا البازار.. ووجدتهما جميلتين كعطرها.

كانت ترتدي «جاكيت» من الجلد الضيق الذي يرسم عودًا أوروبيًا منتظمًا وبنطالًا من نفس التكوين، ويحتل قدميها وساقيها حتى المنتصف حذاءٌ ذو رقبة طويلة جدًّا.. نظرت إليها متفحصًا أكثر، وحاولت أن أتبين جنسيتها من ملامح وجهها لكنني فشلت.

كان وجهها يحمل ملامح لكل الجنسيات تقريبًا باستثناء ملامح أهل البلاد الاسكندنافية الباردة.. كما أن عطرها كان يوحي بالدفء.. وجهها إغريقي تمامًا، وجنتان كاملتا الاستدارة كأفروديت.. ذقنها ممدد يلتف بنعومة ليكمل استدارة وجه إيطالي عريق.. معظم شعرها ينام متردِّدٌ فوق ظهرها حائرٌ بين البني الداكن والأسود المحترق.. وكان راضيًا بخصلتين هاربتين تعكسان شقرة خفية فضحتها إضاءة النجفات المعلَّقة بسقف البازار وزادت ملامحها حيرة.. حتى سنها كان ممتدًا يصعب تحديده بدقة.

استجمعت شجاعتي وأضفتها إلى فضولي ونظرت مباشرة إلى عينيها فكانتا مصريتين تمامًا.. وكانتا تعكسان الفضول الشرقي الذي كان يغمرني في اللحظة نفسها.. فقط نحن الشرقيين مَن نملك الفضول الفاضح تجاه الآخر ببراءة هكذا.. أي وجهٍ هذا وأي سيدة تلك التي تحمله؟! وبصعوبة منعت نفسي من الابتسام لها.

قاطع عارف مناجاتنا اللحظية الصامتة هذه وهو ما زال يحاول التهرب من مساعدتي وكرر عرضه:

- لو تمر عليَّ بعد ساعة يا دكتور.

هنا اعتدلت الجميلة تمامًا من ميلتها ووجدتها طويلة.. تحركت ومرت جواري بالممر الضيق الذي يقف فيه كلانا وكعب حذائها ينقر فوق الأرضية الخشبية بانتظام وتركت الممر لتفسح لي مجالًا أكثر اتساعًا للتفاوض مع عارف بحُرِّيَّة، واتجهت ناحية الباب وهي

تحمل بيدها ما خيل إليّ أنه تقليد سيء جدًّا لتمثال فرعوني بحجم دمية أطفال.. تابعت محاولتي الفاشلة لاستمالة عارف قائلًا:

- لكن الشيخ ياسين سوف يـ.....

فقاطعنا صوتها آتيًا من مؤخرة البازار وهي تتفحص تمثالًا آخر وتردد لنفسها بصوت مسموع وواضح جدًّا:

- So there is nothing here but poor copies!

ووجدنا صوتها رغم غضبه يبدو متلاعبًا.. ابتسمت مرغمًا، وكذلك عارف الذي غمز لي بعينه قائلًا:

- السواح يا دكتور.. وآه من السواح.

التفتت إلينا بغتة ورمقته بحدة وبدا أنها فهمت أنه يتحدث عنها.. احمرَّ وجه عارف تمامًا واضطربت ابتسامي فقررت الانصراف وقلت لعارف مستسلمًا وأنا أتحرك ناحية الباب:

- أرجوك يا عارف.. حاول بأي طريقة.

- عيوننا لك يا دكتور.. وللشريف ياسين طبعًا.. ساعة بالظبط.

ثم استأذنت منها أن تتحرك من أمام الباب لأفتحه، ولم أستطع منع نفسي من التطلع إلى وجهها الصبوح، وقلت لها مرتبكًا: «excuse me» فابتعدت بلطف وردت مبتسمة بشيءٍ لم أسمعه من فرط نعومته.

خرجت من البازار أجرّ خيبتي وترددت في مكالمة الشيخ ياسين للاعتذار فهو لم يقصدني في شيء من قبل وكان كريمًا معي منذ قدمت إلى الكامب.. لا أدري حقًّا ماذا أفعل.. ولكن.. هل سمعتها تقول «تفضل» بالعربية وأنا أخرج من البازار؟! أم أنه خُيِّل إليّ؟!

***

عـدت إلى الغرفـة مسرعًـا كأننـي أهـرب مـن شـخصٍ يطـاردني، في الطريـق إلى الغرفـة أحسسـت بالحـر فاختنقـت وأحسسـت بالارتبـاك فاختنقـت أكثـر وأكثـر، دفعـت بـاب غرفتـي دفعًـا وألقيـت المعطـف فـوق الفـراش وزفـرت في ضيـقٍ.. ثـم اندفعـت بغضـب إلى مـرآة البـاب ونظـرت إليهـا في عنـدٍ.

لم تظهـر زينـب، فقـط وجهـي ينظـر إليَّ في المـرآة وكأنـه يتحـداني ويقـول لي«لـن تـأتي زينـب.. تعلـم هـذا».. وكنـت أعلـم أنهـا لـن تـأتي الآن تحديـدًا، اتـكأت إلى البـاب بيـدي وتركـت رأسي يسـقط عـلى المـرآة وقلـت بغضـب: «لمـاذا تذهبـين الآن يـا زينـب؟ لم يكـن هـذا الاتفـاق بيننـا!».. ونظـرت إلى المـرآة مـرة أخـرى ولم تظهـر أيضًـا.

ظللـت مسـتندًا إلى البـاب لا أرغـب في فعـل شيء وقـد غمـرني قنـوط شـديد.. لا أرغـب في أي شيء بالمـرة، مـا الـذي جذبنـي إلى تلـك السـيدة؟ مـا الـذي أخـذني تمامًـا هكـذا في تلـك الجميلـة؟ منـذ متـى يـا يحيـى وأنـت تجذبـك الجميـلات؟ ألم نكـن قـد انتهينـا مـن هـذا العبـث منـذ زمـنٍ بعيدٍ؟ لقـد كنـت تترصـد حركاتهـا في البـازار ، حتـى عطرهـا مـا زال يداعـب أنفـك إلى الآن.. مـا زال يداعـب روحـك الشـقية وقلبـك التعـس.

نظـرت للمـرآة مـرة أخـيرة ولم تظهـر زينـب أيضًـا.. اختفـت تمامًـا وكأنهـا غضبـت، نعـم بالطبـع غضبـت مـم فعلـت.

تركـت المـرآة يئسًـا واسـتدرت ناظـرا إلى الغرفـة.. أي خـرابٍ هـذا الـذي أعيـش فيـه حتـى أدمنتـه؟ لقـد تفننـت في نقـل خـرابي الداخـلي إلى هـذه الغرفـة الصغـيرة التـي تشـبه عربـة الخـردة.

كل شيء مـع كل شيء في كل مـكان، الفـراش مـع الكتـب، الملابـس مـع القصاصـات القديمـة، صـور الأصدقـاء مـع أقـداح القهـوة المتربـة

مع زجاجات المياه الفارغة مع بقايا الطعام، الخطابات القديمة لسباستيان مع خطابات البنك الجديدة التي لم تُفتَح، أصبحت لا أضع أي شيء في مكان معين لاستخدامه مرة أخرى، كل شيء يتخذ مكانه وِفْق ما يحلو له، وأنا أنظر إلى الأشياء بعيني فيختارني منها ما يحب أن يستخدمني، إن اختارتني القهوة شربتها وإن ناداني طعام أكلته، لو لمحت عيني خطاب قديم لسباستيان أعدت قراءته، وإن جذبني حذاء أو معطف ارتديته وخرجت، لم أعد لنفسي وإنما صرت للأشياء.

بحثت فوق الفراش عن متسعٍ ألقي عليه جسدي وتناولت المعطف لألقيه فوق طاولة جانبية يسكنها «جرامافون» عتيق مترب لقلة استخدامه.

فور أن وقعت عيني على الجرامافون ناداني إليه ولم أتردد وقلت «نعم الجرامافون.. ولم لا؟ قد يصالح هذا روحها قليلًا لتهدأ وتتركني أهدأ».

قمت إليه في بعض الحماس وجذبت الأسطوانة الوحيدة خلفه والتي جلبتها معي من شقة القاهرة عندما انتقلت إلى هنا نهائيًّا، كانت أسطوانة «لأسمهان»، أخرجتها من مغلفها بحرصٍ شديدٍ، وضعتها على الجرامافون برفق، كانت الأسطوانة مكتوبًا عليها بخط مزيَّن جميل «إلى حبيبي.. أعشقك - زينب».

بدأت نوبة الاكتئاب من جديد، ووضعت إبرة التشغيل فوق الأسطوانة وتركت أسمهان تشدو بأغنية زينب المفضلة «إمتى هتعرف» وقلت لنفسي «كنت أعرف دومًا.. ومنذ كنا صغارا يا زينب».

كانت تصغرني زينب بأربعة أعوام سبقتها فيها إلى الدنيا لأتعرف على الأهل والجيران والأصدقاء وعلى جدّنا سليم، سبقتها لأعرف كل محلات الألعاب في ميدان السيدة زينب وأصادق أطفال الجيران من الحارات المجاورة لمنزل العائلة وأصير زعيمهم.. وكأن كل شيء كان معدًا لكي تتعلق بي زينب.

أزهرنا سويًا في بيت جدي سليم.. شبت على يدي منذ ساعاتها الأُوَل، قال لي جدي وأنا أداعب الطفلة الجديدة «سمِّ الله يا يحيى».. فهمت خطأ أنه يطلب مني أن أطلق عليها اسمًا.. وكنت عائدًا بالأمس معه من حضرة للذكر في مسجد السيدة زينب القريب من بيتنا، كانت الليلة رائعة والمنشد منتشيًا للغاية، ظل يهيم بنا إلى أن جاء الفجر، قلت لجدي بعفوية « زينب..أسمها زينب».. فضحك جدي حتى دمعت عيناه، وضحك عمي وزوجته، ولم يردّا اختياري لاسم ابنتهما.. وبكت زينب فور تقبيلي لها.

منذ الصغر رافقتني زينب كظلي، صرت بديلًا لأبيها الذي رحلَ سريعًا بعد ولادتها.. وكنت في البداية أشعر بالزهو وهي تمسك يدي بكفها الدقيقة كالفَراش ونحن نلفلف في حواري وأزقة السيدة زينب.. أحكي لها بفخر العارف بالأسرار تاريخ كل منزل وأسرار أصحابه وحكاياتهم بطريقة مسلية تأخذ عقلها.. كانت تفتح عينيها من فرط الدهشة والاستمتاع بالحكايات، وكنت أضيف تفاصيلًا مثيرة من وحي خيالي الصغير حتى تصبح الحكايات أكثر إبهارًا، فيزداد إعجابي بنفسي، وتزداد تعلقًا بي.. فهذا منزل هجره أصحابه لكونه آيلًا للسقوط.. فيصير منزلًا تركه أصحابه هربًا من المارد العتيد الذي يسكنه.. وفي حكاية أخرى ليوم آخر عن نفس المنزل

أخبرها أنني رأيت هذا المارد مرة فلم أخَف أو أهرب منه، تعيد عليَّ الحكاية الأخرى لترد كذبي فأنهرها وأعتزلها بقية اليوم.. فتعود دامعة العينين إلى جدنا سليم حتى يصالحنا على بعضنا مساءً.. وننام معًا في نفس الصالة على الأريكة الكبيرة أمام التليفزيون حتى يطفئه جدي عند الفجر.. وكنت أنام ليزورني المارد الذي كذبتُ بشأنه في أحلامي، وتنام هي لأزورها يوميًّا في أحلامها الصغيرة.

كنت أكبر سريعًا ويزداد طولي يومًا بعد يوم.. يشتد صدري ويتباعد كتفاي ويكبر معهما كذبي على زينب التي لا تكبر.. تظل تصدِّق حكاياتي مهما نضج عقلها واتسعت مقاسات ملابسها..

بعد بضع سنوات من ميلاد زينب تركني أبوايَ مع جدي وسافرا إلى الخليج. كانت تلك هي الموضة السائدة لدى المدرسين في تلك الأيام البعيدة.. وتولى جدي وزوجة عمي مسؤلية تربيتي أنا وزينب، وقد صارت إقامتها الدائمة في منزل جدي بعد رحيل عائلها.. وصرت مسئولًا عن نفسي وعن زينب.. نذهب سويًّا في الصباح إلى مدرستها أولًا.. أطمئن إلى دخولها من باب المدرسة ثم أذهب إلى مدرستي أو إلى تسكُّعي حسبما راق لي مزاجي.. وفي نهاية اليوم أمرّ عليها، تبدأ هي في حكاياتها الصغيرة أولًا ثم أقوم أنا بفقرة الكذب المعتادة، حتى نصل إلى مطعمٍ فقير يقدِّم الفطائر المطعمة بالجبن المملح في شارع بورسعيد جوار مسجد السيدة زينب.. نشتري فطيرتين ثم زجاجتيّ كولا أو نتقاسم زجاجة واحدة لو خاننا ما بقي معنا من مالٍ.. ولم تصرِّح زينب أبدًا أنها كانت تحب مشروب البرتقال بدل الكولا، ولم أعرض عليها يومًا أن نجربه سويًّا رغم أنني كنت أعرف أنها تحبه كمعظم البنات.

نقطع شارع بورسعيد عرضًا أمام المسجد إلى محلات الألعاب والملابس على الجانب الآخر، تسلبنا الفاترينات اللامعة فترة النهار كلها تقريبًا قبل أن نعود إلى منزلنا في شارع «الشيخ ريحان» جوار ديوان عام المحافظة.. نظل يوميًّا نضع الخطط الفاشلة سويًّا لتوفير المال من مصروفنا المشترك لشراء لعبة جديدة لا توافق أمها ولا جدي عليها.. وتحولت اهتمامات زينب مع الوقت من ألعاب العرائس والزينة وألعاب المطبخ البلاستيكية إلى مسدسات الصوت وطائرات حربية تعمل بالبطاريات الجافة وسيارات السباق.. وتظل تلح على جدي وأمها كي يشتريا لها أيًّا من هذه الألعاب فتنال نصيبها من التعسيف بدلًا مني، بينما أتصنع الانشغال بمشاهدة التليفزيون أو مراجعة دروسي.

لم أكن أجد صعوبة في التحصيل.. دخلت الدراسة متأخرًا عامًا كاملًا عن أقراني بسبب سفر والديَّ، فكانت الدراسة يسيرة.. ولا أعلم من أين كنت آتي بكل هذا الوقت للهو والعبث.. وكانت زينب بطيئة في التحصيل رغم ذكائها ونباهتها الواضحين في كل تصرفاتها.. وفي المدرسة كانت تتباهى بي أمام صديقاتها كلما مررت عليها لنعود سويًّا إلى المنزل، وكان يخشاني أصدقاؤها من الأولاد ويتجنبونها لطول قامتي وغرابة ملابسي الثائرة على سني والخارجة عن طبيعة مرحلتي الدراسية.

كنت في تلك السن قد بدأت أطيل من شعري مقلدًا الممثل المشهور وقتها «ميل جيبسون» في أحد أفلامه.. وأتتبع الموضة السائدة في بدايات التسعينيات لمعظم الممثلين والمغنيين الأجانب، حتى أن جدي سليم فقدَ صبره ذات مرة وعنفني بشدة على مظهري

ولم يكـن هـذا طبعـه معـي.. وعندمـا رآني أرتـب خصـلات مـن شـعري على هيئـة ذيـل حصـان قـام مـن مجلسـه عـلى أريكتـه العتيقـة وأسـمعني وصلـة طويلـة مـن اللـوم، قلـت لـه مجادلًا أن مـدرس التربيـة الدينيـة قـد أخبرنـا مـرة أن النبـي كان يسـدل شـعره فـوق كتفيـه.. فحلـف بالنبـي ثلاثًـا أنـه لـو رآني هكـذا ثانيـة سـوف يقـص شـعري بنفسـه.. ولم أخـشَ مـن تهديـده وقتهـا، ولم يطعـه قلبـه أن يفعـل بي شـيئًا.

في المسـاء كان الفتيـة في الحـارات المجـاورة يُلِحـون عـليَّ للنـزول للعـب كـرة القـدم معهـم لإجـادتي لهـا.. وكنـت أعتـذر دائـمًا؛ وقـد بـدأ جـدي يرفـض لعبـي في الشـارع وأجـبرني عـلى الاشـتراك في نـادٍ قريـب تابـع للمدرسـة الفرنسـية بشـارع نوبـار لأمـارس فيـه مـا أشـاء مـن الألعـاب، وهـذا فقـط إن أتممـت واجباتي، فكنـت أكتفـي بمراقبة الأولاد وتشـجيعهم مـن البلكونـة شـديدة الاتسـاع المزينـة بأصـارٍ مـن الياسـمين والريحـان التـي يـشرف جـدي بنفسـه عـلى رعايتهـا.. وأضافـت زوجـة عمـي إليهـا بعـضَ السـتائر الثقيلـة عندمـا بـدأ جسـد زينـب في الاسـتدارة. وعندمـا ينتهـي اللعـب، كنـت أبـدأ متكاسـلًا في تحصيـل الـدروس.. ونتبـادل أنـا وجـدي فناجـين القهـوة التـي أدمنتهـا مـن يد زينـب بعـد أن علَّمتهـا كيف تصنعهـا وهـي في الثانيـة عـشر مـن عمرهـا.. علَّمتهـا أن تمـزج البُـن الفاتح بنفـس مقـداره مـن البُـن المحـترق مـع مسـحة خفيفـة مـن التحويجـة التـي يخفيهـا جـدي في المطبـخ.. فـكان إن تـذوق جـدي القهـوة مـن فنجـاني يقـول مازحًـا «يـا بختـك يـا يحيـى».. فأبتسـم في غـرور بينـما يتـورد خـدا زينـب اللـذان اكتملـت اسـتدارتها قبـل جسـدها، ثـم يقـوم جـدي متباطئًا ليضـع أسـطوانة «كلنـا نحـب القمـر» لمحمـد عبـد الوهَّـاب التـي حفظناها مـن كثـرة سـماعه لهـا، ويظـل يدنـدن بهـا طـوال الليـل وحتـى ننـام.

لم أعلم أبدًا هل كان وجود زينب جواري طيلة الوقت هو السبب في قلة أصدقائي؟ أم أقول ندرتهم؟ أم إنني كنت انطوائيًّا بطبعي كما صرت الآن رغم شقاوتي الواضحة في مقتبل حياتي؟ لكنني أذكر دومًا أنني لم أحظ بصديقٍ حقيقي أقضي معه اليوم كله سوى زينب، وحتى نهاية الثانوية العامة.. وكأن الدائرة قد ضاقت علينا وحدنا تلك الأيام، فاقتصر يومي على تحصيل الدروس وعليها.. ثم على السينما لاحقًا من وراء جدي وزوجة عمي.. وكانت زينب تلح عليَّ دومًا أن آخذها معي ولو مرة واحدة فكنت أرفض دائمًا متعللًا بأنه «عيب» وفي مرة بكت وقالت إنها تعرف أني ذهبت الأسبوع الماضي مع أخت صديقتها «وداد».. فخفت أن تفتن عليَّ لجدي أو لوالدتي عندما تعود في إجازة نهاية العام من الخليج وقد اقتربت الإجازة.. فوعدتها أن آخذها معي بعد انتهاء الامتحانات تلبية لطلبها.

جاء مجموعي بالثانوية العامة مرتفعًا كما توقع جدي وتمنَّت زينب، وعكس ما انتظرت تمامًا، وغلبت الفرحة المنزل كله، فقد كان مجموعي هو الأعلى بين سكان الحي.. وكافأني جدي بمبلغٍ من المال وباركتني زوجة عمي مراتٍ ومراتٍ.. وكانت زينب تتلقى المباركات والتهاني وكأنه نجاحها هي، وذكَّرتني في نهاية اليوم بوعدي لها بالذهاب إلى السينما.. فلم أنكره كعادتي، كانت تغمرني نشوة وزهو فكنت أوافق على أي طلب.

اتفقنا فيما بيننا على حضور حفلة نهارية في السينما حتى لا يشُك أحدٌ في أمرنا.. ارتدت زينب يومها فستانًا ربيعيًّا جميلًا جعلها تبدو كأميرات أفلام الرسوم المتحركة، كانت قد رأت شبيهًا له في أحد ملصقات المجلات التي أزين بها غرفتي.. وكان الفستان ضيقًا نوعًا ما

فبدت على عتبات الأنوثة.. ألقى جدي عليها نظرة لائمة ولم يعلِّق.. وانصرفنا ولم يسألنا أحد عن وِجهتنا..فقد تعود جدي وأمها على خروجاتنا المتكررة منذ طفولتنا.

قصدنا سينيما «أوديون»، لم تكن بعيدة يمكن التمشية إليها في نصف الساعة أو أقل بقليل.. اخترت لنا فيلم « الخطايا السبع » الذي كان يُعرَض حديثًا وقتها.. كان معظم الموجودين فتيانًا وفتيات في مثل سنِّي.. وبعد أن بدأ الفيلم وأظلمت القاعة تمامًا شرع معظم من حولنا يتبادلون الغزل والقُبلات المسروقة وأحيانًا بعض الكلمات الخارجة.. وبعد أن اندمجوا كانوا لا يتوقفون حتى وإن سمحت إضاءة بعض المشاهد بكشفهم.. وكان وجه زينب يزداد تورُّدًا وجرت فيه الدماء حتى أصبح صوت نفسها مسموعًا، سألتها في حرجٍ إن كانت تريد الانصراف، فاتسعت عيناها بشدة وكأنها صُدِمَت وقالت بعندٍ «ألا تأتي هنا مع البنات دائمًا؟.. أنا أيضًا بنت». فلم أستطع أن أرد عليها، وكنت أرغب حقًّا في الخروج، لكن الفيلم كان مشوقًا للغاية.. وكلما تفاجأ «براد بيت» و «مورجان فريمان» باكتشاف إحدى الجرائم الجديدة التصقت بي زينب أكثر واختبأت تحت ذراعي، إلى أن تندمج في المشهد فتعتدل من جديد أو يصرف انتباهها عن الفيلم إحدى القبلات الجريئة من مقعدٍ قريب.

خرجنا من السينيما وكانت زينب منتشية حد الرقص، تتمشى أمامي وتعطي ظهرها للطريق كي تحدِّثني عن الفيلم وتناقش كل مشهد، أخبرتني أنها حزنت كثيرًا على «براد بيت» وزوجته في النهاية.. ثم خرجنا إلى شارع طلعت حرب وخطفت عينيها فاترينات العرض الكبيرة فتباطأت خطواتنا تدريجيًّا واتفقنا ضمنيًّا

على ممارسة هوايتنا القديمة المشتركة بالفرجة على المعروضات، ووقفنا أمام فاترينة عرض كبيرة لمحل ملابس يبدو معروفًا لكثرة الزحام أمامه.. كانت الفاترينة أكبر وأرقى من اللاتي تعودنا عليها في شارع بورسعيد.. أشارت زينب إلى قميص طوبيّ اللون على أحد مانيكانات العرض وقالت «سيكون هذا جميلًا عليك».. نظرت إلى المانيكان وإلى تفصيلة القميص عليه ثم قلت:

- يبدو جميلًا.. لكن المانيكان أكبر مني.. لن أجد مقاسًا يناسبني بسهولة، يحتاج شابًا أطول مني وأعرض..

قاطعتني زينب:

- أنت أجمل من كل الشباب.

فابتسمت لها وتأبطت هي ذراعي لتتحاشى الزحام الشديد أمام الفاترينة.. قلت لها إن المحل يبدو غالي الأسعار وأود أن أحتفظ بالمال حتى دخول الكلية لأشتري ما يناسبني وقتها.. ثم عدنا إلى شارع عبد الخالق ثروت وقطعنا المسافة مسرعين ونحن نقاوم الفتارين والمعروضات بصعوبة حتى وصلنا إلى المنزل، فور صعودنا استأذنت زينب وألحّت على أمها أن تذهب لإحدى الجارات وعادت بعد نصف ساعة وهي تلهث وكأن أحدًا يطاردها.. ثم نامت مبكرًا جدًا تلك الليلة، وقبل الفجر بقليل كنت أقف في الشرفة الواسعة التي اتخذتُ منها مكانًا خاصًا للمذاكرة ظاهريًا ومخبئًا للتدخين سرًا والذي كنت قد بدأته مؤخرًا.

أحسست بخطواتها خلفي فالتفتُّ إليها وكان وجهها مبتسمًا بشدة وتحمل في يدها القميص الذي رأيناه سويًا.. نظرت إليها في دهشة وقلت محاولًا أن أخفض من صوتي كي لا يشعر بنا جدي:

- كيف؟ ومتى ذهبتِ؟

أشارت وهي تضع أصابعها على شفتي وقد خرج صوتي عاليًا رغمًا عني:

- قِسه أولًا.. !

أخذته ملهوفًا من يدها وأنا أردد:

- مجنونة.. كيف ذهبتِ وحدكِ؟ لو علم جدك سيذبحك.

فردَّت: جدي نائم في الصالة.

جذبت ستائر الشرفة الثقيلة كي لا يلمحنا أحدٌ وقلت لها:

- اعملي قهوة حتى أرتديه.

- قهوة؟ الفجر!

فقلت: «نعم.. الآن.. اذهبي». وكنت أخجل أن أخلع ما أرتدي أمامها.. فذهبَتْ، وعندما ارتديته وجدته مريحًا جدًّا وأحسست أنه فُصِّل لجسدي خصيصًا وتعجبت كيف اختارت زينب مقاسًا يناسبني دون وجودي؟! ثم تسحبت إلى داخل الغرفة ووقفت أمام المرآة فوجدته رائعًا، ثم عدت أدخن في الشرفة حتى تعود زينب لتراه قبل أن أخلعه، وعندما أتت شهقت واضعة يدها على فمها وهمست وهي تناولني القهوة :

- قمر يا يحيى..

فازداد زهوي بنفسي وأخذت رشفة من قهوتها الرائعة وقلت وهي واقفة جواري وكل ما في وجهها يبتسم:

- تسلم يدك..

فسألت بدلالٍ:

-على القهوة أم القميص؟

ونظرت إليّ في عيني طويلًا وكانت نظرة الحب الأولى التي أراها في عينيها.. كانت تختلف عن كل ما رأيته منها قبل الآن.. لقد صارت زينب أنثى، حتى إن نظرتها لي أربكتني رغم سنها ولم أنزل عيني من فوقها حتى فاجأتني بقُبلة خاطفة على خدي، وقبل أن أتكلم أو أبادر أو حتى أفكر، تحرَّك باب الشرفة مصدرًا صوتًا جمّدنا سويًّا في مكاننا فعلَّقتُ نظري بالباب وتجمدت زينب مكانها حتى إنها لم تلتفت لترى مصدر الصوت.. وتعالت ضربات قلوبنا حتى كادت تغطي على صمت الشرفة.. ومضت دقائق ولم يدخل علينا أحد وكانت زينب أكثر منّي شجاعة فتسللَت بعدها ثم دخلت غرفتها وسمعت باب الغرفة وهو يُغلق فاطمأن قلبي.

بقيت في مكاني لا أتحرك ولا أفكر سوى فيما قد فعلته زينب وملمس شفتيها فوق خدي تداعبه نسائم الليل فيأخذني إلى أفكار غريبة لم تزرني من قبل.. قطع شيطاني صوت أذان الفجر وانفتح باب الشرفة بقوة ودخل جدي عليَّ.. نظر إلى القميص ثم حوَّل بصره عنه وقال من بين ترديده خلف المؤذن:

- مبروك القميص..

نظرت إلى نفسي ووجدت أني نسيت أن أبدله.. رددتُ بصوت خافت: «الله يبارك فيك».. فلم ينظر إليَّ، ظل يردد خلف المؤذن حتى انتهى ثم تبع الأذانَ بالأدعية وبعض الذكر الهامس وحين انتهى قال:

- ارتدِ شيئًا لائقًا وتعالَ.. ستصلي الفجر معي في المسجد.

قلت متعجبًا وهو لم يطلب مني ذلك من قبل:

- الفجر؟!

فقال وهو ينصرف:

- نعم الفجر، ألم تصبح رجلًا؟!

***

بعد الصلاة جذب جدي مقعدًا من على المقهى المقابل لمسجد السيدة زينب.. وقال بهدوء وهو يجلس عليه متثاقلًا:

- اجلس يا يحيى.

كان الميدان يتحضر ليوم الجمعة وأنشطة سوق ما بعد الصلاة التي تتسم بالازدحام الشديد في ذلك اليوم، طلب لنا جدي قهوة فقلت أنه يمكننا شُربها في الشقة بدلًا من الجلوس في الشارع فجرًا هكذا، فقال:

- أريد أن أريح قدمي قليلًا بعد الصلاة وقبل التمشية.

ثم تابع بشرودٍ:

- جدك عجّز يا يحيى.

فرددت:

- ربنا يخليك لينا يا جدي.

وضع الصبي القهوة أمامنا بعينين ناعستين لا يكف عن فركهما بيده الحرة وسكب بعضًا من قهوة جدي خارج فنجانه سهوًا منه فنهره جدي:

-انتبه يا زفت!

فردَّ:

- لا مؤاخذة يا حاج سليم.

وكان ما زال يفرك عينه حتى كادت أصابعه أن تخترقها.. بدَّلت نهوني مع قهوة جدي وتناول رشفة كبيرة من فنجانه واستطعمها في تلذذ وقال وهو ينظر إلى الميدان:

- نويت على أي كلية يا يحيى؟

كنت قد حسمت أمري قبل فترة مضت إن جاء مجموعي مناسبًا، فرددت مباشرة:

- كلية الآثار.

- ترغب في السفر مثل والديك.. لم يعد أحد يريد أن يبقى في البلد.

وقبل أن أنفي ما قال وأكذب عليه أكمَل:

- إن كنت تريد السفر فعلًا اختر كلية أخرى.. قلبي يحدثني أنك تريد أن تسافر.

- ليس موضوع السفر فقط.. إنما أحب دراسة التاريخ، لا أنكر أنني سأسعى إلى السفر في أقرب فرصة بعدها، لكن الهدف الأساسي هو دراسة التاريخ بشكل ممتع، فأنا أستمتع بقراءته وأظن أنني سأصل فيه إلى شيء ما لو تخصصت فيه.

سألني وقد التفت إليَّ أخيرًا:

- لماذا لا تختار دراسة التاريخ مباشرة؟ كلية الآداب قسم التاريخ مثلًا.

لم أجد ردًا مناسبًا فقال:

- زهو المجموع الكبير طبعًا وآفة كليات القمة.. تريد أن تدرس

ما تحب وأن تلتحق بكلية مجموعها كبير في نفس الوقت.. هذا حقك بالطبع لا يستطيع أن يلومك أحد.

ثم عاد يتفحص الميدان مرة أخرى وقال وقد قارب أن ينهي قهوته:

- اشرب القهوة يا بني.. القهوة مشروب الرجال.. فهي إن لم تُذهِب خجلك لا تُظهره.

لم أفهم ما يقصد لكني تناولت القهوة بصورة آلية وأخذت أشرب منها ببطءٍ شديدٍ بينما تابع وهو يشرد أكثر وأكثر:

- ستعود والدتك نهائيًّا الأسبوع القادم.

فاجأني قوله الغريب هذا.. لم يخبرني أحد بذلك رغم أننا تكلمنا معها بالأمس وهي تبارك لي على النتيجة.. وقال جدي:

- لكنك إن أردت دراسة التاريخ حقًّا يجب أن تقرأ الشارع وليس الكتب.. هل تعرف اسم هذا الشارع مثلًا؟

وكان يشير بعيدًا ناحية شارع خيرت فقلت متعجبًا من سؤاله:

- بالطبع.. شارع خيرت.. لكن ظننتك قلت إن أمي ستعود!.

تابع وكأنه لم يسمع :

- نعم نعم.. كل الناس تعرف أنه شارع خيرت، لكن مَن هو «خيرت» هذا؟

لم أرد؛ فلم أكن أعرف.. فأكمل:

- كان خطاطًا ماهرًا.. يُدعى «عبيد الله خيرت».. كافأه الخديوي توفيق بأن منحه هذه المنطقة بالكامل.. وكانت أرض زراعة وبِركًا يركد ماؤها بعد الفيضان.. كافأه لأنه كان أمينًا فلم يطمع فيما تبقى

مـن قـشرة الذهـب الخاصـة بـأزرار بـدلات الظبـاط في الجيـش بعـد أن نقـش عليهـا جميعـا اسـم الخديـوي وإنـما أعـاد القـشرة إلى الـسراي.. ولمـا وجـدوا مـا فيـه مـن أمانـة أهـداه الخديـوي منطقـة «بِركـة الفيـل» بالكامـل.

قلت متسائلًا:

- بِركة الفيل.. أين؟

نظر إلي بلومٍ وقال:

- وتدَّعي أنـك تحـب التاريـخ وتحـب أن تدرسـه؟! كل هـذا هـو بركـة الفيـل سـابقًا يـا مَـن تحـب التاريـخ.

وكان يشير بيديه لما كان حولنا من مبانٍ.

لم أجـد ردًا عـلى عتابـه جهـلي.. فأنهـى مـا بقـى مـن قهوتـه ونـادى عـلى الصبـي ليحاسـبه ثـم قـال وهـو يقـوم مـن عـلى كـرسي القهـوة:

- لـكل شـارع هنـا يـا يحيـى، لـكل حـارة وكل منـزل في القاهـرة وخارجهـا.. في مـصر كلهـا يـا بنـي.. لـكل شـبرٍ مـن تـراب حكايـة.. ولـكل حكايـة تاريـخ.. ووراء هـذا التاريـخ أنـاس عاشـوا قبلنـا.. فرحـوا وحزنـوا، أحبـوا وكرهـوا، قاتلـوا وقُتلـوا..

وصمت ثم أكمل بحزن:

- عاهـدوا وخانـوا.. إن كنـت تريـد دراسـة التاريـخ يـا يحيـى فاقـرأه في الشـوارع قبـل الكُتـب.. اعـرف تاريخـك جيـدًا يـا ولـدي وفتِّـش عنـه.. فلـم يُهلِـك هـذا البلـد سـوى جهـل أهلـه بالتاريـخ.

وبقينا نتمشى في بـطء إلى المنـزل وكان متأبطًـا ذراعـي وقد وجـدتُ أن خطواتـه صـارت بطيئـة جـدًا.. ولا أعلـم متـى أصبحـت حركتـه محدودة

هكـذا.. وعنـد بـاب المنـزل كان يجاهـد وهـو يتنفـس اسـتعدادًا لمعركـة السـلم القاسـية.. قـال مـرة أخـرى وهـو يضحـك:

- جدك عجِّز يا يحيى.

وقبـل أن ندخـل انتبـه وكأنـه تذكَّـر شـيئًا مـا فقـال وهـو يشـير إلى سـور مبنـى المحافظـة المقابـل لبيتنـا:

- أتعرف هذا المبنى هناك؟

فقلت: مبنى المحافظة.

ضحك ساخرًا وقال وهو يدخل المنزل:

- كان هـذا ومـا زال قـصر عابديـن.. منـذ أقـل مـن مئـة عـامٍ فقـط وقـف عـرابي عـلى بُعـد أمتـارٍ مـن هنـا وأجـبر الخديـوي عـلى التحـدث معـه هـو وجنـوده.. بالمناسـبة.. هـو نفـس الخديـوي توفيـق الـذي منـح عبيـد الله تلـك الأرض.

ثـم صعـد السـلم بصعوبـة حتـى وأنـا أسـنده.. وفـور أن دخلنـا الشـقة ذهـب مسرعًـا إلى الحـمَّام معـدت إلى الشرفـة مرة أخـرى ووجـدت القميص مـا زال عـلى المقعـد. جـاء جـدي بعـد دقائـق ونظـر إلى القميـص.. ثـم مـد يـده يزيـح سـتائر الشرفـة بقـوة وقـال وهـو يشـير إلى السـماء:

- مـا دامـت هـذه السـماء، ومـا دُمـت تراهـا بعينيـك.. لا تُـذلَّ نفسـك أبـدًا إلى ذنـبٍ تحتهـا.. أنـت كريـمٌ وابـن كـرام.

ثم بدا وكأنه قد تذكر شيئًا فقال بمرارة:

- غـدًا تعـود زينـب ووالدتهـا إلى بيتهـا. لـن يكـون هنـاك مـن متسـعٍ في البيـت بعـد أن تعـود والدتـك نهايـة الأسـبوع. لقـد تـزوج والـدك مـن أخـرى وتـرك لأمـك بيتـه هـذا لتعيـش فيـه.

وتركني وانصرف خارجًا.

شلَّت جملته الأخيرة رأسي فبقيت في مكاني لا أجرؤ على التفكير فيما قال.. والدي تزوج؟ أي عبثٍ هذا؟ متى وكيف؟ بعد كل هذا العمر؟!

وتركت جسدي يسقط فوق المقعد وفوق القميص.. وكانت قهوة زينب ما زالت على المنضدة وقد باتت باردة.

***

رحلت زينب عني للمرة الأولى منذ وُلِدَت، احتلت المنزل كآبة غير عادية بعدها.. لم تحاول أن تخفي دموعها وهي تخرج من الشقة مع أمها التي قالت إنها ستجيء الجمعة القادمة لتسلم على أمي. وقالت زينب في حزنٍ شديد «في كل جمعة سنجيء لنبيت معكم». وبكت ولم تكمل كلامها.. أوصلتهما إلى سيارة الأجرة أمام البيت، ورفضت زوجة عمي أن أذهب معهما لأوصلهما إلى بيتهما. وكنت مهمومًا برحيل زينب أكثر من طلاق أمي المقبل كما علمت من جدي، كل الأمور تداخلت في رأسي وانقلبت الحياة بين يوم وليلة، لم تكن أمي من ربَّتني من البداية.. بل جدي وزوجة عمي.. ثم أي شقة تلك التي لن تتسع للجميع لزيادة فرد واحد عليها؟! هل تعمدَّ جدي أن يبعدني عن زينب؟ أتراه من حرَّك باب الشرفة ليلة أمس؟ ثم ماذا ستفعل أمي في مصر؟ هل ستعود إلى التدريس في مدارس الحكومة أم ستبحث عن مدرسة خاصة؟ أم أنها ستجلس في المنزل دون عمل؟ والنقود أيضًا.. هل سيستمر أبي في إرسال النقود أم سيوفرها لعروسه الجديدة؟

تزاحمت الأسئلة وتراكمت في رأسي وأصبحت أخاف من المستقبل للمرة الأولى في حياتي.. حاول جدي طوال الأسبوع أن يخفف عني

واقعة انفصال والديّ، فكان يأخذني معه للصلاة يوميًا ثم نجلس بعد الفجر على نفس المقهى.. ويحكي لي عن تاريخ منطقة السيدة زينب وما حولها.. ثم القاهرة.. وبعدها تاريخ القاهرة القديمة كلها وحتى جوهر الصقلي.

عادت أمي، وكانت طبيعية في كل شيء. لم يبدُ عليها أي أثر لصدمة الانفصال، وكأنها جاءتنا فقط في زيارة طويلة. وفي ظرف أسبوعين كانت قد قدَّمت أوراقها بإحدى المدارس الخاصة القريبة. وقبل أن تبدأ دراستي بالجامعة كانت قد اندمجت في حياتها وكأنها قضت عمرها كله هنا. وأصبحت تتردد على بيت أهلها معظم أيام الأسبوع. لكنها منذ يومها الأول أبدت جفاءً غير عادي تجاه زينب وأمها وكأنها تنتقم فيهما من فعلة أبي. وكانت تسيء معاملة زينب تحديدًا. ولاحظ جدي ما لاحظتُه.. حتى إنني سمعته مرة وهو يعاتبها على معاملتها واتهمها أنها تغار منهما علينا.. حتى تباعدت زيارتهما تدريجيًّا وانقطعت أقدامهما تقريبًا من البيت باستثناء المناسبات المباشرة.. ثم سرقتني الكلية تمامًا بعد بضعة أشهر.

في الجامعة قررت أن أعمل بنصيحة جدي وأضفت عليها.. لم أترك معلومة طالتها يدي إلا وقتلتها بحثًا.. وقررت أن آخذ التاريخ من بداياته. حتى تخصصت في الحضارة المصرية القديمة في النهاية. وبين الجامعة وأسوارها والتاريخ وأسراره غاب وجه زينب عن عيني. واقتصر على السيرة عنها مع جدي أو السلام السريع عبر الهاتف من شهرٍ لآخر. وحزنت عليها عندما علمت أنها رسبت للمرة الأولى في حياتها بامتحان الثانوية العامة.

في نهاية عامي الثالث بالكلية دخلت المنزل على صوت مشاجرة

بين جدي وأمي. فور أن دخلت الشقة كان وجه أمي محمرًا وعيناها غاضبتين تمامًا وجدي يصيح بها:

- هذا حقها علينا.. نحن أولاد أصول وهي حفيدتي مثلها مثل يحيى.

فردت:

- اشرح لها أنت يا حاج سليم. أحضر لها أفضل المدرسين وسادفع لهم أنا ما يطلبون.. لكن اترك ابني خارج هذا الموضوع.

استفسرت منها بشأن ما يدور وسبب الخلاف بينهما فصاحت أمي غاضبة:

- المحروسة الفاشلة لا تستطيع أن تبتعد عنك.

فقاطعها جدي:

- حلفت لك بالله أنني من اقترحت عليهم.

لم ترد عليه وإنما ذهبت إلى غرفتها. وقال لي جدي إنه اقترح على زينب وأمها أن نستضيفها لعدة أيام، كي أساعدها في تحصيل ما يستعصي عليها من المواد كي لا ترسب ثانية. خاصة أنها رسبت في التاريخ الذي صار تخصصي. فقلت لجدي:

- وما المشكلة في ذلك؟ هذا حقها.. بل أقل من حقها.

فقال جدي:

- أعلم أنك ابن أصول يا يحيى.

- ولمَ المبالغة يا جدي.. أليست هذه زينب؟ لقد عشتُ معها أكثر مما عشت مع أمي؟

فابتسم رغم حزنه وقال:

- المشكلة أن والدتك تخشى عليك أن تتزوجها.

تصنعت المفاجأة وأنا بالطبع أفهم ما يدور في رأس أمي وقلت:

- أتزوجها؟ حتى وإن كان كذلك؟ ما علاقته بمساعدتها في المذاكرة؟ لقد كانت تسهر جواري طول الليل أيام امتحاناتي بالثانوية العامة، حتى كادت أن ترسب هي في الإعدادية.

ضرب جدي كفًا بكفٍ وصاح:

- قل لها يا يحيى!

هدأت من غضبه قدر ما استطعت وقبل أن أتركه قلت له:

- بالمناسبة يا جدي.. لا أمي ولا أي إنسان يستطيع أن يجبرني على الارتباط بشخص أو أن يمنعني عنه.

قال وكأنه ينتظر أن يفتح معي الموضوع:

- وزينب.. هل ترى أنها..

فقلت مقاطعًا قبل أن يكمل ما أعرف أنه في نفسه:

- لا زينب ولا غير زينب.. لا أفكر في أحد سوى في نفسي الآن.

بدا عليه الإحباط نوعًا ما، لكنني كنت محقًا وصادقًا مع نفسي فيما أقول.. منذ دخلت الكلية لاحظت أن الفتيات هن من يتوددن ويتقربن إليَّ وليس العكس كما كنت أتوقع.. رأيت في أعينهن حبًا لشيء لم أعلمه ولم أره في نفسي ولا في المرآة.. ربما كان طولي أو ملاحة وجهي.. ربما تفوقي في الدراسة وعلاقاتي المتأصلة بالأساتذة في الكلية.. ربما كنت جميلًا حقًا كما ادعت زينب كثيرًا. لم أعرف حقًا ولم أكن جافًا أو فظًا معهن. تركت نفسي للموجة الخفيفة الأولى في الكلية وتناولتني موجات أخرى أكثر عنفًا في سهولة ويسر.. وكنت لا أرتوي من أحد..

يعجبني البحر لكن لا تروق لي السباحة لفترة طويلة. في البداية كنت أشعر أنه ثمة شيئًا ينقصني فيهن.. ومع الوقت أصبحت أشعر أن كل شيء تقريبا يكون ناقصًا.. وعلمت مبكرًا أن رحلتي مع النساء وإن كانت طويلة وممتدة.. ستكون في الغالب دون نهاية.

اتفقت مع جدي أن تأتي إلينا زينب نهاية الأسبوع في اليومين اللذين تقضيهما أمي في بيت أهلها بالبلد.. ولتعلم بعد ذلك أو لا تعلم بشأن قدوم زينب في غيابها.

هاتفت زينب في اليوم التالي وكان صوتها حزينًا في المكالمة.. اتفقت معها أن نقسم المذاكرة على جلستين على مدار الأسبوعين المقبلين في يوميّ الخميس والجمعة.. على أن تحضر بعد عصر الخميس كي تكون أمي قد رحلت.. وتعللت بالكلية وإن أحسست أنها فهمت دون كلام.

جاءت متأخرة مساء الخميس ولم أكن أذكر متى التقينا آخر مرة. ربما منذ أكثر من عام.. وكنت متعبًا يومها حتى إنني سلمت عليها وعلى زوجة عمي في سرعة ودخلت غرفتي لأنام بعد تعب الكلية.. لكني عندما رأيتها ذلك المساء كنت كأنني أراها لأول مرة.

كبرت زينب.. كبرت بسرعة شديدة وصارت فتاة جميلة وجذابة.. وحزينة أيضًا، كان وجهها رغم نضارته يواريه ذبولٌ واضحٌ.. كزهرة اقتطفها أحدهم ونسي حتى أن يتأملها قليلًا. لكن رحيقها كان فواحًا. ووجدت أنني سأتعامل مع زينب الأنثى وليست زينب رفيقة الطفولة.

اتخذنا مجلسنا المعتاد بالشرفة.. فكرت في شيء أكسر به الجو كي أخفي ارتباكي منها وكي نكسب من الوقت ما استطعنا فلم أجد.. بادرت هي وقالت:

- أعمل لك قهوة قبل أن نبدأ؟

وكانت تسأل وكأنها تأمر وتحركت من جلستها فقلت لها رافضًا:

- لا سأصنعها أنا.. شكرًا.

ووجدتني قد أحرجتها فقلت مطيبًا خاطرها: «أدعك تعملينها.. بشرطِ أن تشربين معي» فابتهجت.. وطلبت منها أن تسأل جدي إن أراد هو أيضًا.. ثم سألتها مازحًا وهي في طريقها للمطبخ:

- تذكرين الخلطة السرية؟

فقالت مبتسمة وقد بدأ ذبولها يضعف أمام نضارتها التي حلَّت:

- طبعًا.. غامق على فاتح.

وأخفضت من صوتها وهي تُكمل «على مسروق».. ثم ضحكت وطارت كالفراشة إلى المطبخ.

كان الغروب قد حلَّ.. ومن الشرفة استطعت أن أرى ديوان عام المحافظة بوضوح ومصابيحه المضاءة المنسية من الليلة الفائتة والحركة بدأت تهدأ في الشارع مبشرة بليلة هادئة من ليالي شهر مايو.. والصيف لم يعلن عن نفسه بقوة بعد. وفي دقائق كانت زينب قد عادت مبتهجة بفنجانين من القهوة وقد تغيرت عن زينب الصامتة منذ دقائق.. وضعت الفنجانين ثم خلعت الشال الذي كانت تضعه على كتفيها، ووجدتها قد أصبحت فتاة فعلًا.. لاحظت مجرى عيني على جسدها فقالت هاربة بعينيها:

- هل دراسة التمريض صعبة؟

استغربت سؤالها فقلت:

- لماذا التمريض؟

- أتمنى أن أدخل تمريض بعد الثانوية.

- لا أعرف عنها شيئًا.. أظن أنها صعبة.. غالبًا كل الدراسات الطبية صعبة.. دعينا من الكلية وقولي لي ما المشكة الآن؟ لماذا رسبتِ في التاريخ؟ التاريخ مادة سهلة ومسلية جدًّا.. كله حكايات ومذاكرته بسيطة.

قالت:

- المشكلة ليست في التاريخ.. المواد كلها صعبة ومعقدة.. لقد نجحت في المواد الأخرى بالصدفة.

- ستنجحين هذه المرة بإذن الله.. وسنختار معًا كلية مناسبة معي في نفس الجامعة.

أشرقت زينب بشدة وبش وجهها وقالت:

- ونعود سويًّا من الجامعة كل يوم.. كما كنا نفعل بعد المدرسة؟

ابتسمت وقلت لها:

- ونعود نلفلف على فاترينات المحلات كل يوم.

وكنت أنظر في عينيها العسليتين الجميلتين وكانتا تلمعان من الفرحة ووجدتها تنظر إليَّ تلك النظرة القديمة التي لم أنسها أبدًا.. قلت هربًا من عينيها:

- لا بُد أن نعرف الآن ما المشكلة في المذاكرة:

ردت بسرعة:

- لا مشكلة في المذاكرة.

ثم أشارت إلى صدرها وقالت:

- المشكلة هنا.. المشكلة هي أنت.

ووضعت يدها على يدي فوق سور الشرفة وقالت:

- أنا أحبُّكَ يا يحيى.

ولم أعلم أبدًا مَن منا بدأ في تقبيل الآخر. ولم نهتم بذلك. ولم نهتم حتى بستائر الشرفة المفتوحة. ولا بالتاريخ ولا بالثانوية العامة وكانت أول مرة أقبِّل فيها أحدًا.. وطالت القُبلة لا أدري لمتى.. ولم أمنعها ولم تمنعني، ولم نهرب من شفاهنا ولا حتى كي نلفظ أنفاسنا.. كانت الغواية أقوى وأسرع من كل شيء.. وصاح جدي من خلفنا: «لعنك الله يا يحيى».. وكان وجهه منتفخًا من الغضب ويداه ترتعشان فوق عكازه وعيناه بهما من الغضب ما لم أنسَه طوال حياتي. حتى إنني لم أتحرك من شدة الخوف ولم أفلت زينب من بين يدي حتى تناولت هي شالها وهي ترتعش وتركت كتبها وحقيبتها وهربت مسرعة خارجة من الشرفة ومن المنزل كله.

***

كانت أسطوانة أسمهان تصدر أصوات دقات متوترة تحت إبرة الجرامافون بعد أن انتهت دون أن أدري متى. وكان وجهي محمرًا وأنا أتذكر عيني جدي بعد كل هذه السنوات الطويلة. حتى إنني تلفَّت في غرفتي بالكامب وكأنني أبحث عن عينيه الغاضبتين المختبئتين في أركانها تراقبانني.

قمت من فوق فراشي وما زال قلبي يدق بعنف من الذكرى ومرارتها. أسكتت الجرامافون بغضبٍ وقد وترني صوت دقاته وهممت بأن ألقي بنفسي فوق الفراش ثانية لكنني انتبهت أن الدقات

لم تنتهِ بعد. نظرت إلى الجرامافون متعجبًا فوجدت أن الدقات كان مصدرها باب الغرفة.

اتجهت إليه لأفتحه وقلت لنفسي ربما عارف قد دبر لي السيارة بسرعة كما وعد. فتحت الباب فوجدت سيدة البازار واقفة أمامي ومن خلفها الشمس كاملة.. وكانت تبتسم وهي تسأل بلهجة عربية واضحة:

- أنت دكتور يحيى؟!

***

(٢)
ياسمينا

عزيزتي بيلا:

قال لي «زين» أن كبيرهم يعمل في وادي حبيبة.. وطلب مني أن أبحث عنه هناك.. ورفض أن يضيف أي تفسير أو أن يشرح لي شيئًا.. منذ قابلته وهو لا يتحدث إلا بالرموز وكل جملة مغلفة بالشفرات والأسرار.. لكنني حمدت الله أنني وجدته في النهاية.

عمِلت بكلام «زين» وذهبت بالفعل إلى «وادي حبيبة» بحثًا عنه حتى وجدته أخيرًا.

عزيزتي بيلا.. أم أقول أمي الحبيبة. لشدة ما أفتقدك يا حبيبتي. ليتك كنتِ معي اليوم في البازار لتريه بنفسك؛ شاب وسيم.. أم أقول رجلًا وسيمًا له وجه عجوز حزين دائمًا وإن ابتسم لي بعينيه أول ما التقينا.. ذكرني وجهه بـ«أندريا بوتشيلي» فور أن رأيته بالبازار.. له تقاسيم وجه «بوتشيلي» الذي أدمن سماع أغنياته. أتراه يمتلك حنجرة عذبة مثله؟ وكأنه رجلٌ إيطاليٌّ يعيش في مصر. آه يا أمي.. هل تذكرين شجارنا الدائم سويًا عندما كنا في الإسكندرية..

كنتِ دائمًا تغضبين مني عندما أقول لك إنني في الأصل إيطالية نسبة لأبي.. كنتِ تخاصمينني ويلتوي وجهك وتتجاوزني عيناك وتقولين لي: «أنتِ يونانية.. يونانية مثل أمك.. والدك تركنا وحدنا» لكن هل كنت أفعل ذلك حقًّا لأنني كنت مثل كل البنات في سني أريد أبًا أنتسب إليه؟ أم كنت ألومك في سري لأنني كنت أعلم أنه تركنا لإصرارك على العودة إلى مصر وإلى منزل جدتي «روز» بالإسكندرية؟ وإصرارك على بحثك عنها منذ اختفت في مصر وانقطعت أخبارها.

سامحيني يا بيلا.. سامحيني يا حبيبتي لقد كنت طفلة لا أعي ما أقول.. لكنك إن شئتِ الحق فدائمًا ما كنت أجدني مصرية، مصرية مثل جدتي روز و مثل الخال أنطوان. مصرية تمامًا مثل ذلك الوسيم الذي وجدته في بازار «عارف».

يقول «عارف» إنه دكتور بالجامعة.. وأنه كان يدرِّس الآثار. عندها تأكدت من أنه مَن كان يقصده «زين» وكان عارف يساومني على بيع تمثالٍ سيءٍ جدًّا للملك فرعوني. لّمحت لعارف أنني سأعطيه ما يريد في البداية كي أستنطقه عن ذلك الوسيم الذي جاء لدقيقتين ورحل.. وبعدما انصرف سألت عنه عارف وأنا أبرز له الخمسين دولارًا ثمن التمثال الرديء فقال لي كل شيء في دقائق، قال إنه دكتور آثار بالجامعة، وأنه ترك التدريس منذ سنوات، وأنه يقيم في الغردقة منذ وقتها لكنه يبيت دائمًا وحده في غرفته بكامب وادي حبيبة. ثم تابع عارف قائلًا إنه غريب وأن وراءه سرًّا لا يعرفه أحد.. كما يعتقد أنه هارب من جريمة ما ويختبئ هنا في وادي حبيبة. وعندما بدأ عارف في الاسترسال بمعلومات واضح أنها خيالاته هو، سألته عما كان يطلبه منه في إلحاح

ويصر عليه.. فأخبرني أنه يريد أن يستأجر سيارة يذهب بها إلى قرية ما في داخل الجبل ليقابل أحد العرب بها.. لكن السيارات كلها كانت غير متوفرة وقتها. خيل إليَّ أنه ربما تكون هذه فرصة لن تتكرر.. سألت «عارف» عن مكانه بالكامب فابتسم اللعين في خبثٍ وأشار إلى ممر بعيد توجد به مجموعة من الكرفانات المتصلة ببعضها.. وقال إن غرفته هي الأخيرة في الممر.

عزيزتي بيلا.. لا أريد أن أطيل عليكِ في هذا الخطاب أكثر من ذلك.. لقد قابلته يا أمي.. اسمه يحيى، كان يبدو حزينًا جدًّا، وكاد أن يلين ويقبل عرضي عليه.. لولا حظ ابنتك التعس دومًا.. لكنني أنتظره الليلة لعله يأتي، ليته يأتي، فأنا وحيدة هنا.. وحيدة جدًّا يا بيلا. وصرت أكثر وحدة بعد أن قابلت يحيى.

أحبك وأفتقدك..

ابنتك المحبة: ياسمينا.

***

عندما كنت في البازار رأيت في عينيّ «يحيى» شيئًا يناديني بقوة. يقول لي أن تعالي وستجدين عندي ما تبحثين عنه.. وأنا كنت أبحث منذ سنوات، لكنني كنت أجهل ما هذا الذي أبحث عنه.. يأتيني النداء كل فترة منذ رحلَتْ والدتي بيلا.. وكان آخر نداء هو ما رأيته جليًا في عيني «يحيى» وهو يستأذنني قبل أن يخرج من البازار. لكن إن كان نداء حقيقيًّا فلماذا رفض عرضي عليه عندما ذهبت إلى غرفته؟! وهل رفض حقًا أم أنه ادَّعى الرفض. بدا لي وكأنه يقاوم شيئًا قبل

أن يوافقني لكنه اساسلم له في النهاية ورفض عرضي. هل ستخذلني أنت أيضًا يا يحيى؟.. كان نداؤك لي قويًّا حتى إنني تعمدت أن أرد عليك بالعربية في البازار علك تلتفت إليَّ أكثر.. حاولت أن أستبقيك رغم أنني أتعمد دائمًا أن أخفي نطقي للغة العربية منذ رجعت إلى الإسكندرية بعد فراق دام أكثر من خمسة عشر عامًا، لكني لم أيأس منك.. وقررت أن أحاول حتى النهاية.

يقول زين إنني سأجد لديه الإجابة؛ لذا لا سبيل لدي سوى الإجابة التي لم أكن أعلم من الأساس ما هو سؤالها.

استجمعت شجاعتي واتجهت إلى غرفة يحيى حيث أشار لي عارف وأخذت أقرع الباب مرات ومرات ولم يأتني رد.. خشيت أن يكون قد دبر سيارة بطريقة ما وضاعت عليَّ الفرصة. ولم أتلقَّ ردًّا من خلف الباب. قررت أن أستسلم في النهاية وأجرّ خيبتي وأعود إلى الاستوديو الذي أعيش فيه مؤخرًا بالغردقة. وقبل أن أحرك قدمي وجدتها لا تطاوعني على الرحيل، وسألت نفسي: هل وراء الإصرار هذا شيءٌ آخر غير الإجابة؟.. وخفت جدًّا.. فأنا أهرب من الرجال ولا أسعى إليهم منذ ما حدث مع فيليب. ويجب أن أفيق لنفسي.. لقد كدتِ أن أفقد حياتي في آخر مرة.

اتخذت قراري بالرحيل عندئذ، لكن خانتني يدي وقرعت هي الباب وحدها من ورائي، وسمعت حركة واضحة خلف الباب ثم فُتح فجأة ووجدته أمامي.. ارتبكت بشدة فور أن رأيته أمامي وقلت دون حتى أن ألقي التحية:

- أنت دكتور يحيى؟

بـدا مشـدوهًا فـور أن رآني وسـمعني، وكنـت أحـاول أن أصطنـع ابتسـامة لأخفـي ارتباكـي الشـديد، ردَّ عـليَّ بعينـين متسـتعتين:

- ولكنك..! أتتحدثين العربية؟!

قلت وقد زاد ارتباكي حتى بلغ أقصاه:

- نعـم نعـم.. أنـا أصـلًا مصريـة.. أعنـي جـدتي كانـت كذلـك.. لقـد عشـت هنـا كثـيرًا.

ولم أدرِ لـماذا أجبتـه مبـاشرة هكـذا وأخبرتـه عنـي وعـم جـدتي منـذ أول محادثـة. كان يقـف مفـرود الجسـد أمام بـاب غرفتـه كأنـه يحميهـا مـن دخول أي أحـد. ووجـدت الموقـف قـد أصبـح سـخيفًا وكان لامـع العينـين وكأنـه عـلى وشـك البـكاء. ظللنـا صامتـين مكاننـا حتـى أحنـى رأسـه قليـلًا في استفهام واضـح فأدركـت أني لم أقـل لـه أي شيء بعـد فقلـت:

- عـذرًا، لقـد فهمـت مـن عـارف أنـك تبحـث عـن سـيارة لأمـرٍ عاجـلٍ ولا توجـد سـيارات متوفـرة حاليًـا بجـاراج الكامـب ولقـد جئـت هنـا بسـيارة مسـتأجرة مـن الفنـدق لفـترة الإقامـة.. ففكـرت أنـك ربـما...

قاطعني يحيى:

- ولماذا تتخفين إذًا وراء لغة أخرى؟! مَن أنتِ؟

أحسسـت هجومًـا في كلامـه وتهكـمًا في لهجتـه، وجدتنـي أدافـع عـن نفسـي:

- أنـا ياسـمينا.. أنـا يونانيـة في الأصـل.. لكـن جـدتي كانـت مصريـة وعشـت هنـا في منزلهـا سـنوات طويلـة.

قال بفضول وقد بدأت حِدَّته تهدأ:

- عشتِ هنا؟ في الغردقة؟

- لا في الإسكندرية.. كان هذا منذ زمنٍ بعيدٍ.

وكان يحيى ينظر إلى وجهي وعيناه تتفحصان شفاهي وكأنه يمررها على جهازٍ لكشف الكذب داخل رأسه، ولم أكن أكذب.. قلت له وأنا أفسّر تحدُّثي الإنجليزية:

- أما بالنسبة للغة فقد..

لكنه قاطعني مشيرًا بيده وقال:

- أفهم أفهم.. تبغين معاملة خاصة طول الوقت كالأجانب.

ثم ابتسم وتابع:

- لكنك ستدفعين كثيرًا طوال الوقت أيضًا.

ضحكت وقلت وأنا أشير إلى التمثال الرديء في يدي:

- فعلًا.. لقد دفعت خمسين دولارًا في هذا العبث.. أتصدق؟!

تناول يحيى التمثال من يدي وأخذه ثم بدأ يتفحصه بعينين خبيرتين وقال:

- هممم.. التمثال سيئ فعلًا.. لكنه ليس سيئًا جدًّا كما رأيتك غاضبة في البازار.. هذا تقليد مقبول نوعًا لرمسيس الثاني.

- ماذا تقول.. بل سيء جدًّا.. انظر إلى قدمه اليسرى أعرف أنه رمسيس الثاني بالطبع.. لكن أهذه قدم ملك أو حتى قدم رجل عسكري؟

ولم أستطع أن أشرح أكثر فقلت:

- Left leg step, You know this for sure!

وهنا انتبه يحيى لما أقصد وقال:

- نعم نعم فهمت مقصدك.. التمثال هنا ضامم قدميه جوار بعضهما وليس كما هو شائع عند الملوك والعسكريين أن يتقدم بقدمه اليسرى خطوة إلى الأمام.

رددت عليه منتصرة: أرأيت؟

ثم بدا وكأنه انتبه لشيء ما فسأل:

- ولكن من أين لكِ بهذه المعلومة؟ ولماذا تستنكرين عليَّ الجهل بها؟ هذه معلومة يعرفها المختصون فقط.

ارتبكت قليلًا وخفت أن أفقد ثقته وقلت:

- سألت عارف عنك وأخبرني أنك دكتور بالآثار.

- وكيف تعرفين بالمعلومة أنتِ؟ هل تعملين بالآثار أيضًا ؟

- لا إطلاقًا. أنا أعمل بالتسويق. أعني كنت أعمل بالتسويق سابقًا في شركات متعددة الجنسيات.. لكني قرأت المعلومة ذات مرة لا أذكر أين.

عاد يحيى يتفحص التمثال مرة أخرى وقال:

- تقليد سيء فعلًا.. يمكنك أن تستعيدي نقودك إن أحببتِ. أتريدني أن أكلم لك عارف؟

قلت مقاطعة: لا لا بالطبع.. ما كنت اشتريته من البداية.

ثـم صمـت وبـدا أن الـكلام انتهـى ولم أجـد مـا أقولـه ولاحظت أن يحيى كان ينظـر خلـف قدمـي ناحيـة الأرض باهتـمام.. هممـت أن ألتفت لأرى مـا الـذي ينظـر إليـه فعاجلنـي بالسـؤال قائـلًا:

- ظننتك كنتِ تقولين شيئًا عن سيارة لديك؟

ابتهجت وقد بدأ يلين وقلت:

- نعـم نعـم.. لـدي سـيارة مسـتأجرة هنـا معـي إن كنـت تريـد استخدامها.

نظر إلى ساعة يده وفكر قليلًا ثم ناولني التمثال بيده وقال:

- أحتاج إلى سيارة فعلًا لكني لا أستطيع القيادة.

أخـذت منـه التمثـال فلمسـت أناملـه يـدي فارتعبـت وابتعـدت خطوتـين وجـزع مـن ردة فعـلي المبالـغ فيهـا، فقلـت متداركـة الموقـف:

- لا يهم يمكنني أن أوصلك.

وكان قلبي يدق خوفًا من أثر تبعات لمسته يدي.. قال معترضًا:

- أشكر عرضك لكني أفضل أن أنتظر عازف.

أحسسـت أننـي فقدتـه مـرة أخـرى بسـبب ردة فعـلي الحمقـاء.. وكانت يـدي تتحسـس منديـلًا في حقيبـة يـدي استعدادًا للمفاجـأة. قلـت في محاولة بائسـة وقـد رأيـت في عينيـه رغبـة قويـة في قبـول عـرضي لا أدري لمَ يقاومها:

- ظننتك في عجلة من أمرك.. كنت تلح على عارف في البازار.

وعـلى ذِكـر السـيرة ظهـر الملعـون عـارف فجـأة مـن تحـت الأرض. جـاء عـلى ناصيـة الممـر المـؤدي إلى الغـرف وقـال:

- السيارة جاهزة يا دكتور يحيى.

وابتسم بحبثٍ لي عندما رآني واقفة مع يحيى أمام باب غرفته ثم انصرف. التفت إلى يحيى وقال:

- لقد حُلت مشكلة السيارة.. أشكرك على أي حال.

ثم عاد يلتفت إلى الأرض من خلفي.. قلت بإحباطٍ شديدٍ:

- عفوًا.. لا داعي لذلك.

واستدرت كي أرحل وكلي غضب وإحساس بالفشل.. حرَّك يحيى باب غرفته متأهبًا لإغلاقه فقلت مسرعة في محاولة أخيرة فاشلة لاستبقائه:

- هل تعرف مقهى يقدِّم قهوة تركية جيدة في مارينا في الغردقة.. سمعت من عارف أنك تعيش هنا منذ سنوات.

قال وقد وارب معظم الباب:

- يبدو أنك سمعتِ عني الكثير من عارف.. جربي كافيه «the cave» قهوته ممتازة على أي حال.

وقبل أن يغلق الباب تمامًا قلت بسرعة وأنا أبتسم:

- تشرب معي قهوة الليلة عندما تعود؟

فردَّ دون تردد:

- متأسف سأكون مشغولًا.

وبدا مرتبكًا بعدها واستأذنني أن يغلق الباب.

أوليته ظهري وانصرفت، وسمعته يغلق الباب خلفي وأحسست وكأنه قد أغلقه على روحي.

***

كان وجهي محمرًا وقد أحسست بحرارته الشديدة.. تناولت المنديل الذي أحمله معي دومًا من حقيبتي وضغطتُ برفق فوق شفتي وأنفي.. ونظرت إلى المنديل فوجدته كما هو.. وفررت من الكامب كله وعدت إلى الأستديو في الغردقة.

وصلت الاستوديو خلال وقت قليل جدا بعد قيادة سريعة متهورة على غير عادتي.. وكان وجه يحيى وهو يقول لي معتذرًا «متأسف سأكون مشغولًا» لا يفارق عيني.. وأنا التي لم أتوسل إلى رجلٍ من قبل طيلة حياتي.

ألقيت حقيبتي فور أن دخلت الاستديو وخلعت ملابسي على عجل ورحت الحمَّام لأغتسل من أتربة الكامب.. ومن عينيّ يحيى. أدرت أغنية ـ«سيلين ديون» هذا هو الطريق، ورفعت صوت «الأي بود» إلى أقصى درجة ممكنة.. وتركت نفسي للمياه الساخنة تغسلني.. وفور أن بدأ الماء يداعب جسدي بدأت روحي تهدأ.. فأنا ابنة البحر سواء هنا في الغردقة أو سابقًا في اليونان.. أو حتى قديمًا في الإسكندرية.. نظرت إلى جسدي في مرآة الحمَّام الكبيرة وقد بدأ بخار الماء يعلق بها وتشوش انعكاس جسدي فيها.

كانت أمي «بيلا» تقول أنني لم أرث من أبي سوى طوله.. بينما ورثت منها ومن جدتي المصرية «روز» وجهًا إغريقيًا وعينًا مصرية.

وقع جدي اليوناني فيليب في هوى جدتي عندما كان يعمل على متن إحدى سفن الشحن بميناء الإسكندراية في الخمسينيات.. وقد أخذه الجمال المصري وصرعه دلال جدتي حتى إنه ظل عامًا كاملًا

يسعى لنَيل رضاها ولم يخشَ من والد جدتي الضابط في الجيش المصري. وقد كانت بداية حكم محمد نجيب. وفي الفترة التي نشب فيها الخلاف بين عبد الناصر ونجيب سافر جدي إلى اليونان ومعه جدتي روز هربًا من مصر. وأرسلت هي خطابًا بعد سنوات إلى أختها الكبيرة تريز وبه صورتها هي وجدي ويحملان الصغيرة «بيلا» بين أيديهما.

تقول أمي إن أهلها حاولوا مراسلة «روز» لأعوامٍ طويلة لكنهم لم يعرفوا لها عنوانًا.. ولم يعلم أحد لماذا قررت جدتي فجأة وبعد عشرين عامًا أن ترجع إلى الإسكندرية.. وكان هذا في بداية أوائل السبعينيات.. تركت ابنتها «بيلا» مع جدي فيليب وكانت أمي في الثامنة عشر من عمرها. وراسلت أمي وجدي وطمأنتهم على أمورها في مصر. ثم انقطعت أخبارها فجأة وظل جدي يحاول أن يصل إليها بأي طريقة فلم يجد بُدًّا من السفر إليها في مصر.. وعاد يجر حنينه وحزنه وراءه. قال لأمي إنها أخذت تنتقل بين مدن مصر ومعها الصبي النوبي «زين» والذي كان يعمل خادمًا في سراي والدها المصري في الفيلا بالإسكندرية. وكان آخر خبر عنهما أنهما كانا يجهزان لسفرية إلى مدينة في الجنوب ظن والدي وقتها أنها مدينة «قنا» بصعيد مصر. ولكنه لم يجد أي خيطٍ يدله من أين يبحث. خاصة أنها كانت أيام حربٍ في مصر.

عندما كنت في السادسة من عمري وكانت أمي قد تزوجت واستقرت في نفس البلدة باليونان. صحوت على مشاجرة تكرر منذ أيام ولا أفهم منها شيئًا بين أمي وأبي.. وكان يشير إليَّ ويؤكد صائحًا على أمي أنه لن يسمح بذلك.. ولا أذكر من المشاجرة أي شيء سوى

أنني وجدت نفسي مع أمي بعدها بيومين في طائرة قالت لي أمي إنها ستذهب بنا إلى الإسكندرية.

لم أعلم كيف قدَّمت بيلا نفسها في منزل عائلة روز القديم.. وكان قد مضى على اختفاء روز أكثر من خمسة عشر عامًا.

كنت طفلة.. وفرحت بالفيلّا الكبيرة وبالغرفة الواسعة المطلة على البحر والتي أعطوها لنا كي نعيش فيها.. قالت لي أمي أننا سنظل هنا لمدة عام كامل.. فسألتها عن المدرسة، وعن أصدقائي الذين كنت ألعب معهم.. فصاحت بي غاضبة وقالت لي كلامًا كثيرًا لم أفهمه وقتها لصغر سني.. ولم أكن غاضبة أو أشعر بأي غربة.. كانت الإسكندرية بالنسبة لي لا تختلف عن «رودس»[1] كثيرًا.. فكلاهما على البحر.. وهو الشيء الوحيد الذي كان يهمني. ولم أعلم أنني سأقضي في الإسكندرية عشر سنوات قبل أن أرجع إلى اليونان مرة أخرى.

منذ اليوم الثاني لوصولنا بدأت بيلا رحلة البحث عن الصبي «زين».. فكما عرِفَت من خالها كان آخر شخص يعرفونه موجودًا معها.. وكانت تأخذني كل فترة لنبحث في حي مختلف من أحياء الإسكندرية العديدة.. وبعد عدة أشهر.. وبعد أن اكتشفت أن الأمر سيطول توسط لنا خالها أنطوان وقدَّم أوراقي للدراسة في «الليسيه الحرية» لإكمال دراستي في مصر.. والتحقت بيلا لتدريس اللغات في نفس المدرسة، وفي غضون أعوام قليلة صرت طفلة مصرية خالصة.. حتى إن بيلا كانت تداوم على الحديث معي باليونانية كي لا أنساها.

في عامي الأول في ليسيه الحرية كان الأولاد والبنات ينظرون إليّ جميعًا

(1) هي جزيرة يونانية تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا.

نظرة استغراب طوال الوقت.. رغم أنني لم أكن شقراء، لكن ملامح وجهي كانت إغريقية تمامًا.. خاصة ذقني وشفتيّ .. ورغم إحساسي بالاختلاف عنهم إلا أن ذلك لم ينتج عنه انطواء أو خوف.. انغمست في الصداقات وصادقت كل من استطعت.. صرت الصديقة المفضلة لكل بنت وكاتمة أسرار الأولاد في الفصل.. وفي بداية العام الجديد أصبحت زعيمة لأهم شلة في المدرسة.. خاصة بعد أن أصبحت والدتي «بيلا» هي مدرِّسة اللغة الإنجليزية للمرحلة الابتدائية.. وأصبحوا ينادونني في المدرسة «ياسمينا بنت بيلا».

كان يومي في الإسكندرية ينقسم نهارًا بين المدرسة والبحث مع بيلا عن أي خيطٍ يقودها إلى جدتي «روز» أو حتى إلى الصبي المختفي «زين»، وكان المساء غالبًا أقضيه مع بيلا وخالها أنطوان، الذي ائتنس بوجود أحد معه في الفيلا الواسعة التي أصبح يعيش فيها وحده تقريبًا.

في العام الثالث لي بمصر كنت قاربت العاشرة من عمري، وفي المساء وأنا أجلس مع الخال أنطوان وكان يحاول جاهدًا أن يعلمني لعبة الشطرنج كي أشاركه اللعب بعد رحيل صديقه المقرب والأخير قال لي:

- أنتِ ذكية جدًّا يا ياسمينا.. مثل والدتك.. بل أنتِ ذكية مثل جدتك «روز»

قلت له: كيف كانت جدتي روز ؟

شرد بعينه وهو يشير إلى صورة لها على الجدار قائلًا:

- كانت أجمل بنات الإسكندرية.. وأكثرهن ذكاءً.. ولولا أن خطفها

منـا جـدك «فيليـب» هـذا لكانـت زوجـة رجـل مهـم الآن.. كان شـباب الإسـكندرية جميعهـم يخطبـون ودَّهـا.. حتـى أن رجـلًا ذو شـأنٍ هنـا طلب يدهـا لابنـه الـذي كان مهندسًـا كبـيرًا في البحريـة. إلا أن جدتـك تركت كل هـذا وأحبـت عامـلًا بسـيطًا مـن قريـة فقـيرة في اليونـان.. وهربـت معه في أيـام سـوداء.

- ولكن بيلا تقول إنها عادت إليكم من النهاية.

- لا يا ابنتي.. لم تعد إلينا.. عادت لأمر لا يعلمه أحد.

- كيف؟

- قلـت لـك لا أحـد يعلـم لمـاذا عـادت.. لم نكـن نعـرف لهـا عنوانًـا في اليونـان.. فقـط بعـد مـوت أختنـت الكبـيرة تريـز ظهـرت جدتـك فجـأة.. لم يعاتبهـا أحـدٌ عـلى اختفائهـا كل هـذه السـنوات.. رحبنـا بهـا وأكرمناهـا حتـى إننـا طلبنـا منهـا أن ترسـل إلى زوجهـا إن كان يريـد أن يـأتي هـو أيضًـا ويعيشـا معنـا.. وكانـت قـد تركـت والدتـك معـه وهـي شـابة.. لكنهـا رفضـت تمامًـا وأحسسـنا أن الأمـور بينهـا وبـين جـدك لم تكـن نعيمًا تـترك مـصر مـن أجلـه كـما تخيلنـا.. وقضـت معنـا شـهرًا ثـم اختفـت هـي والمدعـو «زيـن».

كنـت قـد حفظـت اسـم «زين»مـن كثـرة مـا كانـت تـردده بيـلا ونحـن نبحـث عنـه.. وفي سـهرة أخـرى وأنـا أجاهـد كـي أحافـظ عـلى وزيـري مـن تربـص الخـال أنطـوان بـه في الشـطرنج دخلـت علينـا «بيـلا» صائحة بعـد محادثـة هاتفيـة:

- لقد وجدت منزل «زين».

وكانت ترقص من الفرحة.

سألها أنطوان كيف وصلت إليه فأجابته أن مدرسًا زميلًا لها سأل عنه سماسرة شقق أصدقاء له حتى عرف مكان الغرفة التي كان يعيش فيها.. كانت «بيلا» من شدة فرحتها تود لو تذهب إليه فورًا فسألها أنطوان أن تذهب باكرًا لتأخُّر الوقت.. فأطاعته احترامًا له.

وفي غرفتنا قبل النوم أخذتُ ألح عليها أن تأخذني معها لكنها رفضت.. فاصطنعت بكاء فقالت أنهم سيعاقبونني في المدرسة قلت لها بين بكائي في فخر لم ألفقه «أنا ياسمينا بنت بيلا» لا أحد يستطيع أن يؤذيني، فضحكت واحتضنتني ثم وافقت.

جاء الصباح مخيّبًا لكل آمال بيلا. كان العنوان بأحد الأزقة المنزوية في حي رأس التين. ولم يكن بعيدًا عن فيلا أنطوان. دخلنا إلى حارة «زاوية بكير» وصعدنا إلى سطح المنزل المذكور لكن الباب الحديدي الخاص بغرفة «زين» المغلقة كان ينظر إلى بيلا في عناد واضح.. وسألت أمي سيدة تفترش الأرض أمام غرفة مجاورة له على السطح فقالت إنها لم تسمع عنه.. وقالت إن الغرفة لم يسكنها أحد منذ جاءت هي إلى السطح.. لم تستلم بيلا في البداية وسألت عن صاحب العقار فلم نجد سوى زوجته.. وكانت تعرف زين جيدا وقالت أنه سكن هذه الغرفة قديمًا لكنهم لم يروه إلا مرات نادرة منذ زمن.. ورغم ذلك عادت بيلا إلى غرفة زين وأخرجت قصاصة ورقية كتبت فيها شيئا وألقتها تحت عقب الباب.. ثم ذهبنا.

خرجنا أنا وأمي من «زاوية بكير» إلى الشارع الرئيسي.. وعند

ناصيته كان هناك بائعًا على عربة للسندويتشات مكتوب عليها برسم ملون «أكل بحري».. وكان منظره جذابًا بشدة فأشرت لأمي وقلت أنني جائعة.. لكنها لم تلتفت إليّ وأشارت إلى التاكسي.. وظلت صامتة طوال يومين يغلبها الإحباط الشديد.. ثم بدا أنها قررت أن تنسى.. ولم نعلم أنا وأنطوان أنها بدأت تراسل والدي من وراء ظهورنا.

طال صمتها وطالت وحدّتها واكتئابها.. بينما زادت مهارتي في الشطرنج وأصبحت أهزم أنطوان في بعض الأحيان.. وزادت شعبيتي في المدرسة أيضًا.. وانضممت إلى فريق المدرسة للكرة الطائرة وأحرزت بطولة المدارس معهم مرتين وازداد طولي سريعًا واتجهت إلى السباحة.. وقبل موعد أول بطولة للسباحة قررت أمي أن نعود إلى اليونان فجأة.. وكنت في نهاية الصف الأول الثانوي.

توسل إليها أنطوان كثيرًا وغضبت منها أكثر.. قال: «أنا رجل عجوز - لم يعد لي أحد سواكما».. فردت عليه:

- ياسمينا كبرت.. ولا بُد أننا سنعود إلى اليونان في النهاية.. وكلما تأخرت كلما تعقد موقفها في إكمال الدراسة هناك.. نفدت حججي أمام والدها.

ردّ عليها غاضبًا:

- وكأنك تعملين له حسابًا.. أنتِ مثل أمك.. لا تفكرين سوى في نفسك.

- إن كنتَ تخاف من العيش وحيدًا تعالَ أنت معنا.. يمكنك تدبير السفر والإقامة هناك بسهولة.. معارفك كثيرون.

ردَّ بغضب أكبر:

- وهل يعقل أن أترك أنا بلدي؟

- إذًا لماذا أترك أنا بلدي وبلد ياسمينا؟

- أصبحَتْ اليونان بلد ياسمينا فجأة.. ستظل ياسمينا مصرية حتى تموت.. شئتِ أم أبيتِ.

وانتهت المشاجرة بينهما ولم تنتهِ الأسئلة. حاولت «بيلا» أن تشرح لي وجهة نظرها في العودة.. وكنت أصدقها. لكنني لم أستوعب بسهولة فكرة أن أترك أصدقائي وحياتي فجأة هكذا.. وقالت «بيلا» كثيرات هنا يحلمن بالسفر خارج مصر، فقلت لها إنني لست من هؤلاء الكثيرات. لكنني عندما خرجت في الليلة التالية مع صديقاتي بالمدرسة لأودعهن، وبعد ما رحلن جميعًا رحت أتمشى وحدي على كورنيش الإسكندرية لألقي عليه وداعًا أخيرًا وأنا لا أعلم متى سأعود إليه ثانية؟ وهل سأعود أصلًا أم لا.. لكنني بعد دقائق قليلة من التمشية بدأ بعض الشباب في مضايقتي حتى إن أحدهم حاول التحرش بي. فأحسست بالفعل أنني أجنبية وتركنا مصر وأنا غاضبة بشدة من هذا الموقف الذي لم أنسه.. لكنني بكيت حزنًا فور أن صارت الطائرة بين السحاب متجهة إلى مجهول جديد. وهبطت الطائرة في أثينا أولًا ومنها إلى جزيرة «رودس» موطننا الأول.

خطوت الجزيرة بقدمي وكأنني أزورها أول مرة.. رغم أنني قضيت السنوات الأولى من عمري بها.. لكنني بالطبع لم أذكر سوى بيتنا القديم بصعوبة.. وتوقعت أن أجد والدي في انتظارنا،

لكـن بيـلا قالـت إنـه سـافر إلى إيطاليـا وسـيعود قريبًـا.. فهمـت أنها تعمـدت أن تعـود في وقـت سـفره.. وقالـت أنهـا تريـد الاسـتقرار أولًا في البلـدة قبـل أن تحسـم أمرهـا بشـأن أبي.

لم تجد أمـي صعوبـة في الاندمـاج سريعًـا.. لقـد عاشـت معظـم سنوات عمرهـا هنـا عـلى عكـسي تمامًـا.. فقـد قضيـت وقتًـا طويـلًا قبـل أن أخلع ثـوبي المصري وأرتـدي اليونـاني بـدلًا منـه..

كانـت «رودس» رغـم أنهـا جزيـرة فقـيرة في أوروبـا إلا أنهـا كانـت شـديدة الجـمال.. كنـا نسـكن الحـي الفقـير مـن البلـدة.. جميـع البيـوت هنـا طابـق أو طابقـان.. معظمهـا طليـت باللـون الأبيـض.. وقلّـما أضاف أحدهـم إليهـا لـون البحـر فـوق أحـد جدرانهـا ليميزهـا.. وسـألتني جـارة بدينـة عـن أصـلي فقلـت لهـا «أنـا ياسـمينا» ثـم تابعـتُ: «ياسـمينا بنـت بيـلا» فابتهجـت المـرأة بشـدة وقالـت: «بيـلا.. الجميلـة بيـلا.. هـل عـادت أخـيرًا؟». وانطلقـت تخـبر كل الجـيران.

كانـت البيـوت متلاصقـة في ذلـك الحـي حتـى أن منزلنـا امتـلأ مسـاءً بعـدد كبـير مـن الجـيران المهنئـين لأمـي بعودتهـا.. وسـألتها إحداهـن مـاذا تنـوي أن تعمـل وهـل سـتعود للتدريـس في المـدارس المحليـة فقالـت إنها اكتفـت مـن التدريـس، وسـتقوم بفتـح محـلٍّ لبيـع الأزهـار في المنطقة السـياحية بالجزيـرة.. لكنهـا سـتنتظر عـودة أبي حتـى يشـاركها فيـه.

استغرقت المعادلـة عامًـا كامـلًا حتـى يتحـول الصـف الأول الثانـوي إلى «grade٩» وتتحـول صبـاح الخـير إلى «كاليمـيرا» والتحقـت بمدرسـة محليـة ، واسـتغرق محـل الأزهـار مـن «بيـلا» عامًـا كامـلًا.. وطلب

والـدي الـذي كان قـد عـاد إلينـا أن نؤجـل افتتاحـه حتـى تنتهـي امتحانـاتي بالمرحلـة النهائيـة مـن المدرسـة.

تشـاجرت مـع بيـلا في إحـدى الليـالي قبـل الامتحانـات بأسـبوعٍ واحـدٍ بسـبب إهمـالي المذاكـرة وقـد اقـترب موعـد الامتحانـات النهائيـة. قالـت إنهـا أربكـت حياتهـا كلهـا لكـي أنجـح وأتجـاوز هـذا الامتحـان المصيري.. فقلـت لهـا بسـخافة شـديدة إنـه لم يجبرهـا أحـد عـلى شيء.. وبعـد أن دخلـت إلى فـراشي حزنـت مـن ردي عليهـا وفكـرت أن أقـوم لأصالحهـا.. ونويـت أن أعتـذر لهـا صباحًـا.. وفي تلـك الليلـة المشـئومة أخـذت أحلـم طـوال الليـل بجـدتي روز.. ولم أكـن قـد رأيتهـا مـن قبـل سـوى في بعـض الصـور القليلـة. كانـت تـصرخ في الحلـم دون صـوت وقـد قيـدت إلى فـراش معدني ليـس عليـه أيّ غطـاءٍ في غرفـة شـديدة الظلمـة.. وكانـت جـدران الغرفـة تقـترب وتضيـق عـلى بعضهـا بعضًـا.. وظـل الحلـم يتكـرر طـوال الليـل.

قمـت لاهثـة مـن نومـي وصعـدت إلى غرفـة بيـلا في الطابـق العلـوي فوجـدت فراشـها غـارق في الدمـاء ووجههـا شـاحب تمامًـا.. صرخـت مسـتغيثة بالجـيران ولم يكـن أبي في المنـزل بـل كان في إحـدى سـفرياته الطويلـة لإيطاليـا.. وعندمـا وصلنـا إلى المستشـفى أخبرنـا الطبيـب آسـفًا أنهـا قـد رحلـت.

ظللـت أصرخ وأنـادي عـلى «بيـلا» ثـم أفقـد وعـي وأقـوم لأظـن أنـه كابـوس فأوقـن أنهـا رحلـت فأعـود لأصرخ وأصرخ ولم أصـدق أنهـا رحلـت هكـذا.. وقـال الطبيـب إنهـا ظلـت تنـزف طـوال الليـل دون أن تشـعر حتـى ماتـت.

عـاد أبي في نفـس الليلـة ليأخـذني مـن عنـد الجـيران وقـد رفـض أن يتركنـي أبيتُ وحـدي في المنـزل.. وأخـذت أبكـي بـين يديـه طـوال الليل ولم أسـتطع أن أصـدق أنهـا رحلـت هكـذا وتركتنـي وحـدي.

لم أدخـل الامتحانـات بالطبـع ولم يسـتطع أبي أن يجـبرني عـلى شيء.. كان يشـعر بالذنـب لعـدم وجـوده تلـك الليلـة جوارهـا.. وكنـت أشـعر بالذنـب لأنهـا ماتـت وهـي غاضبـة منـي قبـل أن أعتـذر لهـا.. ومن وقتها لم أنقطـع عـن الكتابـة إليهـا علَّهـا تسـامحني.

فاتنـي عـام دراسي للمـرة الثالثـة في حيـاتي.. أصبحـت في الثامنـة عشر مـن عمـري وأنـا لم أنـهِ دراسـتي الثانويـة، ولم أسـتطع أن أصنـع أصدقاء في المدرسـة في «رودس» مثلـما كان الحـال في الإسـكندرية.. وبعـد رحيل «بيـلا» بثلاثـة أشـهر طلبـت مـن والـدي أن يسـاعدني لأفتـح محل الزهور الخـاص بأمـي.. والـذي لم يمهلهـا القـدر أن تفتحـه بنفسـها.

لم يتحمـس في البدايـة لكنتـي تعللـت بأننـي سـأحاول أن أدخـر منه المـال كـي أكمـل دراسـتي الجامعيـة بأثينـا بعـد انتهـاء هـذا العـام فرحَّب بذلـك.. وفي يـوم الافتتـاح امتـلأ المـكان بأوجـه المهنئِين الذيـن رأيتهم في أول يـوم قدمنـا فيـه إلى «رودس» وكانـت سـيرة «بيـلا» هـي الحاضرة طـول اليـوم عـلى ألسـنة الجميـع.

كان توافـد الزبائـن عـلى المحـل مقبـولًا في البدايـة.. فـكان معظم زائريـه مـن أهـل «رودس» الطيبـين.. وبالطبـع كانـت يقومـون بشراء الأزهـار منـي إكرامًـا لذكـرى «بيـلا» لكـن هـذا التعاطـف لم يكـن كافيًا كـي أسـتمر.. وكان هـدفي الأسـاسي السـائحين الذيـن يقصـدون الجزيرة..

فهي معتمدة على السياحة في المقام الأول.. أخذت أفكر في طريقة مناسبة لاستقطابهم ثم اهتديت إلى فكرة أعجبتني جدًا.

جعلت أولادًا وبناتًا صغارًا من جيراننا يقفون على نواصي قريبة في الطريق مِن وإلى الشاطئ.. وجمعت أجمل الأزهار لدي بالمحل، ثم جعلت كل واحد من الأولاد يقوم بمنح زهرة واحدة لمن يظن أنه سائحٌ وليس من أهل «رودس».. وكانت كل زهرة معها بطاقة كُتِبَ عليها «هذه أسوأ زهرة عندنا في المحل.. ننتظركم لنريكم الأجمل».. وطبعت عليها مكان المحل.. وبدأ الزبائن يتوافدون سريعًا.. ثم نبهني أحدهم أن كلمة «أسوأ زهرة» غير مناسبة وقد تترك وقعًا سلبيًا لدى السائح.. فاستبدلتها بكلمة «هذه أقل الأزهار جمالًا».. وازداد توافد الزبائن أكثر.. وجاءتني أول أزهار «فيليب» بعد ثلاثة أشهر من افتتاح المحل.

كنت أقوم عادة بفتح المحل بنفسي في الثانية عشرة.. وهو الوقت الأنسب الذي يبدأ فيه السائحين في التوافد على المنطقة التجارية للتبضع والشراء.. وأمام المحل وجدت إحدى أزهاري ملصقة على زجاج الباب.. ومعها بطاقتي وقد كُتِبَ عليها بخط مزيَّن «إلى فينوس المصرية.. أجمل زهرات اليونان والعالم».

أعجبتني الطريقة جدًا ورقَّ لها قلبي.. وقلت لنفسي «زهرة هدية إلى محل للزهور.. هذا مسلٍّ جدًا».. ثم بدأت أنتظر تلك الزهرة في كل صباح وفي كل مرة تأتي ببطاقة غزل مختلفة.. وكتب من يتركها في مرة «إلى بيلوتشي رودس.. أنتِ أجمل منها».. وكان يقصد مونيكا بيلوتشي.. فأثارت البطاقة فضولي أكثر وتركتها مساءً في نفس مكانها

وكتبت عليها «أظهر نفسك».. فجاءني وقدَّم نفسه أنه «فيليب»
وكانت معه باقة رائعة من أجمل الزهور في اليونان وقلت له مازحة:

- أتشتري من المنافسين إذًا؟!

فردَّ:

- أمرُّ أمام المحل كل يوم.. لكنني خفت أن يضايقك تطفُّلي.. لكن لم أشترِ هذه.. لقد جمعتها لك بنفسي.. أقسم لك بجمالك.

كان وسيمًا وله شعرٌ ذهبيٌّ قلَّما رأيته بين الشباب في «رودس» وظننته سائحًا في البداية لكنه أخبرني أنه من أهل رودس.. وكان يسكن الحي الراقي بالجزيرة.. وبدأ قلبي يدق لأحدهم للمرة الأولى في حياتي.. وكتبت إلى «بيلا» في المساء أحكي لها عن الوسيم «فيليب» وكان أكثر ما جذبني إليه هو أن اسمه كان على اسم جدي.

استجبت سريعًا لمواعدة فيليب.. كانت الأماكن التي يتردد عليها جديدة عليّ.. رغم أنني أعيش في الجزيرة لسنوات ثلاث إلا أن أصوله الغنية كانت تنعكس بالطبع على أماكن خروجاته المرفهة، وكان مهتمًا بتاريخ الجزيرة العريق وينسب بعضًا منه إلى عائلته الغنية.. وفي عيد ميلادي التاسع عشر اتفق معي أن نخرج سويًا في نزهة بالدراجات إلى «وادي الفراشات».. وكان من الأماكن التي يقصدها السائحون وأسمع عنها دومًا.. لكنني لم أزُره من قبل.. كنت أدخر مالي كله لأجل الالتحاق بالجامعة نهاية العام في أثينا.

وفي أحد الأعياد مر عليَّ فيليب في المحل وفي يده باقة رائعة من الأزهار التي جمعها من حديقة منزلهم الخاصة مرفقًا معها بطاقة غزل يتمنى لي فيها عامًا جديدًا وسعيدًا.. ولم تكن أولى هداياه لي هذا اليوم.

احضر معه دراجتين فقلت له إنني لا أعرف كيف أقودها.. ترك إحداهما أمام المحل وقال لي: «سأعلمك كيف تركبينها» فقلت: «موافقة لكن ليس أمام المحل..»

ذهبنا إلى «وادي الفراشات» في الجانب الغربي من الجزيرة.. وكان قرارنا ترك أحد الدراجات صائبًا إذ اضطررنا بعد قليل أن نستقل حافلة متجهة إلى الوادي فقد كان بعيدًا جدًّا.. وكان الأمر سيصبح أكثر تعقيدًا لو كانت الدراجتان معنا.

فور دخولنا إلى وادي الفراشات لخطف عيني جماله.. واستنكر فيليب عدم قدومي إليه من قبل، رغم أنني أسكن في الجزيرة..طلب مني فيليب أن أركب الدراجة وسيقوم هو بإسنادي كي لا أقع حتى أتعوَّد ركوبها فلا أحتاج مساعدته.. وانطلقنا نتنوه في الوادي.. وكان يتعمد أن يمسكني ويضم جسدي إليه كل دقيقة خوفًا منه أن أقع.. فكنت أبعده في دلالٍ بدأ يثيره.

وعلمت أن اليرقات في موسم الأمطار تتحول حتى تصير فراشات جميلة بديعة من سلالة فراشات النمر.. وفي موسم الجفاف تهاجر كل الفراشات تقريبًا إلى أكثر مكان رطوبة.. فلا تجد أفضل من الوادي.. حتى إنها كانت تغطي معظم الأشجار في كل مكان.

وتركنا الدراجة جوار جذع شجرة كبيرة حولها الكثير من الفراشات ورفعت يديَّ عاليًا وصفقت بهما فطارَت الفراشات من حولنا فصرخت فرِحة وكان منظرها جميل جدا، إلا أن «فيليب» أمسك يدي عندما هممت أن أصفق بيدي مرة أخرى قائلًا:

- أرجوكِ.. لا تفعلي هذا، الفراشات كائنات ضعيفة جدًا وتعيش على مخزون ضئيل من الدهون التي احتفظت بها عندما كانت يرقة.

قلت ولم أفهم قصده:

- وما المشكلة في التصفيق؟

- المشكلة أن الحركة والصوت الكثيرين حولها يضطرها إلى التحليق بشكل مستمر.. وتفقد الكثير من الطاقة في ذلك.. وربما تموت قبل التزاوج.. فهي لا يمكنها تعويض هذه الطاقة مرة أخرى.

ابتسمت وقلت: «فيليب الذي يعرف كل شيء».. ثم اصطنعت أنني سأقوم بالتصفيق مرة أخرى لأمازحه فأمسك يدي بسرعة فقلت له:

- لكني أريد أن أصفّق.

- لا مشكلة.. نأخذ جولة أخرى ثم نذهب إلى حيث يمكنك التصفيق على راحتك.

فقلت وأنا أغمز له بعيني: جولة أخرى من دون الدراجة.

فضحك ورحنا نتمشى في الوادي لنصف ساعة ثم خرجنا إلى أقرب شاطئ قابلنا على الطريق.. وكان فيليب يعرفه.. ترك الدراجة على مدخل الشاطئ وخلعنا حذاءينا وأخذنا نتمشى فوق رماله البيضاء الناعمة.. وكان واضحًا أنه أحد شواطئ الأثرياء التي يعرفها فيليب ويأتي إليها دائمًا. ولم يكن الشاطئ مزدحمًا.

وصلنا إلى زاوية في نهاية الجزء الممهد من الشاطئ أمام كوخ

خشبي صغير.. كان أحد الأكواخ الملقاة بلطف أمام البحر مباشرة ولما وجدت فيليب سألته لماذا توقفت فقال مبتسمًا:

- لننزل إلى البحر ألم تغرِك المياه؟

قلت له في دلالٍ واضح:

- لكني لا أستطيع السباحة.

وكان يعرف أنني أكذب فقال: أعلمكِ.

تابعت في دلالٍ أكبر:

- ليس معي ثوبٌ للبحر..

فخلع فيليب قميصه أمامي وصار عاري الجسم ثم أخرج مفتاحًا من جيب البنطلون الجينز الذي كان يرتديه وقال:

- أعلم طبعًا.. تحضرت لهذا

ثم اتجه إلى باب الكوخ الخشبي الصغير وفتحه أمامي في استعراض وقال:

- تفضلي..

نظرت بعيني من باب الكوخ فوجدته فارغًا.. لم يكن به أي أثاث، فقط شمسية للبحر ومقعدٌ صغيرٌ.. وكان فوق المقعد لفافة ملونة فهمت أنها هدية لي.. طلب مني أن أقوم بفتحها ولما فتحتها وجدت داخلها زجاجة عطر غالي الثمن وثوبًا للبحر.. تفحصته بيدي فوجدته ضيقا ويبدو صغير للغاية.. قلت له بسرعة:

- لا تظن أنني سأرتدي هذا أمامك.

ردَّ مازحًا:

- لا بالطبع.. سأنتظرك بالخارج.

فهمت أنه يراوغ فقلت وأنا أفحص الثوب بيدي ثانية بيدي:

- لكنه عارٍ تمامًا.. كما أنه يبدو صغيرًا عليّ.

- ارتديه ثم دعيني أراه أولًا. إن لم يعجبك فلن ننزل إلى البحر.

- لن تراني في هذا الثوب إلا في أحلامك.

فاقترب مني وقال:

- رأيتك فيه في أحلامي كثيرًا وكنت رائعة ومثيرة.

وضعت الثوب على المقعد وقلت له:

- لا.. لن أرتديه، سوف أنزل إلى البحر بملابسي. كنت أنزل إلى البحر في الإسكندرية هكذا.

وأشرت إلى ما أرتدي، فقال فيليب:

- مم.. ياسمينا تكذب!. ألم تقولي منذ قليل إنك لا تستطيعين السباحة.

فاقتربت منه وعُدت إلى دلالي وقلت:

- ألم تقل إنك ستعلمني السباحة؟

وضع يديه حول خصري وبدأت أنفاسه الملتهبة تقترب من وجهي فأغمضت عينيَّ وتركت له شفتيَّ كي يقبّلهما وأخذ قلبي يدق في سرعة.. وبعد ثوانٍ أحسست طعمًا مالحًا لسائل في فمي ففزعت وأبعدني فيليب أيضًا.. نظرت إلى وجهه وذعرت أكثر وكانت

شفتاه مغطتين بالدماء، وقبل أن أنطق أشار إليَّ قائلًا في رعبٍ:

- ياسمينا.. أنت تنزفين.

وضعت يديَّ لا إراديًّا على أنفي وشفتيَّ فعادتا ممزوجتين بدمائي وأحسست سخونة مماثلة بين قدمي.. ثم سقطتُ مغشيًّا عليّ.

***

(٣)

يحيى

استعاذ سائق السيارة بالله من الشيطان الرجيم وانحرف بالسيارة في سرعة حتى كاد أن يصدم الملثَّم ذا العباءة البيضاء الذي ظهر أمامنا فجأة على جانب الطريق المؤدي إلى قرية الجبل، وفور أن تجاوزه زاد من سرعة السيارة حتى أنها أخذت تتخبط بنا فوق الطريق غير الممهد في ممرات الجبل، فطلبت منه أن يهدئ من سرعتنا قليلًا لكنه لم يستجب.. قلت له:

- لماذا لم تتوقف؟ ربما كان يريد مساعدة.. لقد لمحت زجاجة مياه فارغة في يده وكان يشير بها إلينا.

ردَّ السائق المذعور وهو لا يزال يستعيذ بالله:

- يا دكتور يحيي.. أنت قد أصبحت ابنًا للمكان وتعرف أنه منهم.. تعلم مثلي أنه أحد عفاريت الصحراء.

- ربما كان غريبًا أو أحد البدو وقد ضل الطريق.

فاستمر في رفضه وقاطعني قائلًا: «مستحيل».. وظل ينهب الطريق في سرعة.

يسمونهم هنا في وادي حبيبة «عفاريت الصحراء».. حدَّثني عنهم الشيخ ياسين وحذرني أن ألتفت لأحدهم إن رأيته.. ولم أرَ أحدًا منهم منذ قدمت إلى الغردقة سوى مرة واحدة أثناء عودتي ذات يومٍ من «سهل حشيش».. كان يقف أحدهم على جانب الطريق في صمتٍ وهدوءٍ وظل ينظر إلى السيارة التي ارتعب صاحبها مثلما حدث الآن.

مِلت بجسدي إلى المرآة أنظر فيها إلى ذلك الرجل الذي كان يشير بزجاجة الماء منذ قليل وكدنا أن نصدمه.. وفور أن نظرت في مرآة السيارة أتفحص الطريق بدأ وجه «زينب» في الظهور.. وكان وجهها قلقًا وليس حزينًا كالمعتاد.. وعلمت أنها ستعاتبني على حديثي السابق منذ ساعة مع «ياسمينا» أمام غرفتي بالكامب.

لم أدرِ حقًّا هل كان إحراجي المتكرر لياسمينا ورفضي السخيف دعوتها الصريحة إلى مارينا الغردقة كان سببه الحقيقي خوفي من سطوة جمالها وإمكانية تورطي معها.. أم أنه كان خوفًا من غضب «زينب».. الغائبة الحاضرة دومًا؟

هل حقًّا كنت أرغب في أن تذهب «ياسمينا» سريعًا من أمام الغرفة؟ لماذا إذًا كنت خائفًا من أن تلمح العقرب الأسود الصغير الذي أخذ يحوم خلف قدميها وهي واقفة تتحدث دون أن تشعر به؟ ولماذا حاولت أن أصرف انتباهها عنه قبل أن تلتفت وتراه؟ لماذا لم أحذرها منه؟ أتراني كنت أخشى أن تراه فيصيبها الخوف من منظره الشرس وتهرب مبتعدة فلا أراها ثانية؟

أراها ثانية!!

وهل أودُّ أن أراها ثانية؟؟ هل أرغب في ذلك حقًّا؟

ولماذا ياسمينا بالتحديد؟ ما الذي يوجد في هذه المرأة يدفعني إلى الرغبة، وإلى الخوف في نفس الوقت؟.. الويل لك يا يحيى التعس.. ألم تتعلم بَعد.. أتود أن تنسى زينب إذًا؟ وهل نسيتَ «ميريت» بعد كل هذه السنوات؟؟

لا.. بالطبع لا.. لا أحد ينسى ميريت الجميلة.. لكن لمَ تلح علي ذكراها الآن؟ أيكون مرآي لياسمينا وانجذابي لها وجمالها هو السبب؟!

إذًا فأنا أعترف بانجذابي لياسمينا؟ سريعًا هكذا! من محادثة بسيطة لبضع دقائق؟ هذا غريب حقًّا! ما الذي يوجد في هذه المرأة؟ ومن أين تأتي بتلك القوة التي اخترقتني في دقائق.. حتى ميريت نفسها أخذت من قلبي وقتًا أكثر كي تجعله يدق بهذه الطريقة المخيفة.. لكن «ياسمينا» أيضًا بدت متوترة ومهزوزة أمام الغرفة منذ قليل، على عكس الدقائق القليلة التي أحسستها فيها داخل البازار.. ورغم ذلك كنت مرتبكًا أكثر منها.. حتى إنني لم ألاحظ تفصيلة قدم تمثال الملك التافهة هذه.. بينما لو كانت «ميريت» لكنت حكيت لها تاريخ مصر كله الذي أعرفه وأحفظه مثل اسمي.. والذي علَّمني إياه جدي سليم.. بعد انتهاء قطيعتنا الطويلة.

قاطعني جدي لشهر كامل بعد أن رآني وأنا أقبِّل زينب في الشرفة.. لم يقبل أي اعتذار ولم يرد على أي كلام أوجهه له.. لم يتناول معي طعامًا لمدة.. حاولت معه كثيرًا وحاولت أمي أكثر رغم أنها لم تعرف مني شيئًا.. ولم أملك الجرأة على إخبارها.. حاولت التواصل أكثر من مرة مع زينب لكنها رفضت تمامًا.. لم تكن ترد على اتصالاتي واختفت تمامًا.. إلا أنني فرحت بشكلٍ كبيرٍ عندما علمت من أمي أنها تجاوزت الامتحان الأخير بنجاح، رغم أنها حصلت على مجموع معقول.. وكنت سأشعر بذنب أكبر لو لم تستطع أن تتجاوز الامتحان

للمرة الثانية.

بعد شهر تقريبًا من قطيعة جدي كنت أقف في الشرفة وسمعته ينادي عليّ بصوت واهن يُسمع بصعوبة.. ذهبت إليه مسرعًا فوجدته ممسكًا صدره في ألم ويشير إلى صندوق ورقي صغير به أدويته الكثيرة.. ناولته الصندوق فأخذ يبحث فيه عن أقراصه التي يأخذها دون انتظام حتى وجدها.. وضع قرصًا صغيرًا جدًّا تحت لسانه وقال وهو يجاهد كي يلتقط أنفاسه:

- اتصل بالإسعاف.. وبو الدنك.

تملكني الرعب وأسرعت إلى الهاتف واتصلت بالإسعاف ثم بأمي في منزل أهلها، ولحقت بنا مساء في معهد القلب.. وقال الطبيب إنها ذبحة صدرية تطورت إلى انسداد جديد بأحد شرايين القلب الصغيرة. وحُجز جدي ليومين تحت الملاحظة ثم سُمِحَ له بالخروج مع تحذيرات كثيرة من ممارسة أي مجهود أو صعود السلم أو شرب القهوة.

بعد عودتنا وبعد أن ساعدته على الجلوس فوق أريكته المفضلة وكان أول ما طلبه مني هو أن أصنع له قهوة وهو لم يتناولها منذ ثلاثة أيام فرفضت بأسفٍ شديدٍ وكنت أعرف أنه لا يطيق يومه دونها.. تنهد في ضيقٍ وقال:

- هل تصدِّق الأطباء يا يحيى؟. لقد ولى القلب إلى غير رجعة.

قلت بحزنٍ:

- أطال الله في عمرك يا جدي.

وتدخلت أمي معاتبة:

- نأخذ بالأسباب يا حاج.. أليس هذا كلامك؟

زفـر في ضيـق وطلـب منهـا أن أي شيء دافـئ يشربـه.. فذهبَت إلى المطبـخ وطلـب منّـي أن أجلـس جـواره وقـال:

- اسـمع يـا يحيـى.. لـن أسـتطيع أن أصغـى لـك أو أسـامحك قبـل أن تخبرني نيتـك الحقيقيـة تجـاه «زينـب».. ولا تكـذب علـيَّ يـا يحيـى.. لا تـرد الآن إن أردت.. لكـن قـل الحقيقـة عندمـا تسـتطيع.. الحقيقـة فقـط.

صمـتُّ ولم أرد عليـه ونظـرت أرضًـا.. وأخـذت أفكـر في ردٍّ لا يغضبه، ودون أن أكـذب أيضًـا.. المشـكلة هـي أننـي لا أعـرف ردًّا واضحًـا لنفسـي كـي أخبـره بـه. قلـت بعـد قليـل في تـردد واضـح:

- صدقنـي يـا جـدي لا أعـرف إجابـة شـافية.. منـذ أن رحلَـتْ زينـب أجـدني أفتقدهـا بشـدة لأحيـانٍ كثيـرة.. لكنـي في أحيـانٍ أخـرى أكاد لا أذكرهـا.. وكأنهـا غـير موجـودة في حيـاتي.. أرجـوك لا تغضـب منـي، لكـن هـذه هـي الحقيقـة التـي طلبتهـا.. والحقيقـة الوحيـدة التـي أعرفهـا.. أمـا غـير ذلـك فهـو أمـرٌ لم أعرفـه بعـد.

- ولماذا كان ما كان بينكما هناك؟

وكان يشير بيده في غضبٍ إلى باب الشرفة البعيد..

رددت عليه وقد أحنيت رأي خجلا:

- كانت زُلة، أقسم لك إنها لن تتكرر.. لا أعرف كيف حدث ذلك.

- أنـا أعلـم.. لكـن.. لمـاذا تحـاول إذًا الاتصـال بهـا إلى الآن مـا دمتَ لا تعـرف شـعورك تجاهها؟

دهشـت مـن معرفتـه عـن محـاولاتي الفاشـلة للاتصـال بزينـب.. ولم أجـد ردًّا فقـال وهـو يضـع يـده فـوق كتفـي و يريـن في رفـق:

- ألم نتفق يا بني منذ سنوات ألا تذل نفسك أبدًا إلى أي ذنب هكذا.. لماذا تركت نفسك لنفسك؟ وبهذه الطريقة.. وفي نفس المكان الذي وعدتني فيه؟ لقد خيبت أملي فيك يا يحيى.

غمرني إحساس بالذنب أكثر مما شعرت به وقت رآنا.. ولم أجد سوى أن أسأله في توسل:

- قل لي يا جدي ما الذي يرضيك؟ ما الصواب وسوف أفعله؟

أراح ظهره على مسند الأريكة الكبير ونظر إلى سقف الصالة ثم قال بتنهد:

- ما يرضيني هو أن تتزوجا.. أما الصواب فهو أن تتركها وشأنها.

وزفر في ضيقٍ ثم أكمل:

- دع زينب لحالها يا يحيى.

وقبل أن أرد عادت أمي وفي يديها كوب من الينسون وضعته أمام جدي ونظرت إليّ في صمتٍ مريبٍ.. ثم جلست قبالتنا وقامت بتشغيل التليفزيون فقمت لأدخن في الشرفة.

لم أتصل بزينب مرة أخرى.. ولم أسع أن أعرف عنها أيَّ أخبار. وعلمت من أمي في العام التالي أنها قد خُطِبَت لزميل لها في السنة النهائية بنفس كليتها.. وبدأت أمي بعدها تفتح موضوع زواجي في أريحية وترقب كل فترة.. حتى جاء عام تخرجي.. وكنت أنا من بادر في فتح هذا الموضوع معها ومع جدي.

حكيت في عجالة عن زميلة لي في الجامعة في نفس القسم ووالدها أستاذ لنا بالكلية.. وقلت إنها جميلة وأرى أنها قد تكون زوجة مناسبة.. بادرت أمي بالترحيب قائلة:

- نسب يشرّف..

ولم يبدِ جدي بأي رأي فسألته:

- وما رأيك يا جدي؟

فابتسم ابتسامة غريبة وقال:

- ما رأيك أنت يا يحيى؟

قلت بهدوء:

- أرى أنها ستكون زوجة مناسبة.. نحن نعرف بعضنا جيدًا منذ أكثر من عام، وهي فتاة مهذبة وجميلة.. أعرف والدها جيدًا وهو رجل ذو سمعة طيبة بالكلية ويحبه الجميع.. وأي زميل لنا يتمنى أن يتزوج ابنته.

- وأنت.. هل تتمنى ذلك فعلًا؟

- أظن ذلك..

- إذًا على بركة الله.. حدد موعدًا تراه أنت مناسبًا ونذهب نخطبها لك.. وشقة والدك الأخرى موجودة.. ولا أظنه سيمانع أن تتزوج فيها غدًا إن أردت.. من الواضح أنه لن يعود إلى مصر أبدًا.

- ليس بهذه السرعة.. بعد الامتحانات النهائية والتأكد من التعين في الكلية.

- ستكون معيدًا بإذن الله.. أنت من أوائل دُفعتك كل عام.. ولقد قلت إن والدها أستاذ معكم.

ثم تابع متسائلًا وهو ينظر إليَّ في حدة:

- أليس كذلك يا يحيى؟

استفزتني نظرته بشدة وكدت أن أسأله عما يقصد.. لكني لم أجرؤ.. وتعجبت من نظرته وظنه السيء بي.

انتهت الامتحانات الأخيرة بسهولة؛ فقد كنت ملمًّا بكل حرف في كل كتاب ربما أكثر من الأساتذة أنفسهم.. وتأكد تعييني معيدًا بالجامعة.. لكنني لم أفتح موضوع الزواج ثانية.. وظلت أمي هي من تلح في السؤال، وكنت أتهرب من الإجابة أو أتعلل بأي حجج واهية حتى قلت لها أخيرًا إنني قد صرفت النظر مؤقتًا.. وأحسست أن جدي كان راضيًا عن قراري رغم أنه لم يلمِّح مطلقًا.

كا يضايقني أنه لن يُسمح لي بالتدريس إلا بعد وقت طويل وسنين عدة في التدرج بالقسم في الكلية.. وكان القسم مكتظًّا بالمعيدين مثلي، واللوائح التي تحكم عملية التدريس معقدة.. ووجدت أنه سيمر دهرٌ قبل أن يسمح لي بالتدريس رسميًّا.. بادرت بالتقدم للحصول على درجة الدبلوم وأخذت أنقب في البعثات الدراسية المموَّلة أو المدفوعة.. فالليسانس وحده لن يكفي للوصول إلى مرادي من هذه الكلية.. وانقضى عامان حتى حصلت على الدبلوم في الحضارة المصرية القديمة.. وقُبلت في بعثة إلى إنجلترا في نفس الشهر.

رأيت ذعرًا شديدًا في عينيّ جدي عندما أخبرته بأمر سفري، ولم أجد لذعره مبررًا في البداية حتى أخبرني بعد إلحاح طويل أن والدي يحاول استعادة أمي منذ فترة ويبدو أنها بدأت تلين.. وفهمت دون ذِكره ذلك، أنه أصبح يخشى أن نتركه جميعًا في فجأة هكذا. لكنه دعا لي في نفس الوقت بالرحمة وتمنى لي التوفيق في البعثة التي ستستغرق عامًا.. ولم أحسم أمري في السفر إلا بعد أن تأكدت من أمي أنها باقية معه حتى أعود.. وسافرت إلى لندن. لكن أمي عادت إلى أبي بعدها بشهر واحد فقط من سفري تاركة جدي وحده.

كنت أحادثه يوميًّا وكلي قلق عليه.. وكان يطمئنني دومًا.. لكنني

كنت أخاف أن تهاجمه نوبة قلبية كالتي أتته مؤخرًا.. واعترف لي بعد فترة أن زينب تأتيه من وقتٍ لآخر لتطمئن عليه فاستراح قلبي بشكلٍ كبير.

كانت أيامي في البعثة ثقيلة باردة كالمدينة نفسها.. حصلت منها على كادر علمي هام في اللغات القديمة لكنني لم أستمتع بأي صورة في تلك البلاد.. انبهرت بالتأكيد من نظافة شوارعها الجميلة.. لكني لم أستمتع بالتجول في تلك الشوارع.. أعجبني شكل المباني والمتاحف العريقة.. لكنني لم ألتقط لها صورًا تذكارية كما فعل معظم من كان معي في البعثة.. زحفت الوحدة إلى قلبي فور وصولي إلى لندن وصاحبتْني حتى عدت إلى القاهرة.. وكان أهم ما اكتشفته في تلك البعثة أنني شخص وحيد.. طوال خمسة وعشرين عامًا لم أصنع أي أصدقاء حقيقيين.. فقط معارف في الكلية، زملاء في العمل، زملاء جدد في البعثة، لكن لا أصدقاء على الإطلاق.. وبدأ حنيني يزور قلبي ويأخذه إلى وجه زينب في ليالٍ عديدة.. واكتشفت أنه رغم كل شيء كانت زينب هي صديقة عمري الوحيدة.. وقد فقدتها بغبائي وأنانيتي، وأخذت أستجدي الأيام أن تمر سريعًا حتى أعود إلى القاهرة.. وكان نداء «ميريت» في انتظاري.

فور أن عدت واطمأننت على جدي بدأت أقود الحوار حتى دفعته للحديث عن زينب.. وعلمت منه أنها تخرجت وعلمت بتدريس الرياضيات أيضًا.. وعلمت أن خطبتها الثانية قد فُسخت.. ولم أعلم كيف ابتهجت هكذا بشدة أمامه؟.. لكنه لم يبدِ اهتمامًا كبيرًا بفرحتي.

بعد عودتي بأسبوعين كنت أعمل على بحثٍ هام يخص أوراقي القديمة التي أحتاجها للتقدم لنيل درجة الماجيستير.. وكنت أنقب

كعادتي مثل بين كنوز الوثائق والكتب العظيمة في دار الكتب والوثائق.. وبين الأوراق والملفات الهامة سألني أحدهم قاطعًا شرودي:

- لو سمحت.. هل يوجد هنا نظام ما للاستعارة؟!

نظرت إليه متعجبًا.. المكان هنا لا يقصده سوى من يعرف شروطه.

قلت له دون اهتمام:

- بالطبع لا.. هذه ليست وثائق عادية.

فسأل بجهلٍ أكثر:

- وماذا أفعل إذا كنت أريد أن أحتفظ بهذه؟

وكان يبسم ببلاهة وهو يشير إلى صورة لجريدة قديمة معروضة على شاشة أفلام الميكروفيلم.. ولم أستبين عم تتحدث.. وعلمت أنه سيكون لحوحًا ولن يتركني لحالي فقلت شارحًا:

- يوجد بعض الوثائق يمكنك أن تحصل على صورة ضوئية منها.. وأشرت إلى موظف في ركن المكان، لكنه عاد يسأل:

- وهل هذا متاح لأي شخص؟ أعني أي جنسية؟

لم أفهم سؤاله فوجدته يمد يده إلى معرِّفًا نفسه:

- سباستيان.. صحفي من لبنان.

نظرت إلى يده البدينة الممدودة إليَّ في ودٍّ فصافحته مضطرًا.. نظر إليَّ متسائلًا فاضطررت إلى تقديم نفسي وقلت:

- يحيى الطيب.. معيد بكلية الآثار.

بش وجهه وقال باسمًا:

- أها.. أنت دكتور في الجامعة.

فقاطعته: ليس بعد..

كان سباستيان بدينًا قصير القامة مقارنة بطولي.. يبدو قد قارب الأربعين من العمر وله وجه طفل بريء.. ظل مبتسمًا وهو ينظر إلى المكان ويتابع أسئلته التي لا تنتهي.. قال إنه يبحث عن بعض الأخبار الموجودة في الجرائد القديمة في الفترة بين الحربين والتي تتحدث عن ظهور بعض مدارس الفن التشكيلي في تلك الفترة وتأثرها بالحرب.. وقال إنها لا تخصه وإنما تخص صديقًا له من نفس بلده.. أخذت أساعده في البحث عن أي صحف أكثر إفادة من تلك التي كان يريد استعارتها بسذاجة، ونجحت بخبرتي القديمة في المكان - الذي عرَّفني عليه جدي - في استخراج وثيقتين أخريين عن نفس الموضوع الذي يبحث عنه.. ثم طلب مني في حرج أن أقوم أنا بطلب نسخ ضوئية منها خوفًا من أن يلاحظ المشرف لكنته غير المصرية ويعترض على نسخ الوثائق.

تفحصت الوثائق جيدًا، وكانت معظمها معلومات عادية يمكن الحصول عليها من الإنترنت.. فقمت بنسخها له بنفسي أمام مشرف المكان الذي يحفظ وجهي المتردد دومًا على المكان.

أخذ سباستيان يشكرني على مساعدته ويطيل في الشكر.. ثم أصر أن يدعوني إلى فنجان قهوة في أي مكانٍ قريب.. اعتذرت له متعللًا بضيق وقتي فطلب رقم هاتفي وأخذ يؤكد على أنه لا بُد وأن نلتقي مرة أخرى لعزومة القهوة.. فوعدته بذلك ثم انصرفت إلى ما كنت أبحث عنه.. وفي مساء نفس اليوم وجدته يتصل بي ويلح عليَّ بشدة في ملاقاته.. وظللت أعتذرله كثيرًا متعللًا بانشغالي الشديد في التحضير للرسالة.. وبعد أن أنهيت مكالمتي سألني جدي:

- لمن كل هذه الاعتذارات يا يحيى؟

فقلت:

- صديق عرفته اليوم يلح عليَّ في المقابلة.

فردَّ قائلًا في تعجب:

- صديق؟؟ ليحيى ابن الطيب سليم؟؟ ماذا حدث في الدنيا؟

- ولِمَ السخرية يا جدي؟

- العفو يا دكتور.. ليست سخرية. لكنني أول مرة أسمعك تطلق على أحد هذه الكلمة.. دائمًا تقول» شخص أعرفه أو زميل في الكلية«.. لكنك لم تقل على أحد أبدًا كلمة »صديق« هذه.

- خانني التعبير.. كنت أقصد أنه شخص أعرفه.. لم أقابله سوى اليوم فقط. تعرف عليَّ في المركز وساعدته في شيءٍ بسيطٍ فأصرَّ أن يعزمني على قهوة واعتذرت له فظل يلح واضطررت إلى وعده بلقاء.

- ولِمَ وعدته بما لن تقوم به.. لا تعدُ أبدًا ما دمتَ لن تفي بوعدك.. ليست هذه أخلاق الرجال.

لم أجد ردًّا على إحراج جدي لي.. فتابع آمرًا:

- اتصل به الآن وأخبره أنك لن تقابله أبدًا.. وإما أن تقبل دعوته ولتحدد موعدًا لن تعتذر عنه.. كن كريمًا مع الناس يا بني.

أدرت الأمر في رأسي قليلًا وقلت لِمَ لا؟.. ليس لدي شيء هام أفعله الليلة.. كنت فقط أنوي السهر مع جدي.. ربما استطعت أن أفاتحه في أمر زينب.

أعدت الاتصال بسباستيان وقلت له إنه لا مانع من لقائه الليلة

ففرح كثيرًا واتفقنا أن نلتقي في ميدان طلعت حرب. ولم أكن أعلم أنني أسعى إلى شباك ميريت المسمومة.

***

قال السائق المتذمر طيلة الطريق:

- الحمد لله لقد وصلنا أخيرًا يا دكتور.. طريق ملعون.

كانت منازل قرية الجبل قد لاحت أمامنا، وكانت القرية تبعد قرابة الساعة عن الكامب.. يعمل معظم مَن فيها بأنشطة السافاري العديدة التي تنظمها فنادق الغردقة السائحين.. وبعض سُكَّانها كان يعملون معي في كامب وادي حبيبة. يسكنها عددٌ قليل من العرب وآخرون أتوا من محافظات عدة بالصعيد واستقروا بها لقربها من الجبال التي يجيء معظم رزقهم من السياحة فيها.. لكنها بالنسبة لي كانت منفى بعيدًا. حتى إنني سألت الشيخ ياسين عما يجبرهم أن يعيشوا بعيدًا هكذا بمنأى عن المدينة فقال إنهم كبروا ووجدوا آباءهم وأجدادهم في القرية.. وسيعيش أبناؤهم وأحفادهم إلى ما شاء الله في نفس المكان.. ولم أدرِ حقًّا لم يسمونها قرية. فأنا لم أرَ أيَّ أنشطة للزراعة فيها.. اللهم إلا بعض النخلات المعدودات التي اتخذوا من ظلالها مجلسًا صغيرا لهم خلف مقامٍ لأحد شيوخهم الصالحين المدفون في ضريح داخل المسجد الوحيد الموجود بالقرية.

استقبلنا الشيخ ياسين- أو الشريف ياسين- كما يدعونه هنا وفي الكامب، ولم أسأله مرة إن كان لقبًا أم أنه فعلًا كما يزعمون ينتسب إلى الأشراف من نسب الحسن والحسين؟

جاء الشيخ ياسين باشا واضعًا عباءة ثقيلة على كتفيه واحتضنني

وأخذ يرحب بي في حرارة ولم نكن قد التقينا منذ مدة. سأل السائق متذمرًا وهو ما زال في سيارته:

- متى سنعود إلى الكامب يا دكتور؟

وقبل أن أرد قاطعنا الشيخ ياسين:

- انصرف أنت الآن يا بني.. سأدبر أنا سيارة للدكتور عند العودة، ربما يتأخر.

ثم ذهب إليه وسمعتُه يهمس له بشيء فقلت صائحًا:

- لا داعي يا شيخ ياسين. لقد أخذ حسابه قبل أن نتحرك.

فنظر إلى السائق في استياء ثم تحرك بالسيارة مبتعدًا.. وقال الشيخ ياسين مستفسرًا: ماله؟

- لقد ظهر لنا في الطريق واحدٌ ممن تسمونهم «عفاريت الصحراء» هؤلاء، ومن وقتها وهو كما ترى.

ضحكَ الشيخ ياسين عاليًا وقال:

- له حق والله يا دكتور.. يكون منظرهم مخيفًا جدًّا.. خاصة في الليل.

- ألا يعلم إنسان من أين يأتي هؤلاء؟ ألستم تسكنون الجبل منذ زمن؟. كيف لا تعرفون أصلهم وماذا يريدون؟ و لماذا يظهرون على الطريق هكذا؟

- هم في الغالب قُطَّاع طريق.. ليس آمنًا أن يقف لهم أحد و إن كنت أزعم أن ظهورهم قد قل كثيرًا عن الماضي منذ عُمِّرت الغردقة بالفنادق والسياح وزاد فيها رجال الأمن.

- أمرهم غريب حقًّا.. يقتلني الفضول لأعرف ما وراءهم.

وضع يده على كتفي ودفعني دفعًا خفيفًا ناحية المسجد وقال:

- دعك منهم الآن.. تعالَ نصلي المغرب قد وجبت.. ثم نتناول الطعام سويًا قبل أن تتكلم.

وفور إتيانه على ذِكر الطعام تقلصت معدتي وأحسست أنها تكاد أن تتكلم جوعًا. فأنا لم أتناول أيَّ طعام منذ عشاء الأمس.

دخلنا المسجد الصغير والذي كان يشبه زاوية كبيرة من الزوايا المترامية في أحياء مصر القديمة. وكانت إضاءته خفيفة جدًّا ومعظم مصابيح الإنارة فيه لونها أخضر وكذلك كانت جدرانه.. وكان أكثر مصدر للضوء يأتي من الباب الجانبي الصغير المؤدي إلى مكان الضريح. أدينا الصلاة في جماعة وأمَّنا الشيخ ياسين بالطبع، وكان معظم الرجال في القرية قد اجتمعوا في المسجد لتأدية الصلاة.. وبعدما انتهينا أخذ يرحب بي من كنت أعرفه منهم.. خاصة «يزيد» ابن الشيخ ياسين الأكبر. واتجهنا إلى مجلس القرية خلف المبنى الذي يوجد فيه الضريح وتزينه النخلات الكبيرة.. ووجدت أن الشيخ ياسين قد أعد لي وليمة وليس مجرد وجبة بسيطة كما قال. وظل يعزم عليَّ بالطعام ويصر أن آكل من كل صحن وُضعت فيها أنواع عدة من اللحوم والطيور.. ولم أكن أحتاج إلى عزومة فقد كنت اتضور جوعًا.. بعد أن أذَّن مؤذن عذب الصوت من المسجد المجاور اتجهنا إلى المسجد ثانية لصلاة العشاء. ونظرت في ساعتي وعلمت أنني سأعود متأخرًا.. وتمنيت ألا يصر الشيخ ياسين على المبيت مثلما يفعل معي كل مرة آتي فيها للزيارة.

كنت أحب الشيخ ياسين جدًّا.. فقد كنت أرى فيه طيبة جدي وورَعه.. وكلما نظرت إليه كنت أرى جدي الراقد فوق أريكته بشقة عابدين وهو يشرب معي القهوة ونتسامر طوال الليل.

فور أن خرجنا من المسجد نظرت في ساعتي ثانية أمام الشيخ ياسين متعمدًا ثم سألته:

- والآن.. ألن تقول لي ما الأمر الهام الذي أردتني فيه؟

- نجلس وأحكي لك كل شيء.

اتخذنا مكاننا في المجلس تحت النخيل، وبدأ الشيخ ياسين بالسؤال عن الأحوال في الكامب والسؤال المعتاد عن تفكيري في العودة إلى الجامعة والتدريس. وكالعادة قلت له أن لا نية لدي.. ثم بدا مترددًا قبل أن يسأل:

- قلت لي من قبل يا دكتور إنك كنت تعمل لبعض الوقت في المتحف المصري بالقاهرة.. أليس كذلك؟

رددت عليه مصححًا المعلومة:

- ليس عملًا حكوميًّا.. كانت بعض البرامج الخاصة بالماجيستير.. كنت أتواجد بشكل دائم في المتحف على مدار سنوات.

- وهل تعرفت هناك على أحدٍ ذي شأن؟

- قليل جدًّا.. بعض الباحثين الهامين وبعض الإداريين في هيئة الآثار. لم أتواصل مع أحد منهم منذ زمن.

بدا عليه إحباط فقلت:

- ما الموضوع يا شيخ ياسين؟ لقد بدأت أقلق.

قام من مجلسه وصار يتمشى أمامي في هدوء مفكرًا ثم قال في حزنٍ شديدٍ:

- يريدون أن يأخذوا هذا المكان.

- أي مكانٍ تقصد؟ قرية الجبل؟!

- نعم.

- تعجبت من كلامه وسألت:

- ولمَ؟ ومَن هؤلاء الذين يريدون أن يأخذوا القرية؟

ردَّ وهو ما زال واقفًا أمامي:

- لا نعلم من هُم بالتحديد بعد.. هيئة حكومية ما.. لكننا لم نعرف تبعيتها. جاءنا إخطار بالإخلاء يطلبون فيه التحضر لترك القرية بالكامل.. يقولون هذه أرض مِلك للدولة.. وقد اعتزم شخص هام تحويلها إلى محمية طبيعية.

ابتسمت عيناي من شدة الدهشة وقلت:

- محمية طبيعية.. هنا؟ محمية لأي شيء؟

- لا أعلم.. قلت لك لا نعلم أي شيءٍ بعد هذه مجرد أقاويل. في الغالب سيقيمون مكانها منتجعًا ما أو أي نشاطٍ سياحي يصلح.

قلت مفكرًا:

- أو ربما اكتشفوا ثروات طبيعية هنا ويريدون استخلاص بترول أو غاز طبيعي. المناطق المجاورة طوال الطريق على البحر وحتى السويس مليئة بمثل ذلك.. وغالبًا موضوع المحمية هذا للتعتيم فقط على المشروع.

- أعلم.. كلامك هو الأقرب إلى الصواب.

- لكن يا شيخ ياسين لا توجد أي واسطة ولا يوجد إداري يمكنه أن يمنع حدوث شيء كهذا.

عاد الشيخ ياسين للجلوس جواري وقال:

- لا يا بني.. لقد فهمت مقصدي خطأ.. لم أطلبك بالطبع كي تتوسط لنا في منع ذلك الأمر.. إنما أريد منك خدمة بسيطة إن استطعت ذلك بالطبع.. أنت في مقام يزيد ولدي.. ويعلم الله وحده قدر معزَّتك عندي.

رددت متأثرًا بكلامه:

- بارك الله فيك يا شيخ ياسين.. هو شرف لي. اطلب ما تريد.

- في الحقيقة هما أمران.. الأمر الأول أريدك أن تستخدم علاقاتك القديمة وتحاول قدر المستطاع تبيُّن حقيقة أمر ضم هذه القرية للحكومة من عدمه. ربما كان مجرد كلام حكومة ليس إلا. فإن كان حقيقة تحضَّرنا له من الآن. فرح يزيد ولدي بعد ثلاثة أشهر.. وكنا سنبني له منزلًا جديدًا مقابلًا لمنزل زوجته الأولى.. ولا أريد أن نبني ما سوف يُهدَم بعد أشهر قليلة.

قلت متسائلًا:

- وهل سيتزوج يزيد ثانية؟

- نعم.. زوجته الأولى عاقر.. ونحن لا نترك هذة الأمور وشأنها كما تعرف.

قلت:

- يرزقه الله بالولد الصالح.. مبارك عليه بإذن الله حسنًا.. سوف أبدأ من الصباح في إعادة التواصل مع معارفي بالقاهرة. ربما استطعت أن أحصل على معلومة شافية.

- بارك الله فيك يا دكتور.. ونأتي إلى الأمر الأهم.

- وما هو؟

- هل توجد أي فرصة أو طريقة لضم هذا الضريح إلى هيئة الآثار؟ ربما حفظه هذا من الاندثار إنه تراثنا الوحيد المتبقي.

فكرت قليلًا، وكنت أود أن أخبره أنه أمر ممكن.. لكنني لم أرد أن أجعله يتعلق بأملٍ ضعيفٍ فسألته:

- ولماذا لا تحاول التواصل مع نقابة الأشراف؟ ربما ساعد ذلك.

قاطعني بنظرة عتاب من عينيه.. وكان يعلم أنني مدرك تمامًا أن لقب الشريف ياسين هذا ما هو إلا مجرد لقبٍ وليس له أي علاقة بهيئة الأشراف.. قال بهدوء:

- كان شرفًا لم أدعِه لكني أيضًا لم أنكره. في بلد كالتي نعيش فيها دائمًا ما كان يفتح الأبواب المغلقة. وما فعلته إلا ابتغاء وجه الله وخدمة أهل القرية.

قلت مسرعًا:

- أعرف بالطبع يا شيخ ياسين.. أعرف. سيرتك العطرة وكرمك لا يحتاجان إلى الألقاب، لقد كنت أول من احتضنني عندما جئت إلى الغردقة غريبًا.

ولم يعقب على كلامي بشيء وأنا صمت تمامًا.. ولم تكن لدي إجابة مرضية لسؤاله الأخير وبعدها قال في حزنٍ واضحٍ:

- ما الذي سيئول إليه المقام لو لم نستطع الإبقاء عليه؟

قلت له في أسفٍ شديدٍ:

- في الغالب سيقومون بنقل الضريح فقط إلى مكان آخر تابعًا للطريقة التي كان يؤسس لها الشيخ الصالح. وفي الغالب أيضًا سيهدمون باقي المقام.

ردَّ في حسرة:

- لا حول ولا قوة الا بالله.

ثم صمت تمامًا وبقيت جالسًا في حرج من الاستئذان وتركه وحده لحزنه.. إلا أنه وبمرونته المعتادة قال بعد قليل:

- لا أريد أن أثقل عليك.. جازاك الله خيرًا على قدومك يا دكتور.

- لا تقل هذا.. ليتني أستطيع أن أقدِّم أي شيء.

قام من مجلسه وقال:

- يدبر الله الأمر.. سأذهب لأستدعي لك من يقوم بتوصيلك.

ثم اختفى لدقائق عاد بعدها ومعه أحد العمال الذين أعرفهم في وادي حبيبة وقال له «لا تترك الدكتور قبل أن يدخل إلى الوادي» فأومأ الرجل برأسه في طاعة.. ثم سلم عليَّ وعاد إلى داخل المسجد.. وتوجهت مع السائق عائدًا إلى غرفتي الكامب. وراحت السائق يقطع الطريق في سرعة إلى الكامب.. وكان من الواضح أنه يريد أن يذهب ويعود قبل أن يتأخر عليه الليل.. وهؤلاء ينامون عادة بعد العشاء بقليل وليس لهم في السهر ويبدأ يومهم مبكرًا جدًّا.

أخذت أفكر فيما قاله الشيخ ياسين.. وهل توجد أي طريقة لدي يمكنني أن أساعده بها؟ أحتاج إلى معارف أقوى مما أمتلك.. وعلاقات أكثر تماسكًا مما لدي.. لقد قطعت علاقتي بكل الناس تقريبًا منذ أكثر من ثلاث سنوات.. حتى «سباستيان» منذ عاد إلى لبنان لم نعد نتواصل إلا نادرًا.

***

كنت قد ذهبت لملاقاة سباستيان أول مرة تنفيذًا لرغبة جدي وقتلًا لبعض الملل الذي تسلَّل إليَّ في بداية تحضيري لرسالة الماجيستير. سألني أول ما التقينا في ميدان طلعت حرب إن كنت أمانع أن نذهب إلى مكانٍ يسمى «صالون شوكت» قريبًا من الميدان فأخبرته أنني لا أعرفه فتعجب سباسيتان كثيرًا وقال لائمًا وكأنه صديق قديم:

- كيف لمثقف مثلك أن لا يعلم بوجوده!

تجاوزت عن كلمة مثقف هذه التي لم أدّعها يومًا وقلت له:

- وهل هو واجب على المثقفين أن يعلموا بأماكن كل كافيهات وسط البلد.. أنا أسكن وسط البلد منذ أكثر من ستة وعشرين عامًا ولم أسمع عنه من قبل.

رد وهو يعبر الإشارة إلى شارع شامبليون:

- ليست الفكرة يا صديقي.. هو ليس كافيه إنما مكان يجتمع فيه معظم الأدباء والفنانين وعدد كبير من الشخصيات العامة.. يملكه أكبر منتج سنيما في بلدكم.. لقد سمعت عنه فور أن وصلت من بيروت.. قبل حتى أن أعمل في الجريدة.

- حتى لو كان ما تقوله صحيحًا.. أنا لست فنانًا ولا كاتبًا ولا شخصية عامة.. ليس لي علاقة بهذا الوسط حتى أكون مضطرًا لأن أعرف المكان.

- قاطعني سباستيان مستنكرًا:

- لا تقل هذا.. لقد كنت تبدو في دار الوثائق وكأنك صاحب المكان.. ألم ترَ كيف تركك الموظف هناك تنسخ ما شئت من الأوراق النادرة شديدة الأهمية؟

وكان يتحدث إليَّ في انبهار طفل صغير فابتسمت ولم أعقب.

وصلنا إلى عمارة كبيرة على ناصيتها محلٌّ للآلات الموسيقية وقال سباستيان «الصالون في الدور الثالث».. وفور أن دخلنا إلى المكان تركني وحدي في سخافة، وانطلق يسلِّم على كل شخصٍ في المكان تقريبًا.. وكان يبدو أن الجميع يعرف بعضهم بعضًا.

كانت شقة واسعة على الطراز الفني القديم لشقق وسط البلد وبها عدد كبير من الجلسات المترامية في الأركان.. انزويت في أول مقعد قابلني منتظرًا «سباستيان» كي ينتهي من ثرثرته مع أصدقائه. وأخذت أتفحص الوجوه وأراقبها في تمعن، وكان الصالون مثلما قال سباستيان تمامًا.. وجوه كثيرة جدًّا أعرفها. أراها كثيرًا في التليفزيون والسينما وعلى صفحات الجرائد وفوق أغلفة الكتب. فنانون وكُتَّاب وإعلاميون. رجال منظرهم مهيب ونساء كل ما فيهن يلمع وبادٍ عليهن الثراء.. وكان الجميع يتحدثون مع بعضهم البعض.. ولاحظت بعض اللكنات الشامية والخليجية بين الموجودين، ووجدتني غريبًا في وسطهم. فكرت أن أنسحب وأقوم كي لا أشعر بالحرج أكثر من ذلك وأعتذر لسباستيان بعدها بأيِّ حجة.. لكنه قطع على طريقي فور أن رآني أتحرك واقترب صائحًا:

- الخروج من هنا قبل الفجر ممنوع يا دكتور.

وسألت سيدة خمسينية جواره لا أعلم من أين أتت وكانت تمسك في يدها كأسًا صغيرا وقالت:

- هو حضرتك دكتور؟

ورد سباستيان بدلًا مني «دكتور يحيي يا مدام صوفي دكتور في

الجامعة وصديق قديم» وقبل أن أوضح أنني مجرد معيد ولم أصبح أستاذًا بعد سألتني:

- ما شاء الله.. دكتور في أي تخصص؟

قلت مستسلمًا:

- حضارات قديمة.. أحضر دراسة في اللغات المصرية قديمة.

- لغات؟! وهل هناك لغة قديمة غير الهيلوغرافية؟

وقبل أن أجيبها قال أحدهم بصوت عالٍ:

- يا جماعة.. «أستاذ «حسان» سيلقي قصيدة جديدة.

صفَّق الجميع وبدأوا يجمتعون حول حسان هذا.. كان رجلا عجوزًا أسمر البشرة له لكنة جنوبية أخذ يتنهد حتى صمت الجميع ثم بدأ في الإلقاء.. قال مقدمًا قصيدته أنها قصيدة نثرية هامة وأنها أهم قصائده الأخيرة.. وأخذ في الإلقاء واندمج الحضور سريعًا، وكانوا يتفاعلون معه بالتصفيق كثيرًا وبشدة كلما توقف. لم أكن أفهم معظم ما يقول لكن الكلمات كانت تخرج من حنجرته مؤثرة وبها كثيرٌ من الأسى حتى وجدتني أنفعل لها وأصفق معهم. ودمعت عيني «حسان» في النهاية وهو يختم كلامه فالتهبت الأيادي بالتصفيق له ونظر لي سباستيان، وكان مبتسمًا من سرعة اندماجي مع المكان. لكن التصفيق هدأ فجأة أو أنه توقف تمامًا فور أن دخلت «ميريت».

أتت ميريت في ثوبٍ أحمر قصيرٍ فوق جسدٍ ينفجر أنوثة وجمالًا. كانت بشرتها شديدة البياض حتى إن أوردة خديها الخفيفة كانت تعلن عن نفسها أحيانًا، وكانت تضع فوق كتفيها شالًا أسود يستر جزءًا من صدرها المكشوف أزالته من فوق كتفيها فور أن دخلت إلى الصالون.

واقتربت مباشرة من سباستيان وهي توزع الابتسامات بعدلٍ على الموجودين. ثم اقتربت من سباستيان لتسلم عليه فاحتضنها وقبّلها في خدها وقدمني إليها قائلًا:

- دكتور يحيى الذي حدَّثتك عنه.

مدت يدًا ناعمة انزلقت تقريبًا في كفي وأنا أسلِّم عليها، وقالت في صوت ساحرٍ.. «شكرًا لك جدًّا.. لقد وفرت علي تعبًا طويلًا».. ولم أفهم ما تقصد، وقبل أن أسألها قاطعتنا مدام «صوفي» سائلة سباستيان:

- وبعد يا سباستيان.. لن نسمح لك أن تخفي هذا القمر عنا للأبد.. لقد فلتت منا المرة الماضية ولن نتركها لحالها اليوم.

ثم ضحكت في «عدم اتزان» من أثر ما كانت تشرب وأخذت «ميريت» من يدها واتجهت بها إلى منتصف القاعة.. وضحكت ميريت بينما قال «سباستيان» الذي تبعها وأنا وراءهم:

- قدَّمتها لكم من قبل يا مدام«صوفي» يبدو أنك كنت نائمة وقتها.

فضحك الجميع على رد «سباستيان» وحتى مدام صوفي نفسها ضحكت وتابعت تسأل «ميريت» مبتسمة:

- عرِّفينا بنفسك يا أستاذة.. صاحبك يغار عليك منا.

قالت«ميريت» بصوت خافض به بعض الحرج من الأعين الكثيرة الناظرة إليها:

- أنا «ميريت».. فنانة تشكيلية من لبنان.

وتابع سباستيان:

- ميريت فنانة تشكيلية عظيمة ستسمعون اسمها كثيرًا في السنوات القادمة. وهي ابنة بيروت مثلي.

وقاطع أحدهم بسخافة سائلًا عن اسمها مطلِقًا الدعابة المكررة عن نوع السجائر المعروف.. وضحكت مدام صوفي على دعابته بصوت رقيع وتدخل الشاعر «حسان» مضيفًا بسخافة دعابة أخرى.. واحمرَّ وجه «ميريت» خجلًا إلا أن مدام صوفي تابعت تسأل في جدية:

- متأسفون لك لا نقصد السخرية بالطبع.. الاسم قليل الاستخدام أظن أنه فرنسي.. ترى ما معناه؟

ثم أكلمت سؤالها في خبث:

- إياكِ أن تكوني لا تعرفين معنى اسمك يا صغيرة.

لم ترد عليها «ميريت» وإنما غرقت في خجلها وبدأ الغضب يكسو وجهها الذي كان يشرق جمالًا منذ ثوانٍ.. أشفقت على حالها وقلت في صوت خرج عاليًا:

- المحبوبة.

فالتفت الحضور كله وأربكتني أعينهم الناظرة في عدم فهم فتابعت شارحًا:

- ميريت باللغة المصرية القديمة تعني المحبوبة.. هو اسم لعدد كبير من الأميرات في الدولة المصرية القديمة «ميريت-نيت» و«ميريت-آمون».. وغيرهن كثيرات.

تابعوا صمتهم في انتباه شديد لم أقول وصاح «سباستيان» في فخرٍ:

- الدكتور يحيى الطيب.. دكتورًا في الآثار المصرية وصديق قديم لي.

لم تصبني الأعين المحدقة بالارتباك وقتها.. فقد كنت أتحدّث فيما أعرفه.. بل أصابني انتشاء ما لعلمي بما يجهلون ونظرت إليّ «ميريت» وكانت تبتسم في امتنان واضح.

انصرفوا بعدها إلى الشاعر «حسان» الذي قرر أن يلقي قصيدة جديدة أخرى.. وتأبط سباستيان يدي و أخذني إلى مجلسٍ هادئٍ في ركن المكان جوار شرفة كبيرة تطل على الشارع وتبعتنا ميريت. اتخذت لنفسها مقعدًا مقابلًا لي وذهب سباستيان ليحضر لي قهوة من البوفية وعاد سريعًا.. ولم نكن نتكلم أنا وميريت بعد. كنت أهرب بعيني منها زمن وجهها الجميل وأراقب الشارع. كانت شركة الصرافة في المبنى المقابل تغلق أبوابها الحديدية ويطفئ صاحبها ما بقي من أنوارها.. وكأنما أوحى لميريت فطلبت من سباستيان أن يخفف من إضاءة الشرفة.. تناولت رشفة من قهوتي وكانت شديدة السوء درجة أنني أخبرت لسباستيان بهذا فابتسم ولم يعلق.. ثم نطقت ميريت أخيرًا وقالت:

- قرأت في مرة أن اسمي معناه الكامل «محبوبة والدها» وليس المحبوبة فقط.

نظرت إليها مبتسمًا.. وكنت أعلم بالطبع لكنني خشيت إن قلت لهم المعنى كاملًا أن يزيد ذلك من سخريتهم.. سألتها محاولًا تغيير الموضوع:

- هل تعملين مع سباستيان في نفس الجريدة؟

- لا.. أنا هنا للدراسة.. لكني لا بُد أن أجد عملًا فورًا بدأت أفلس.

وضحكت في عذوبة.. وخفق قلبي لضحكتها فقد امتلأ خداها

الناضجـان حتـى كادا أن يأخـذا ابتسـامتها ويحلّقـان حولنـا.. وقـال سباسـتيان معقبًـا عـلى إجابتهـا:

- ميريـت تعمـل عـلى رسـالة هامـة للماجيسـتير.. الأوراق التـي كنـت أبحـث عنهـا اليـوم في المركـز كانـت مـن أجلهـا.

وقالت ميريت:

- لا تعلـم كـم كانـت مهمـة تلـك الأوراق يـا دكتـور.. كلمـة شكرًا لا تكفيـك.

- لا داعـي للألقـاب هنـا.. لسـت أدرس في الجامعـة بعـد. كـما أننـا تقريبًـا زمـلاء في نفـس المرحلـة فأنـا أيضًـا أعمـل عـلى رسـالتي حاليًـا وأفهـم تمامًـا صعوبـة مـا تمريـن بـه مـن مشـقة البحـث.

- وعم تدور رسالتك إذًا؟

- نفـس مـا درسـته في الكليـة.. الحضـارة المريـة القديمـة.. اللغـات المصريـة القديمـة تحديـدًا لكـن بتعقيـد أكـبر.

وتدخل سباستيان قائلًا:

- يمكنـك أن تسـتعيني بالدكتـور يحيـى بعـد الآن في أوراقـك النـادرة هـذه.. لقـد تعبـت منـك وأنتـما زمـلاء دراسـة الآن.

فضحكت ميريت بنفس العذوبة.. وخفق قلبي أكثر.. وقلت:

- يمكنـك ذلـك بالتأكيـد.. أنـا أذهـب إلى المركـز بشـكل يومي هذه الأيـام.. يمكننـي أن أسـاعدك كثـيرًا.

وأضفت حتى لا يبدو إعجابي بها واضحًا:

- إن أردت ذلك بالطبع.

فردَّت وقد أشرق وجهها:

- سيكون هذا عظيما جدًّا.. لكن أخشى أن أتعبك.

وأضافت في دلالٍ «طلباتي كثيرة جدًا.. واسأل سباستيان»

رددت وقد أصبحت مخدَّرًا من جمالها.

- أنتِ تأمرين.

وأخرجت هاتفها لتبادل أرقامنا وحلت ضوضاء في المكان فصاح سباستيان:

- ميريت!! الأستاذ شوكت وصل.

انتبهت ميريت واشتدت كالقوس ناهضة في سرعة واستأذنتني قائلة «دقيقة واحدة.. سأعود حالًا».

ولم تنتظر أن أردّ، وتبعها سباستيان مسرعًا وظلا غائبين وطال غيابهم حتى انقضى أكثر من ساعة ولم تعد بعد.. عاد سباستيان أكثر من مرة ليقضي دقيقة أو دقيقتين معي يثرثر في أي شيء ثم يلمح شخصًا ما فيعود ليختفي..وظللت أراقب «ميريت» من بعيدٍ وهي تتحدث مع «شوكت» هذا ولم تُنزِل عينيها من عليه طوال حديثهما.. وعندما سألت عنه سباستيان قال «أخبرتك إنه منتج سينيمائي كبير».. وتعجب من جهلي به وعندما انتصف الليل يئست من عودتها وتعمدت ألا تلمحني هي أو سباستيان وأنا أخرج وكنت غاضبًا بشدة.. هذه هي أول مرة أنتظر امرأة فلا تأتي.

عدت إلى البيت ودخلت متسحبًا كي لا أوقظ جدي وقد بات لا يسهر مثل عادته بعد تعبه الأخير. لكني وجدته نصف نائم فسلمت عليه في خفوت. وقال من بين غفوته «زوجة عمك مريضة اتصل بها غدًا واطمئن عليها ربما كانت تحتاج إلى شيء» ثم عاد إلى نومه.. وكانت قدمه متورمة بشدة.

صنعت لنفسي قهوة بدلًا من قهوة الصالون السيئة.. ووقفت أدخن في الشرفة وأسترجع حديثي مع «ميريت» كلمة بكلمة.. وأسترجع معه وجهها وهي تتكلم وتبتسم.. وكنت أنظر إلى شاشة الهاتف كل فترة وقد منيت نفسي أنها ستأخذ رقمي من «سباستيان» في الغالب. وبعد الوحدة صباحًا جاءني اتصال من رقم مجهول فرددت عليه فورًا قبل أن يوقظ صوته الهاتف جدي وسمعت صوتها العذب وهي تقول:

- دكتور يحيي.. أنا آسفة جدًّا.. أرجوك لا تغضب مني.

امتلأ صدري بالنشوة من مجرد سماعي صوتها وقبل أن أرد أكملت:

- أنا ميريت يا دكتور يحيى.. صديقة سباستيان.

رددت مسرعًا:

- أعرف صوتك بالتأكيد.

- أرجوك لا تكن غاضبًا.. لقد كنت أنتظر الأستاذ شوكت منذ شهر كامل ونسيت نفسي فور أن رأيته.

كان الفضول يأكلني كي أسألها عما تريد من شوكت هنا لكنني ألجمت فضولي بصعوبة وقلت:

- لا ليس في الأمر ما يغضب.

فقالت ببهجة حقيقية:

- شكرًا.. شكرًا جدًّا.. كنت سأنام وضميري يعذبني على قلة ذوقي معك.. واعذرني إن اتصلت متأخرًا هكذا.. لكنني لم أستطع الانتظار حتى نلتقي غدًا.

- لا يهمك.. لم يكن شيئًا كبيرًا. ولكن هل سنلتقي غدًا؟

- ألم تقل أنك تذهب للمركز يوميًا هذه الأيام؟

قلت مسرعًا قبل أن تغير رأيها.

- نعم نعم.. كل يوم.

- حسنًا ألقاك هناك غدًا.. لو لم يزعجك هذا.

فقلت منتشيًا:

- إطلاقا.. سأنتظرك غدًا.. أنا موجود حتى الرابعة بعد العصر.

- اتفقنا.. تصبح على خير.

- ستصبحين على خير.

ثم أغلقت الهاتف وبقيت ساهرًا حتى الفجر أفكر فيها وأستعيد المكالمة مرات ومرات. ثم التقينا في اليوم التالي وكانت لديها ليستة طويلة من الوثائق التي تحتاجها فعلًا كما قال «سباستيان».. وانقضى النهار في عملية البحث عن وثائقها وفي حديثنا المتصل. بعدها خرجنا نمشي إلى شارع القصر العيني ثم إلى كوبري قصر النيل.. وكنا لا نكف عن الكلام.. لم نلتفت إلى النظرات الفضولية المتطفلة على جمال ميريت من الناس حولنا. لم أكن أسمع أي شيء سوى صوتها ورحت أحكي لها عني وعن جدي وعن البعثة إلى لندن.. عن التاريخ الذي أحفظه عن ظهر قلب.. فلا تمل حكاياتي ولا أمل أسئلتها التي لا تنتهي بعد عن كل حكاية.. وكنا إذا تعبنا جلسنا في أقرب كافيه يقابلنا ثم أكملنا سيرنا. ولم نشبع من الكلام حتى اختفت الشمس وساقتنا أقدامنا إلى الصالون. ووجدت نفسي قد أحببت المكان فجأة وتقبَّلته بكل ما فيه.. حتى الأستاذ شوكت نفسه تعرفت به بعدها وأخذت أشاهد بعض أفلامه مجاملة. وبعد أن انقضى شهر من الحديث والسير

في شوارع القاهرة طوال النهار والسهر في الصالون حتى الفجر ثم توصيلها إلى الاستوديو الذي تسكنه في الزمالك وجدت نفسي لا أخجل من الاعتراف أمام نفسي بأنني قد وقعت في حبها. وكنا نقضي الأوقات التي لا نكون فيها سويًا بالحديث الطويل في الهاتف.. وكان جدي سليم يلاحظ انشغالي الدائم لكنه لم يكن يسأل. كنت أتعلل أمامه أحيانًا بضغط العمل على الماجيستير.. لكنه بدا منفصلًا عني في الأيام الأخيرة.. وكان ينام معظم الوقت.. وكنت مخمورًا بعيني ميريت، حتى إنني لم ألاحظ تورم قدميه الذي كان يزداد يومًا بعد يوم وحالته التي كانت تسوء.

تشاجرت أنا وميريت للمرة الأولى بعد ثلاثة أشهر فقط من خروجتنا اليومية ولقاءتنا الدائمة في الصالون. كانت علاقتنا لم تأخذ أي مسمى بعد وكأن هذا اتفاقًا ضمنيًا بيننا.. كانت بيننا مساحة كبيرة من الحرية في الكلام والتفاصيل الدقيقة لا يقيدها أي شيء.. لكننا لم نتقيد بالتزامات معينة لكل منا في تصرفاته ناحية الطرف الآخر كالتزامات الارتباط. تركنا أنفسنا للوقت يسمي علاقتنا كيفما يشاء. وإن كان انجذابنا لبعضنا واشتياقنا المستمر والمتجدد واضحًا لكل من حولنا.

نشب خلافنا الأول بالطبع بسبب تعاملها مع أصدقائها في الصالون بودٍّ مبالغ فيه.. فقد كانت التعاملات في الصالون عامة ليس لها أي حدود. القبلات هناك مجانية للجميع وطوال الوقت. للقريب وللغريب. على اليدين وفوق الخدين وفي زوايا الشفاة أحيانًا. وأحيانًا قبلات ساخنة ملتهبة في إحدى الزوايا بين من يكتفون بلقب أصدقاء فقط أمام الجميع. طوال الوقت لا بُد من كأس هنا وحكاية

جنسية هناك. ورغم أنني قضيت عامًا كاملًا أيام البعثة في لندن.. إلا أن الوضع في الصالون كان شاذًا يشوبه الكثير من الرخص والابتذال.

ولم تكن ميريت تبدي أي استياءٍ لما يحدث.. وعندما لمَّحت لها ذات مساء أنني بدأت لا أستريح لوجودنا الدائم في الصالون غضبت بشدة.. وقالت لي «لا تكن رجعيًّا هكذا».. تضايقت من كلمتها تمامًا وانقطعت عن الاتصال بها وعن المكان كله.. ولم تعاود هي الاتصال بي بعدها مباشرة.

كانت أيامًا ثقيلة وسخيفة مرت بمرار على قلبي.. لكني انتبهت بسببها إلى سوء حالة جدي الصحية.. وذهبت به إلى الطبيب الذي قال بعد عمل بعض الأشعة والفحوصات أن القلب متضررٌ بشدة. وعضلة القلب أصبحت تنذر بقلق أكثر خطورة من ذي قبل ونبهنا إلى أن الكبد ربما يبدأ قريبًا في التداعي هو أيضًا.

حاولت أن أجلب له أي فتاة صغيرة مرافقة له لتجالسه في المنزل وتخدمه في الفترة التي أكون غير متواجد فيها وقد كان يومي مزدحمًا بين أروقة الكلية للماجيستير وبين دار الوثائق. وزاد انشغالي بعد أن قمت بتدريس بعض الكورسات الخاصة لطلبة المعاهد السياحية لزيادة دخلي.. وقد كانت تدر دخلًا جيدًا لم أستطع الاستغناء عنه وكان راتب الجامعة لا يكفي وحده بالطبع.. لكن جدي كان يرفض اقتراحي دائما ويرفض أن يُدخِل غريبًا إلى البيت.

عاودت «ميريت» الاتصال بعد شهرٍ من انقاطعنا.. قالت في الهاتف «لم أكن أعرف عن سواد قلبك شيئًا يا يحيى» ولم أعقب على كلامها.

لكن مجرد سماعي لصوتها أعاد إليَّ روحي من جديد وعدنا نلتقي..

وبدأت أقل من ذهابي إلى الصالون وأطلب منها أن نلتقي في أي مكان آخر فلم تكن تعترض.. لكنها أحيانًا كثيرة كانت تعتذر ولا تأتي فيصير يومي خاويًا وجافًا من دونها.. ثم تشاجرنا مرة أخرى بسبب عرضٍ جاءها للظهور في أحد إعلانات العطور على إحدى صفحات المجلات.. لم نتشاجر طويلًا وقتها لكن بعد أن رأيت صورتها في المجلة وهي ترتدي ثوبًا أقرب إلى ثياب النوم غضبت منها كثيرًا.. وكان غضبي صامتًا هذه المرة.. وكانت تفهم.. وجاء لقاؤنا مرة ثانية بعد آخر انفصال بيننا تلبية لدعوة من سباستيان الذي كانت خطيبته «إيرين» قد جاءت من لبنان لقضاء الإجازة معه في مصر.. وأصرت «ميريت» أن أذهب معها إلى الصالون للترحيب بها.

ذهبت مضطرًا.. وكانت «إيرين» فتاة لطيفة وهادئة.. ملامحها طيبة جدًّا ولها براءة واضحة في طريقة كلامها.. ووجدتها مناسبة لسباستيان وكلٌّ منهما كان يحب الآخر بشكل واضح لأعيننا.. وبعد أقل من ساعة في الصالون طلبت «إيرين» من سباستيان أن نذهب إلى أي مكان آخر.. فذهبنا إلى حديقة جروبي القريبة.. وسألت «ميريت» إيرين لماذا تضايقت من المكان فقالت إيرين ببراءتها:

– يوجد به شيء غير مريح على الإطلاق.. طريقتهم في التعامل وفي الكلام مبتذلة للغاية.

نظرت إلى «ميريت» نظرة بها الكثير لكنها لم تستطع أن تقول شيئًا.. فقلت موجهًا كلامي لإيرين:

– ظننت أن المكان لن يكون غريبًا عليك.. ألم تأتِ من بيروت؟ أكثر البلدان العربية انفتاحًا على ما أعتقد.

ردت إيرين مفسرة:

- الوضع ليس له علاقة بانفتاح أو غيره.. هذا المكان موجود مثله العشرات في بيروت وكازبلانكا وتونس ودبي وغيرهم.. المشكلة أنه به شيء خبيث واضح جدًّا.. ألم تلاحظوا ذلك؟

لم أشأ أن أستفيض في الحديث أكثر حتى لا أستفز «ميريت» أو أسبِّب لها حرجًا.. فعلى الرغم من أن سباستيان هو من عرَّفنا نحن الاثنين على المكان إلا أنه لم يكن يدافع عنه مثلما تفعل ميريت دائمًا.. وانقضى عام على علاقتي بميريت. كان مليئًا بالخلافات والخروجات التي تتبعها مكالمات طويلة حتى منتصف الليل.. وعلى الرغم من خلافتنا الدائمة لم نكن نستطيع أن نبتعد عن كثيرًا ودائما ما نعود للمقابلة في النهاية.. ورغم أسلوب حياتها المتقلب والجامح كانت مخلصة في علاقتها معي ولم تجعلني أشعر بأية غيرة تجاه شخص بعينه أبدًا.. كانت الغيرة دومًا سببها الأسلوب العام في التعامل مع المحيطين.

قارب موعد الامتحان وكنت مشغولًا في مذاكرتي ووجدت «ميريت» لا تلقي بالًا تقريبًا إلى رسالتها وكأنها قد صرفت النظر عنها وكلما حدثتها عن ذلك تهربت من الحديث. وبعد انقضاء الامتحانات تشاجرنا بسبب رفضي ظهورها في أحد الكليبات الراقصة التي يقوم بإنتاجها الأستاذ شوكت. ونويت ساعتها أن أقطع علاقتي بها نهائيًا؛ فقد كان الطريق يسير إلى فراق في النهاية لا محالة.. إلا أنها أزادت الأمور تعقيدًا واعتذرت للأستاذ شوكت عن عرضه الذي يبدو أنها انتظرته كثيرًا. ثم فاجأتني قائلة إنه ينتظر مقابلتي لأمر هام في الصالون أي يوم. لم أفهم ما الذي يمكن أن يريده مني ولم تكن «ميريت» تعلم أي شيء.. ودفعني فضولي إلى الذهاب إليه.

عندما دخلت إلى الصالون توجهت إليه مباشرة لأعرف ما الذي يريده مني وكنت أنوي أن أفتعل معه أي مشاجرة إن كان للموضوع علاقة بميريت.. لكنه فاجأني بعرض للتمثيل في أحد أفلامه.. وقال أنه دور كبير. ولم تصدق ميريت نفسها وتفاجأ سباستيان وكل من كان في الصالون.. قلت له متعجبًا إنني لم أمثل من قبل وليس لدي أي خبرة في التمثيل فقال دون اهتمام:

- هذا لا يهم، أمره بسيط، نُعلمك التمثيل.

فسألته متعجبًا في شيء من السخرية:

- وما هي مقوماتي العظيمة في التمثيل إذًا كي تمنحني دورا كبيرًا مرة واحدة فقال بحكمة العالم بالأمور:

- لك وجه وسيم.. وطولك يناسب الدور جدًّا.

- هذه مقومات موديل إعلانات وليس ممثلًا.

فردَّ في استهتار:

- وما الفارق؟ الممثل موديل في النهاية، لكنه موديل للشخصية، ثم لماذا لا أراك مهتمًا! هذه فرصة يحلم بها أي إنسان في مثل سنك.

قلت في حزم كل أنهي الموضوع وأنصرف من هذا المكان:

- أشكر عرضك جدًّا يا أستاذنا، لكنني في الحقيقة غير مهتم، أنا رجل تاريخ، ولا أحب في حياتي سوى التاريخ.

واتسعت عينا «ميريت» غضبًا وتركتها معهم وانصرفت من المكان.. حاولت ميريت أن تهاتفني طوال الليل فلم أرد عليها، وسافرت في اليوم التالي مباشرة إلى الأقصر مع ورشة تدريبية لطلاب الفرقة الثانية بالكلية.. ولم تنقطع رسائل ميريت ولا اتصالاتها على مدار اليومين التاليين.

وفي مساء اليوم الثالث قررت أن أرد على اتصالها، وجاء صوتها حزينًا وقالت إنها لا ذنب لها، وأن الموضوع لم يكن به أي إهانة كي أترك المكان وأرحل في درامية هكذا.. وقالت لائمة في النهاية:

- كان يكفي أن تعتذر للرجل في لطف.. هذا عمله الذي يجيده وهو لم يخطئ في حقك بأي شيء، وكان حقك أن ترفض ولن يجبرك احد على شيء.

قلت في سرعة:

- ولماذا اتسعت عيناك في غضب إذًا عندما رفضت عرضه؟ لقد ظننتك ستحرقيني بها.

فقالت في حزنٍ، وكان صوتها صادقًا:

- لماذا تتعمد إذلالي؟ أنا أحبك يا يحيي، ولم أحب أحدًا قَط مثلما أحببتك.. وفاجأني تصريحها بحبها لي.. رغم أننا نعرف عن تعلقنا الشديد ببعضنا البعض إلا أننا لم نعترف بذلك أبدًا من قبل.. وأذابت كلمتها قلبي تمامًا، وكنت واقفًا أمام تمثالٍ كبيرًا للملك المحارب تحتمس الثالث في أحد معابد الكرنك بالأقصر ووجدته وكأنه ينظر إليَّ في تحدٍّ فأوليته ظهري وقلت وقد أختلج قلبي:

- وأنا أيضًا أحبك يا ميريت.

ظلت تحادثني إلى أن وصلت إلى الفندق، ثم تحدثنا ثانية حتى الفجر، واتفقنا أن نلتقي فور عودتي مباشرة في الاستديو لديها بالزمالك حيث يعد سباستيان مفاجأة لإيرين بمناسبة عيد ميلادها، وأخذت أنتظر الأسبوع أن ينتهي في صبر حتى أقابلها، وكنت أفتقدها بشدة ولم نكن ننتهي من الحديث في الهاتف كل ليلة.. وكنت أستيقظ يوميًا على رسائلها الرقيقة في صباح.

وصـل القطـار متأخـرًا ليلـة عيـد مـيـلاد إيريـن، وعرفـت أنني سـأفوت المفاجـأة مـن بدايتهـا.. انطلقـت إلى منـزلي سريعًـا لأطمئن عـلى جـدي ووجـدت حالتـه غـير مطمئنـة فاتفقـت معـه أن نذهـب إلى الطبيب في اليـوم التـالي ولم يعـترض.. فقـد كان يـدرك سـوء حالتـه هذه المـرة.. وبالغـت في تأنقـي وأنـا ذاهـب إلى الاسـتديو.. وفـور أن فتحت لي البـاب ألقـت نفسـها بـين ذراعـي فاحتضنتهـا طويـلًا ولم أكـن أريد أن أفلتهـا.. وكانـت رائحـة عطرهـا الممزوجـة برائحـة شـعرها تخترق روحـي حتـى حلّـق قلبـي مبتعـدًا ليسـتقر معهـا.. وكانـت ترتـدي ثوبًا أسـود أنيقًـا للغايـة.

فـور أن دخلـت إلى الأسـتديو أحسسـت بـه زحامًـا شـديدًا رغـم أنـه لم يكـن بـه عـدد كبـير.. لكنـه كان صغـير الحجـم؛ بـه غرفـة واحـدة وصالة كبـيرة ملحـقٌ بهـا مطبـخ جانبـي. تفقـدت الحضـور فـكان سباستيان وإيريـن يجلسـان متجـاوران، وكان معظـم البـاقـين مـن المترددين على الصالـون، وكان الأسـتاذ شـوكت موجـودًا بالطبـع؛ فـأدرت عيني بعيدًا كأني لم أرَه.

باركـت لإيريـن وأعطيتهـا قـلادة منقـوش عليهـا اسـمها واسم سباسـتيان بثـلاث لغـات مختلفـة جلبتهـا لهـا مـن بـازار في معروف الأقـصر، وفرحـت بهـا كثـيرًا هـي وسباسـتيان.

بعـد قليـل كان صـداع خفيفـا بـدأ يهاجـم رأسي مـن مشـقة السفر لسـاعات طويلـة بالقطـار مـن الأقـصر إلى القاهـرة.. قمـت إلى المطبخ لأصنـع لنفسـي قهـوة ولم أسـتأذن «ميريـت» وقـد اعتـبرت أنـه مكاني وقبـل أن أصـب القهـوة كان صـوت الموسـيقى قـد ارتفـع بشـكل مبالغ فيـه وارتفـع صـوت تصفيـق الموجوديـن. فاتجهـت أنظـر بفضول

فوجدت «ميريت» تتوسط دائرة اجتمع كل من في الأستديو بها، وكانت قد بدلت ثوبها الأول وارتدت ثوبا ذهبيًا قصيرًا ضيقًا قد التصق تمامًا بجسدها لدرجة تجعل تمييز أين يبدأ وأين ينتهي أمرًا مستحيلًا.. وكانت ترقص في انسجام على نغمات للرقص الشرقي، وتتمايل مع الإيقاعات في احترافية عالية.. عدت إلى المطبخ منكسرًا مما شاهدت، وكانت القهوة قد احترقت مثل قلبي فأخذت ما بقى منها وانزويت أشربه في مرارة ولم أستطع أن أفسد الليلة على إيرين أو سباستيان بمشاجرة مكررة مع ميريت.. وبعد أن انصرف الجميع رفضَتْ «ميريت» أن تتركني أذهب قبل أن تفهم ما حلَّ بي.. وكان أكثر ما يغضبني أنها كانت تفهم.. حتى شككت أنها ربما تعمدت أن تفعل ذلك لمضايقتي.. أغلقت «ميريت» الباب خلف آخر من رحل منهم ثم جلست جواري ووضعت يدها فوق يدي وسألت:

- ماذا بك يا يحيى؟ لماذا تغيرت فجأة هكذا؟

وكنت قد سئمت منها ومن ألعابها هذه التي لا تنتهي، وأحسست أنني قد استُهلِكت تمامًا.. أزحت يدها برفق وقلت لها في هدوءٍ تامٍ:

- ماذا تريدين مني يا ميرت؟ تعلمين كل العلم أننا لن نصل الى شيء بهذه الطريقة.. كوني صريحة معي من فضلك وقولي لي ماذا تريدين؟

قالت بنفس هدوئي:

- أريدك يا يحيى. قلت لك إنني أحبك منذ يومين فقط، رغم أنني انتظرت طويلًا أن تبدأ بها أنت، لكنني وجدتك لن تفعل ذلك أبدًا فلم أكابر. قلت لك ما في قلبي وما تعرفه وأعرفه أنا منذ شهور.

- وماذا بعد الحب؟

قامت من مجلسها وجلست جواري ملتصقة بي ومررت بلبها الناعمتين في شعري ثم قالت:

- بعده كل شيء.

وانطلقت تقبّل وجهي في وله.. وأخذت أنفاسها الحارة تخنقني في البداية إلا أنني وجدتني سوف أستجيب لإغوئها في النهاية.. وكانت كلمات جدي لي في الشرفة حاضرة بقوة هذه المرة. وكأنه نفسه كان معنا في الأستديو.. أبعدتها عني في لطف فلما مانعت أزحتها جانبًا ونهضت واقفًا.. فقامت هي أيضًا وقالت في غضب وقد علا صوتها تمامًا:

- بل قل لي أنت ما الذي تريده منيّ لقد نفد صبري معك يا يحيى.

ثم صرخت:

- ماذا تريد؟

رددت في نفس هدوئي السابق:

- لماذا تفعلين هذا بنفسك وبي.. إلى أي سوء تريدين أن تذهبي.. مَن هؤلاء الذين تقضين حياتك معهم.. ولماذا؟ أين «ميريت» الفنانة التشكيلية الموهوبة التي عرفتها في الصالون؟ أين تذهبين بنفسك مع هؤلاء؟ ومن هؤلاء أصلًا؟

قالت بنفس الغضب:

- مَن هؤلاء؟ هؤلاء هم النجوم يا يحيى.. هؤلاء هم الصفوة. قل لي أنت.. كم فنانًا تشكيليًا في مصر.. في الوطن العربي كله..

في العالم؟ كم واحدًا منهم تعرفه؟ ستقول لي كثيرين.. حسنًا.. مَن غيري وغيرك يعرفهم.. لا أحد، هل تفهم؟ لا أحد.. لم أترك بلدي وأهلي لأصبح لا أحد.

- وهل هؤلاء هم من تركتِ أهلك وبلدك من أجلهم.

- بل من أجل حلمي.

- التمثيل؟

- من فضلك يا يحيى، لا داعي لأن تسخر مني.. أنت لا تعرف ماذا تركت من أجل أن أحافظ عليك إلى الآن.

قلت صائحًا:

- كفاكِ وهمًا يا ميريت.. أنت لم تتركي شيئًا لأجل أحد. كل ما تفعلين هو لأجل نفسك.. ونفسك فقط.. وشوكت هذا هل تظنين أنك سوف تصلين من ورائه لشيء.. لقد قلت أنتِ بنفسك من قبل.. هذا عمله وهو ماهر فيه.. وإن شئت رأيي.. أرى أنه ماهر فيه تمامًا ويجيد توظيف ممتلكاته جيدًا.

- ماذا تقصد؟

- ما أقصده واضحًا يا ميريت.. شوكت هذا لم يرَ فيكِ إلا وجهًا جميلًا وجسدًا رائعًا، لو كان رأى فيك أي مكسب أكثر من هذا لم يكن ليتركك كل هذا الوقت.

قالت مصدومة:

- أتحاسبني على جمالي يا يحيى؟! جسدي هذا الذي يتمناه كل من في الصالون حرمته عليهم جميعًا. أتعرف لماذا؟ لأجلك أنت.

قلت لها في يأس:

- كان أكرم لك أن تحرميه عليهم لأجلك أنت.

ثم سكتُّ.. وكنت قد اكتفيت منها تمامًا.. وجلست هي في المقعد تبكي فقلت لها وأنا على الباب: «من فضلك دعيني وشأني هذه المرة».. ثم تركتها وانصرفت. وعلمت بيني وبين نفسي أننا انتهينا هذه المرة للأبد.. وفي منتصف اليوم التالي أرسلت إليَّ رسالة قصيرة قائلة: «أنتظرك اليوم في جروبي..ثمة شيء أخير أريد توضيحه لك.. أعتقد أن ما بيننا يستحق هذا اللقاء الأخير».

ولم أكن أفكر أن أستعيدها بأي صورة ممكنة، لكن انتزاع صوتها وصورتها من روحي كان قاتلًا، ووجدتني أرتدي ملابسي متأهبًا للقائها في الموعد المحدَّد.. وقبل أن أذهب سمعت جدي يتحدث مع أحدهم في الصالة. تعجبت وظننته يناديني.. لكنني عندما نظرت إليه وجدته زائغ العينين.. وكان يقول شيئًا لا أفهمه.. ويوجِّه حديثه إلى أبي ثم يسبّه.. تلبسني الذعر من منظره وهو يخرف وأسرعت به إلى المستشفى، وفور أن رآه الطبيب المقيم قال إنها مبادئ غيبوبة كبدية.. ونُقل إلى الرعاية المركزة وبقي فيها لثلاثة أيام.. وجاءتني رسالة من ميريت في الليلة نفسها قائلة: «لقد أحببتك بصدقٍ من كل قلبي يا يحيى.. تذكر هذا دائمًا». فلعنتها في سري، وانتقل جدي في اليوم الثالث إلى غرفة عادية في المستشفى بعد أن عاد إليه وعيه وتحسنت حالته بشكل جزئي.. أخذت أقبِّل يديه كل صباح وأعده وأقسم له إنني لن أتركه وحيدًا مرة أخرى. فوضع يده على رأسي في مرة وقال مبتسمًا: «لم أكن وحيدًا يا يحيى.. لم أكن وحيدًا يا بني» ودخلت علينا الممرضة المسئولة في القسم.. ودخلت من ورائها زينب.

***

كنا قد وصلنا بالسيارة من قرية الجبل إلى الكامب.. وتوقف السائق أمام غرفتي ولم يتكلم أدبًا.. نظرت إلى باب الغرفة وكنت أعرف مقدار اللوم والوحدة اللذين ينتظرانني داخلها.. أخذت أنظر إلى المكان الذي كانت تقف فيه ياسمينا نهارًا.. ونظرت إلى ساعتي وكانت قد تجاوزت التاسعة بقليل، ثم التفتت إلى مرآة السيارة أبحث فيها عن وجه زينب، وكانت الإضاءة في الكامب شِبه معتمة.. فلم أستطع أن ألمح في المرآة أي شيء.. فكرت أن أسأل السائق أن يضيء أي شيء في كابينة السيارة، ووجدت أن طلبي سخيفٌ، ولم يسألني إن كنت سأنزل أم ماذا؟ نظرت إلى المرآة مرة أخرى ثم طلبت منه طلبًا أكثر سخافة وقلت:

- متأسف جدًّا.. لكن هل يمكنك أن تكمل جميلك وتوصلني إلى الغردقة؟

لم يبدِ أي تذمر أو اعتراض، و فور أن خرجنا من بوابة الكامب سألني:

- إلى أي مكان في الغردقة يا دكتور؟

فقلت بين شرودي:

- إلى المارينا..



(٤)

ياسمينا

عزيزتي بيلا: خمسة عشر عامًا من الوحدة يا بيلا.. خمسة عشر عامًا من النزيف كلما لمسني أحدهم.. لم تبدد سوى الليلة..

أعلم أنك تتعجبين من كتابتي إليك للمرة الثانية في نفس اليوم، لكني لا بُد أن أحكي لأحد يا حبيبتي.. ومَن لي سواك.؟!

لقد جاء يحيى يا أمي.. جاء الليلة ولم يخيب ظني.. جاء أخيرًا بعد أن انتظرته طويلًا.

لماذا لم يقل لي «زين» من البداية إنه رقيق هكذا؟ لماذا لم يقل إنه يكون وسيمًا إلى تلك الدرجة في الليل.. آه يا أمي لو أنك تعرفين ذلك الإحساس الذي أحسسته.. لقد كنت مدفونة طيلة هذه الأعوام حتى نسيت أنني أنثى.

يقول يحيى إنه لا يصلح للعلاقات، ولكن أتعلمين شيئًا يا أمي الحبيبة؟ هذا لا يهم. لم يعد شيء يهم. لقد كان يكفيني أن أشعر بما شعرت به الليلة.. قطرة من الماء في عمر طويل من الظمأ، حتى أنني أدركت معنى الارتواء الليلة فقط.

ألقيت نفسي بعد ما وقع لي مع فيليب إلى الحياة تلقي بي حيث شاءت.. رميت ثوب المشاعر جانبا، وارتديت ثياب الجمود.. تقنعت بأقنعة القوة مخفية ضعفي داخل روحي.. حتى لا يراه أحد.. وظل هناك في أعماق روحي حتى نسيته تمامًا. أخذتني الحياة يا بيلا على حين غرة وطعنت «ياسمينا» الرقيقة في داخلي.. واستبدلها بأخرى جامدة.. تتحدث كالآلة.. تتحرك كالآلة.. تعيش كالآلة.. وكانت تنوي أن تتمرد على كونها آلة فقط عندما تموت كالبشر.

لكن الليلة يا أمي حدث لي ما لم أتوقع أنه قد يحدث أبدًا.

لقد لمسني يحيى يا بيلا.. لمس جسدي فلم يحدث لي أي مكروه.

لم أنزف يا بيلا.. هل تصدقين! لم أنزف ولم أفهم السبب.

هل كان ذلك لأنه لمس روحي قبلها؟

سأظل معه يا بيلا.. سأظل وراءه إلى أن أعرف السر..

لكن.. ترى متى يمكنني أن أخبره بسرنا يا بيلا؟

أحبك.. وأتمنى لو أراكِ مرة واحدة أخرى.

ابنتك المحبة: ياسمينا..

***

جلس يحيى أمامي في كافيه «the cave» بالمارينا وقال وكأنه يزيح عبئًا ثقيلًا من فوق كتفيه:

- اعلمي أنني رجل مستهلك. رجل لا يصلح للعلاقات. يجب أن تعرفي هذا جيدًا.

وددت لو أعقب على كلامه و أسأله مباشرة «لماذا أتيت إذًا؟»

لكنني أشرت إلى النادل وطلبت له قهوة، وطلبت لنفسي قهوة ثانية..

ظل يحيى صامتًا لوقت طويل ينظر في شرود عبر نافذة المقهى الزجاجي إلى اليخوت المتراصة في نظام شديد بالخليج الصغير للمارينا. لم أشأ أن أقطع عليه صمته وبقيت أتفحصه في فضولٍ وإن كنت أشعر أنه يراني بعينٍ ثالثة لا أراها، قال بعد صمتٍ طويل دون أن يلتفت إليَّ:

- لكنتك مصرية تمامًا.

فرحت أنه قطع صمته أخيرًا وقلت في سرعة:

- قلتُ لك اليوم في الكامب إن جدتي كانت مصرية. كما أنني عشت في الإسكندرية سنينَ كثيرة.

جاء النادل ووضع القهوة على المنضدة واستأذن في أدبٍ رافعًا الفنجان الفارغ من أمامي.. بعد أن انصرف التفتَ إليَّ يحيى وقال سائلًا:

- هل أعجبتك القهوة هنا؟ أرى أنها أعجبتك.

وأشار إلى الفنجان الثاني الذي طلبته.. فأجبت:

- نعم.. أعجبتني كثيرًا جدًّا.. شكرًا على ترشيحك المكان.

ثم عاد لصمته من جديد، فأسرعت أسأل قبل أن أفقد الحديث معه:

- قال لي عارف إنك أستاذٌ للتاريخ القديم.

- لا ليس هكذا، مدرس مساعد.. أعني كنت.

- وفي أي تخصص في التاريخ القديم؟

- اللغات القديمة.. اللغة المصرية القديمة.

ثم تناول القهوة من أمامه ورشف منها في تلذذ.. نظر إليَّ بعينيه مرة أخرى وكانت له عينان قويتان.. حينما ينظر قبل أن يتكلم أكاد أشعر أنه سوف يخترقني بهما.. سأل يحيي:

- كنت أظنكم لا تشربون القهوة في المساء أبدًا. عندما كنت في لندن كان أصدقائي الإنجليزيون يعتبرون شُربها خطيئة إذا تم مساءًا.

ابتسمت وقلت له رغم أنه ما زال ينظر إليَّ بنفس العينين:

- تظننا! أنا لست أجنبية يا يحيى.. قلت لك إنني عشت في مصر نصف عمري تقريبًا.. كما أنني لست إنجليزية.. وعمومًا نحن نشرب القهوة في اليونان في أي وقتٍ، فهي مشروب يوناني في الأصل، وهم أول من ابتكروها.

ردَّ متعجبًا:

- مشروب يوناني! حقًا؟ هذه أول مرة أعرف.

نظرت إليه لثوانٍ ولم أستطع أن أكتم ضحكتي العالية، ثم قلت له بين ضحكاتي:

- أنت بريء جدًّا.. الكل يعرف أن القهوة من اكتشاف الأثيوبين، وأول من صنعها هم اليمنيون.. كنت أمزح معك.

قال متصنعًا الغضب:

- أتسخرين منِّي؟

- لا أقصد.. لكن ألست تقول إنك مختص في التاريخ؟

قال بسرعة مازحًا:

- أنا متخصص في تاريخ اللغات القديمة.. وليس تاريخ المشروبات الساخنة.

فعلَتْ ضحكاتي أكثر.. ووجدت يحيى ينظر إليّ متأملًا وجهي وأنا أضحك وسألني بعد أن انتهيت من الضحك:

- ما الذي تفعله جميلة مثلك وحدها هنا في الغردقة؟

ردت عليه:

- أنا لست جميلة.

اتسعت عيناه تعجبًا من ردي، فتابعت قائلة وأنا أشير إلى الحاجز الأنفي بين عيني:

- لدي اعوجاج هنا واضح جدًا.. ألا تراه؟.. لقد ورثته عن والدتي بيلا وورثت هي مثله عن جدتي روز.

قال وهو يمعن النظر في وجهي:

- لا ليس واضحًا إلى هذا الحد، ويمكنك أن تقوميه بعملية تجميل بسيطة.. وما أكثرها.

- بالطبع لا، ما الذي يدفعني إلى ذلك، أنا أحب وجهي كما هو.. كما أنني لا أقتنع بمبدأ عمليات التجميل من الأساس.

- ولم ذلك؟

قلت و أنا أعتدل في جلستي:

- أنا عامة ضد المبدأ، أحيانًا أشعر أنها قد تظهر العيوب بشكل أكبر، تخيل أنك تعاملت مع جسد الإنسان كمنتج وليس مخلوق، يصبح حينها أول ما سوف تلمحه عينيك في هذا المنتج هو أصغر عيب فيه، حتى إنك ترى الشيء الطبيعي فيه وكأنه عيب.. بروز ما في غير مكانه.. شفاه رفيعة أكثر من اللازم. إحدى الأسنان تبدو أكبر مما يجاورها.. وهكذا.. كما أن السعي إلى إبراز جمال لا تملكه يبدو لي

نوعًا من الغش التجاري ليس أكثر، وأنا لست سلعة كي أسعى إلى إخفاء اعوجاج بسيط في أنفي.

بدا يحيى متنبهًا تمامًا لما أقول، وظل ينظر إليَّ بتركيز شديد، ثم أشعل سيجارة وقال:

- أتفق معك في كل ما تقولين.. لكن لا أحد يفكر بتلك الطريقة إلا نادرًا، لكنك لم تجيبي على سؤالي إلى الآن.. ما الذي تفعله جميلة مثلك وحدها في الغردقة؟

عد إلى تكراره كلمة «جميلة» ووجدت فيه شيئًا من الغزل فابتسمت قائلة:

- كنت في أحد المؤتمرات مؤخرًا في الإسكندرية، وكنت أحضِّر لبدء مشروعي الخاص، وقررت أن آخذ إجازة طويلة قبل العمر الطويل الذي سوف يستهلكه مشروعي قبل أن يدر دخلًا.

وكان يحدق فيَّ تمامًا، وأحسست أنه يعلم أنني أكذب، وأحسست أنني أود لو أحكي له عني كل شيء.. أحكي له عن روز وبيلا والإسكندرية.. أحكي له عن محل الأزهار في «رودس» وعن فيليب.. أحكي له عن واقعة الكوخ والنزيف الذي لا ينتهي.. وأحكي له عن زين.. وأحسست أنني حتى وإن حكيت له فسوف أحكي ما أشعر أنه يعرفه مسبقًا كلما نظر إليَّ بهاتين العينين.. أصابتني عيناه بالمزيد من الارتباك فسألته محاولة أن أغيِّر الأسئلة تجاهه وأنا لا أعلم عنه شيئًا بعد، وقلت:

- وما الذي يفعله متخصصٌ في اللغات القديمة في كامب للسافاري في الغردقة؟

رد مباشرة:

- لا أعرف..

ولم يكـن يجيـب ببغـض أو اسـتياء.. كان يبـدو صريحًـا، مؤمنًـا بردّ المبهـم هـذا، وتابـع:

- لكنني لن أرحل قبل أن أعرف لهذا إجابة.

ثم عاد إلى شروده في اليخوت بالمارينا مرة أخرى..

كان عـدد الموجودين في الكافيـه قـد بـدأ يقـل تدريجيًـا وهـدأ الصخب المعتـاد نوعًـا، وبـدأ صـوت الموسـيقى يأخـذ مسـاحة أكثـر.. وكانت «سـيلين ديـون» تشـدو بأغنيـة when I need you.. نظـرت لـشروده بجرأة وتـرددت كثـيرًا جـدًّا قبـل أن أقتحمـه قائلـة:

- هل أنت مرتبط.. أو متزوج؟ أعني.. لا أرى دبلة في يدك!

ولا أدري كيـف واتتنـي الشـجاعة كـي أسـأله هـذا السـؤال، لكني لم أكـن أطيـق صـبرًا في سـؤاله.. لمـت نفـسي مبـاشرة عندمـا لم يـرد على سـؤالي وشـعرت بإحـراج شـديد.. لكنـه ردَّ بعـد قليـل قائـلًا:

- كنت متزوجًا.

قالها في مـرارٍ وحـزنٍ شـديدين.. ولم أشـأ أن أقتحـم خصوصيته أكثر لكنـي تطوعـت بـأن أخـبره عنـي وقلـت:

- أنا لم يسبق لي الزواج من قبل.

فالتفت سائلًا بفضول:

- ولمِ؟ هـل الـزواج معقـدٌ في اليونـان مثـل بقيـة الـدول الأخرى في الغـرب؟

- الـزواج ليـس معقـدًا في الغـرب.. عـلى العكـس.. إنـه بسيط مثل كل شيء هنـاك، لكنـه قليـل بالطبـع مقارنـه بالشرق.

- وكيف لا يكون معقدًا؟.. ما أعلمه هو أن العلاقات تبدأ في أوروبا وأمريكا في سنين مبكرة جدًّا.. لكن الزواج يكاد أن يكون نادر الحدوث.

- ليس نادرًا.. هو قليل جدًّا مقارنة بالدول الشرقية كما قلت.. الفكرة أن الغرب صريح مع نفسه في كل شيء، وصريح مع الآخر أيضًا.. يمكنك أن تقول أنهم صرحاء في أنانيتهم بشكلٍ كبيرٍ، والزواج يحتاج إلى شجاعة كبيرة وتضحيات كثيرة لا يقدمون عليها مثل المجتمعات الشرقية، لكنهم هنا كما لاحظت في الفترة التي عشتها بالإسكندرية.. يملكون قدرًا كبيرًا جدًّا من الشجاعة.. لكن غالبًا ما ينقصها النضج.

وقال يحيى مؤمّنًا على كلامي:

- أتفق معك أيضًا فيما تقولين؛ لذلك تكون حالات الانفصال والطلاق كثيرة جدًّا.

ظننت للحظة أنه يعني نفسه في كلامه، ومنعت فضولي بصعوبة في سؤاله عما يقصد.. وقلت:

- لكن حالات الخيانة منتشرة أيضًا في الغرب، وهذا شيء لا يمكن إنكاره. وهي تدل بشكل واضح على إصابتهم بالملل السريع من الالتزام في علاقة مستقرة لوقت طويل.

فقال يحيي في تحفز واضح:

- لكن ما ذنب طرفٍ أراد الاستمرار في علاقة رفض الآخر في منتصفها أن يكملها.. ألا يجني من هذا كله سوى الألم من الحب والعلاقات؟

- العلاقات في رأيي لا تؤلم.. وكذلك الحب.. أعتقد أن ما يؤلم هو ما تظنه وقتها أنه حب بينما يكون مجرد رغبة في الاحتفاظ باحتياج شخص ما إلى وجودنا.

علق يحيى قائلا في تعجب:

- الحب لا يؤلم؟ لا يوجد ما يؤلم أكثر منه.

- لا أتفق معك.. فليس الحب هو ما يؤلم في نهاية العلاقة.. الرغبة في الاستحواذ هي التي تؤلم.. بينما الحب مفهومه أكبر من ذلك.

أخذ يحيى ينظر إليّ في صمت وبدا وكأنه يراجع كلامي ويقلّبه في رأسه.. ومالبث أن ابتسم قائلًا:

- قلتِ لي ماذا تعملين؟

رددت مبتسمة وقد فهمت قصده:

- لا لست خبيرة في العلاقات وكل هذا العبث.. بل إنني فاشلة جًدا فيها بشكلٍ لا يمكنك تخيله.

- وماذا تعملين إذا؟

- استشارية للتسويق لدى بعض الشركات في الشرق الأوسط.

تبسم يحيى قائلًا:

- أها.. فهمت.. ولذلك تجيدين تسويق كلامك جيدًا.

فضحكت لقوله ورددت:

- ربما يكون كلامك صحيحًا.. لقد أضعت سنوات طويلة من عمري أكتسب خبرات كثيرة في كيفية بيع أي شيء للمستهلك دون أن يحتاجها.. وما أسهل الكلام بالطبع.

ظل يحيى ينظر إليّ نفس النظرة التي كنت قد حفظتها في عنب

طوال جلستي معه.. وأحسست وكأنه يحاول أن يقرأ ما في داخلي أكثر وأكثر وسأل بصوت جاء حانيًا:

- لكني أسألك فعلًا.. لماذا ما زلت وحيدة؟ واضح من كلامك أنك تؤمنين بالعلاقات المستمرة وتدعمين فكرتها.

أوجعني بسؤاله وهرب حزني من عيني وقلت:

- ما زلت أبحث عمّن لم يجدني بعد.

وعاد يحيي لينظر إليَّ لكنني شردت منه فيما مضى من حياتي ووحدتي الطويلة فيها منذ زمن بعيد.. وجاء النادل بعدها فوضع فاتورة حساب القهوة أمامنا وانصرف فقال يحيي:

- يبدو أنهم يطرودننا بأدبٍ.

قلت و أنا أخرِج النقود من حقيبتي:

- الوقت تأخر بالفعل لكننا لم نشعر به.. لقد اقترب منتصف الليل.

- ما زال هذا مبكرًا جدًّا بالنسبة لي.. في القاهرة من الصعب أن يغلق المقهى أبوابه قبل الفجر.

ثم أشار بيده و أنا أُخرِج النقود قائلًا:

- اسحمي لي من فضلك.

فقلت:

- لكن أنا التي دعوتك.. إذًا أنا مَن أدفع الحساب.

- ألم تقولي إنك مصرية؟

وكان يبتسم فلم أشأ أن أضايقه.. ولم أكن أرغب أن تنتهي الجلسة معه بهذه السرعة.. لم أتحدث مع رجلٍ هكذا بودٍّ منذ سنوات كثيرة

مضت لم أعد أذكر عددها.. وكان هناك مقهى لم يغلق أبوابه بعد.. وبه عدد من الزبائن يبدو أنهم يسهرون لبعض الوقت.. أشرت إلى يحيى ألفت انتباهه إليه وقلت:

- إن لم تكن متعجلًا؟.. فهناك مقهى..

ولم أستطع أن أضيف وقلت في نفسي ربما كان مثلي لا يريد أن يذهب لكنه نظر في ساعته وقال وهو ينهض بعد أن وضع النقود:

- الوقت تأخر فعلًا.. ما زال أمامي طريق طويل للكامب.

قلت بإحباط:

- على راحتك.

- أين تقيمين بالغردقة؟

- في النزل الليبي.. عندما جئت كنت أسكن في فندق الواحة لكني اكتشفت أن إقامتي سوف تطول، وجدتني قد أنفق ثروة على الفندق فاستأجرت أستديو صغير في النزل الليبي.. أتعرف مكانه؟

قال:

- بالتأكيد.. إنه قريب جدًا.. تعالي أوصلك إليه.

فرحت بشدة من عرضه وتأكدت أنه كان يود لو تطول جلستنا مثلي تمامًا.. حاولت أن أخفي فرحتي وبادرت بسؤاله:

- وأنت.. كيف ستعود إلى وادي حبيبة في هذه الساعة؟

- التاكسيات هنا لا تنام.. أنا زبون لقطة لأي سائق تاكسي في هذه الساعة.

ثم ابتسم وسرنا متجاورين على الممر الخارج من المارينا ومنها إلى الشارع.. حتى توقفنا مجبرين أمام الممر المحفور أرضًا بطول الشارع

والذي كان يضايقني عبوره كلما جئت هنا، وكانت الإصلاحات فيه لا تنتهي أبدًا.. وقال يحيي:

- انتظري.

وعبره برشاقة الى الجهة الأخرى، ثم مدَّ يده إليَّ قائلًا: «لا تخافي» لم أكن خائفة لأني أعبره يوميًا تقريبًا، لكنني كنت أنظر في عينيه عندما سحبني وكدت فعلًا أن أسقط في الممر المحفور لكنه أمسكني بقوة وضمني إليه قبل أن تنزلق قدمي، وضحكت رغمًا عني، ثم رحنا نتمشى في الطريق الرئيسي المؤدي في نهايته إلى سكني ولم أشعر بنفسي وأنا أقترب منه شيئًا فشيئًا وكأن به ما يجذب جسدي كي ألتصق به.. حتى صرنا متلاصقين تقريبًا وودت لو يضع يده حول كتفي ويضمني إليه ونحن سائران مثل عاشقين.. ثم انتبهت فجأة وتذكرت أنه أمسكني من يدي وضمني إليه عندما كدت أقع في الحفرة أمام مدخل المارينا ولم يحدث لي شيء.. حتى إنني توقفت في الشارع من شدة المفاجأة وسألني متعجبًا: «ما بك؟» فقلت كي لا يفزع من فعلي: «لا شيء.. لا شيء» وتسارعت ضربات قلبي وأسرعت يدي تتحسس أنفي وشفتي وكانتا طبيعيتين.. فتعجبت. وكنا قد اقتربنا من مكان سكني، وكان يحيى ما زال يتكلم عن التغيير الكبير الذي حدث في الغردقة في السنوات الأخيرة لكنني لم أكن منتبهة لأي شيء مما يقول، وكانت فكرة واحدة تسيطر على رأسي وتحتل تفكيري كله. حتى لم أعد أطيق صبرًا فتوقفت فجأة وقلت له:

- هل تسمح لي أن أجرب شيئًا.. لكن لا تفهم أي شيء خطأ.

فردَّ في عدم فهم:

- ماذا تريدين أن تفعلي؟

فأمسكت يده ووضعت فيها يدي وابتسمت له قائلة: «هنا» ثم سرت.. فابتسم وسار جواري، وظلت كفي في كفه، ولم يمانع وإن ظل متعجبًا مما فعلت.. وأخذ قلبي يقفز في خفقانه وتسارع تنفسي، وكنت أضع يدي الأخرى كل لحظة أتحسس شفتي وأنفي.. لكني بقيت طبيعية ولم يحدث لي شيء..!

وشبكت أصابعي في أصابع يحيى وأخذت أضغط بها في رفق، وكدت أن ألقي نفسي بين ذراعيه.. لكنه بعد فترة قليلة وجدته يسحب يده في رفق وكنا قد اقتربنا أمام باب النزل.. وودت لو تركت يدي معه إلى الصباح كي أتأكد، وقال عندما وصلنا إلى المبنى:

- أظن أننا وصلنا.. أليس كذلك؟

فقلت وأنا أشير إلى نافذة مضيئة في الدور الثالث بالمبنى:

- نعم.. هذه هي غرفتي.. النافذة الوحيدة المضيئة هناك.

- أنسيتِ إضاءتها؟

- لا لم أنسَ.. دائمًا ما أفعل ذلك إذا خرجت ليلًا.

وابتسمت في خجل وأنا أتابع:

- لا أحب أن أدخل غرفتي فأجدها مظلمة.

فابتسم ولم يقل شيء فسألته:

- هل سأراك ثانية؟

سكت طويلًا ثم تنهد قائلًا:

- أتمنى أن نلتقي ثانية.. لكن يجب أن أوكد عليك مرة ثانية..

فقلت مقاطعة:

- أعلم أعلم.. إنك لا تصلح للعلاقات.

وتابعت في خفوت يكاد أن لا يُسمَع:

- ولا أنا أيضًا.. سوف نكون صديقين وهذا يكفيني.. ليس لي من احد هنا.. ولا في مصر كلها.

وتبادلنا أرقام هواتفنا، وانصرف يحيي وأسرعت إلى غرفتي كي أكتب إلى بيلا.

***

دخلت من البوابة وكان حارس العقار نائمًا كالعادة ودخلت إلى المصعد متجهة إلى الدور الذي أسكن فيه.. نظرت إلى وجهي في المرآة أتفقده، وأخذت أسأل نفسي هل كنت أبدو جميلة هكذا كما رآني يحيى؟ أم أنه كان يجاملني.. ونظرت إلى أنفي في المرآة بدقة، وأخذت أتفحصه ووجدت أن الأعوجاج كان طفيفًا جدًّا.. لكنه واضح لي لكوني أعرف بوجوده.. وسألت نفسي: هل أحتاج فعلًا إلى جراحة لتقويمه؟ وابتسمت وقلت لنفسي: «وأنا التي كانت تعترض على عمليات التجميل».. لكن ظهور يحيى المفاجئ هذا جعلني أرغب حقًا في أن أبدو أكثر جمالًا.

دخلت الأستوديو، وكنت أشعر ببهجة غير عادية.. وفور أن صرت وحدي أحسست أنني أفتقده بشدة.. أخرجت الهاتف لأتأكد من أنني حفظت رقمه على الهاتف فعلًا، ولما وجدت أنني حفظته وكان اسمه أمامي، أحسست أنني أرغب في محادثته.. لكنني ترددت. وفي النهاية أرسلت إليه قائلة: «من فضلك.. طمئني عندما تصل.. ياسمينا» وذيّلتها باسمي مخافة أن لا يكون قد قام بتسجيل رقمي.

قمت إلى مشغل الأغاني وبحثت فيه حتى وجدت بها أغنية «سيلين ديون» التي كانت تشدو بها في الكافيه.. وأعدت تشغيلها

وارتميت على الفراش أفكّر في يحيى وأسترجع كلامه.. وأخذت أتساءل لماذا يكون قد انفصل عن زوجته؟.. وهل كان يحبها؟ أم أنه كما ذكرَ ونحن نتحدث عن زواج الشرقيين، كان قد تزوج دون حب ودون نضجٍ كافٍ؟ ثم عدت أتذكر شكل عينيه وهو ينظر إلى وجهي ويتفحصني كلما تكلمت.. وشكلها وهما تقتحمان روحي كلما نطقت بشيء.. وكان فيهما عمرٌ كبيرٌ أكبر مما تبدو عليه هيأته. وقلت لنفسي ترى كم يكون سنه؟ وقدرت أنه في الغالب لم يتخطَّ الأربعين بأية حال.. رغم الخصلات البيضاء التي كانت تغزو جزءًا كبيرًا من شعره الطويل.. والذي لم يصفف معظمه وتركه ثائرًا حول رأسه.. فبدا لي أكثر وسامة ورجولة.. ووجدتني تنهدت في حب وأخذت أنظر إلى سقف الأستوديو وقد قاومت رغبة جديدة ملِحَّة في سماعي لصوته.. حتى جاءتني رسالة قصيرة منه بعد قليل على الهاتف كتب فيها «وصلت.. شكرًا لك» ففرحت أكثر من رده عليَّ، وكدت أقوم لأرقص.. وفكرت أن أحادثه لكنني خفت أن أكون لحوحة فكتبت له رسالة أخرى أشكره على قدومه لكنني لم أرسلها حتى لا يظنني مراهقة تترصده.

أحضرت أوراقي وكتبت إلى «بيلا» أحكي لها عنه وعن مقابلته.. ثم عدت إلى فراشي أستعيد كل ما مرَّ بي منذ ما حدث مع فيليب في الكوخ أمام البحر في «رودس».. ولم أجد إجابة واحدة عن الاستثناء الغريب الذي حدث مع يحيى.

***

علمت من فيليب أنه فور سقوطي أمامه في الكوخ فزع وأسرع بي إلى أول مستشفى.. وبقيت فاقدة للوعي بعدها لمدة ساعتين. كان قد

حضر فيهما أبي وتشاجر مع فيليب ومع الطبيب الذي أخبره أنه لا يوجد تشخيص مبدأي لحالتي بعد. فقط قاموا بتعليق بعض المحاليل للمحافظة على ضغطي من الهبوط الحاد نتيجة لنوبة النزيف الغريبة هذه. ثم سحب الطبيب بعض العينات من دمائي لإجراء بعض الفحوصات في محاولة منه لمعرفة سبب النزيف المفاجئ، وكان أبي ينظر إليَّ في خوف ممزوج بعتاب شديد فأشرت إليه أن اقترب.. وهمست في أذنه «لم يفعل فيليب معي أي شيء.. أقسم لك.. ما زلت عذراء».. فاضطرب وجهه وأبدى استياءً شديدًا من كلامي واحتضنني قائلًا: «لم أفكر في أمرٍ مثل هذا قَط».. لماذا تظنين ذلك؟»

لكنني كنت أعلم بالتأكيد أول شيء سيدور في رأسه.. فهو من أهل «رودس» ومعظم سكانها كانوا لا يزالون من العائلات المحافظة في أوروبا.. سألته عن أي شيء قد أخبره به الطبيب فردَّ نافيًا. وفي نهاية اليوم. وبعد إجراء عدد كبير من التحاليل جاء الطبيب وسألنا إن كان قد مرَّ أي أحد في عائلتي بأمر مشابه.. فأخبرته أنني أجبت على نفس السؤال عدة مرات وقلت إنني لا أعلم.. فقد ماتت أمي بيلا من نزيف شديد مفاجئ لم نعرف له سببًا.. وامتقع وجه أبي عندما أتيت على ذِكر بيلا.. وخاف أن يكون ما مر بي له علاقة بمرض أكون قد ورثته منها وأن ألقي نفس مصيرها المحزن.. وفي نهاية الأمر قال الطبيب:

- تحت أي ظرف ومهما كانت الأسباب.. في الغالب هي حالة هموفيليا.

سأله والدي مفسرًا عما يقوله فقال له الطبيب مفسرًا:

- هذا مرض وراثي يسبب نوعٍ حادٍ من سيولة الدم.. عوامل التجلط المسئولة عن إيقاف النزيف في حالات الجروح أو الإصابة

بكدمات أو كسور تكون غير موجودة.. ولا يستطيع الجسم أن يسيطر عليها.. وقد يظل المريض ينزف لوقت غير محدد.

خفت بشدة مما يقوله فسألته:

- لكنك تقول إن هذا يحدث نتيجة إصابة بجروح أو كدمات.. لكني لم يحدث لي أي شيء.. لقد بدأ النزيف وحده دون مقدمات أو أي أسباب مم قد ذكرتها.

- أعلم ذلك.. لكن التحاليل التي أجريناها لك تؤكد أنه لديك نقصٌ حادٌ في عوامل التجلط التي تكون ناقصة في حالات الهيموفيليا.. ربما حدثت لك كدمة خفيفة دون أن تشعري.. ربما كانت حالتك نوعًا نادرًا من الهيموفيليا لكنها في النهاية وطِبقًا للتحاليل التي أجريناها.. هي حالة هيموفيليا.. وسوف تظلين معنا لمدة ثلاثة أيام لتلقي العلاج الخاص بهذا المرض، وقبل خروجك سوف نقوم بإعطائك بعض الإرشادات الخاصة بالتعامل مع مثل هذه الأعراض متى تكرَّر ذلك.. وهو أمرٌ وارد بالتأكيد.

وبعد أن انتهى الطبيب من شرح حالتي لي ولأبي، وقبل أن ينصرف سألته في خوف قائلة:

- هل هي حالة خطيرة؟

فردَّ بلهجة تقريرية وكأنه آلة:

- كان هذا فيما مضى يُعَد مرضًا قاتلًا وليس له علاج معروف.. أما الآن بعض البلازما وعوامل التجلط تنهي المشكلة.

ثم تابع وهو يضغط على آخر كلماته:

- تنهي المشكلة بشكل مؤقت.. لكنك ستظلين عُرضة لما في

أي وقت.. لذلك لن نسمح لك بالخروج قبل اطلاعك على كافة الإرشادات الخاصة بحالتك.

ثم استاذننا وانصرف ولم أفهم منه مدى خطورة حالتي.. سألت أبي عن فيليب فأخبرني أنه ينتظر بالخارج.. وطلبت منه أن يناديه.. فجاء ووجهه باهتًا من الأمر.. وخرج والدي ليتركنا على راحتنا.. فقد كان رغم كل شيء يشجع علاقتي معه لكونه من أهل «رودس» مثلنا.. ومن العائلات المعروفة فيها.. وكنت قد علمت من «بيلا» في مرة أنه كان يخشى عليَّ ونحن في الإسكندرية أن أتعلَّق بأحد الشباب المصريين قبل أن نعود.

جذب فيليب مقعدًا حول الفراش الذي كنت أرقد عليه وحاول أن يبتسم في صعوبة شديدة وقال وهو يمسك بيدي ليطمئنني:

- لا تقلقي.. سيكون كل شيء على...

ثم قطع كلامه فجأة وخرج مسرعًا يستدعي التمريض.. وكان النزيف من أنفي قد عاد يهاجمني ثانية.

مكثت لأسبوع كامل في المستشفى، وخضعت لعددٍ آخر من الفحوصات والأشعة.. لكن لم يجدّ جديد، وأصر الطبيب وطبيب آخر مختصًا في أمراض الدم على نفس التشخيص.. وخرجت عائدة إلى منزلي مع والدي.

ظللت راقدة في منزلي ليومين آخرين، وكنت قد حفظت كل الإرشادات التي أخبرني بها الطبيب في المستشفى يوم عودتي.. وحرصت على تناول أدويتي بانتظام.. وفي اليوم الثالث وبعد إلحاح شديد على والدي عدت إلى محل الأزهار.. ولم أقبل أن أكون ملازمة للفراش مثل الموتى لمجرد أنني نزفت بعضًا من الدماء.

جـاء فيليـب ومعـه باقـة كبـيرة مـن الأزهـار وضعهـا أمامـي على المكتـب الصغـير في محـل الأزهـار.. وأخـذ يحمسـني عـلى دخـول الامتحانـات وعـدم التحجـج بموضـوع النزيـف هـذا.. وقـد كنت أفكر جديًـا في تأجيـل الامتحانـات لعـام آخـر ومـع أول قُبلـة وضعهـا فيليب عـلى جبهتـي وهـو يحتضننـي عـاد النزيـف مـن أنفـي مـرة أخـرى وأدركنا نحـن الاثنـين سـاعتها أنـه لا يحـدث إلا عندمـا يقـوم بلمسـي.. وكان النزيـف بسـيطًا تلـك المـرة، وأسرعـت بوضـع أكيـاس الثلـج الصغيرة التـي كنت أحتفـظ بهـا في مـبردٍ بالمحـل تحسـبًا لأي نوبـة قـد تـأتي.. وقـال فيليـب «أنـا لا أفهـم شـيئًا» فطلبـت منـه في هـدوءٍ أن يرحـل.. وكأنـه كان ينتظـر ذلـك.. فرحـلَ دون اعـتراض.

هربـت مـن خـوفي مـم يحـدث إليّ بالإفـراط في المذاكـرة ومحاولـة تجاوز الامتحانـات بأيـة طريقـة.. ونجحـت في ذلـك رغـم مـا مـرَّ بي.. وبعد انتهـاء الامتحانـات عـدت إلى عمـلي بمحـل الأزهـار وقـد تبقـت أمامي فـترة قليلـة لجمـع مـا أريـد مـن مـال تجهيـزًا لفـترة الجامعـة.. ولم يحاول فيليـب التواصـل معـي مـرة أخـرى بعـد مـا حـدث لي في المـرة الأخيرة.

بـدأت تصـل إلى أذني أحاديـث متناثـرة عـن فتـاة رودس الملعونـة.. والتـي تنـزف دمًـا فـور أن يلمسـها حبيبهـا.. وكان مـا يشـغل بـالي في وقتها هـل الموضـوع متعلـق بي أم بفيليـب.. ولم أجـرؤ عـلى اختبـار ذلـك فترة تواجـدي في « رودس».. وإن كنـت أعلـم أن الموضـوع يخصنـي وحـدي.. فقـد كان فيليـب قـد أخـبرني عـبر علاقـة سـابقة لـه مـع إحـدى الفتيات في الجزيـرة قبـلي ولم يـأتِ عـلى ذِكـر أي شيء غريـب بخصوصهـا.. لكني منيـت نفسـي كذبًـا أنـه ربـما كان قـد أخفـى عـلي الأمـر.

رحـب والـدي بانتقـالي للعيـش في سـكن الجامعـة في أثينـا خاصـة بعد

انتشار حكايتي بين سكان رودس وبين جيراننا جميعًا. وكانت الحيرة في البداية هي المفاضلة بين جامعتي «أرسطو» في «سالونيك» وبين جامعة أثينا.. وكانت النفقات ستكون أكثر بالطبع في جامعة أثينا لكني كنت أعتقد أنها ستوفر لي فرصة أكبر للعمل عن سالونيك.. فحسمت أمري وتقدمت بأوراقي إلى جامعة أثينا للدراسة بكلية الاقتصاد فيها.. وانتقلت إلى العاصمة تاركة « رودس» وما حدث فيها وراء ظهري.

تركت نفسي للجامعة وللدراسة فيها تختطفني من أول يوم.. والتحقت للعمل كنادلة بأحد المطاعم الإيطالية بعد شهر واحد من بداية الدراسة.. وكنت آخذ حذري تمامًا وأتجنب الاحتكاك الجسدي بأي شخص في محيطي، إلا أنني بعد فترة كنت قد كدت أن أنسى أو أتناسى ما حدث مع فيليب.. ووجدت أن الأمر عادي.. وسلمت بأنه كان حدثًا غريبًا عارضًا وغير مفهوم.. وصرت أتعامل مع الجميع ببساطة ولم يكن الاحتكاك الجسدي أو السلام أو المزاح مع زملائي في الجامعة يسبِّب أي مشكلة.. وكنت أداوم على أخذ علاجي من «فيتامين ك» بجرعات منتظمة.. وأحسست أن المشكلة قد انتهت وأنني كنت واهمة.. وكتبت إلى «بيلا» أطمئنها على حالتي.. لكن عندما انجذبت لأول زميل لي في الكلية.. وسمحت له أن يقبِّل يدي ونحن جالسان في إحدى الحدائق العامة في أثينا أمام بحيرة صناعية صغيرة بالمتنزه.. وبمجرد أن أمسك يدي وقربها إلى شفتيه حتى أحسست بخيط الدماء الدافئ وهو ينساب من أنفي وفوق شفتي فقمت فورًا وهربت عائدة إلى غرفتي بالسكن الجامعي.. وبقيت أبكي طيلة الليل وقد تأكدت من أنني ملعونة.

ذهبت إلى العديد من الأطباء في أثينا، وبعد ذلك بسنوات الأطباء في إيطاليا وألمانيا، وكان الجميع يطلب الفحوصات نفسها.. ويشخص نفس المرض؛ «الهيموفيليا».. لكن لم يستطع أحد أن يفسر لي لماذا لا يبدأ النزيف إلا عندما يلمسني رجل؟.. وعندما أكون قد ملت نوعًا إلى هذا الرجل.. ولماذا يبدأ دون جرح؟ وقال طبيب عجوز ذات مرة أن ما يحفز تكسر الدم ويحد من تخثره من المستحل علميًّا أن يكون عاملًا نفسيًّا.. فيئست ورُحت أبحث في الكتب العلمية والطبية.. وبحثت في كتب التاريخ.. حتى رحت أبحثت في الأساطير والخرافات التي تمتلئ بها بلدي.. ولم أجد بين كل ما قرأت أي شيء له علاقة بما يحدث لي. وعندما تخرجت من الكلية كنت قد استسلمت لحقيقة مُرة.. وهي أنني سوف أقضي ما بقي لي من عمري وحيدة دون رفيق.. وحتى أموت.

دفنت نفسي أكثر وأكثر في دراسة الاقتصاد.. ومنه إلى التسويق، برعت في علومه.. وتفوقت على الكثيرين.. صار لي مع الوقت اسمٌ معروفٌ لدى الشركات الكبرى.. وصرت أُطلَب بالاسم من أصحابها.. ولم يعد لي مكان واحد أعيش فيه.. ولم أستقر في بلدٍ واحدٍ أكثر من عامين.. تنقلت بين البلدان كما تنقلت بين الشركات الكبرى وحينما كان يتقرب مني أحدهم كنت أهرب مختبئة داخلي كي لا أتعرض لأي خطرٍ قد يهدد حياتي مرة أخرى.. وإن كنت قد اعترفت لنفسي بين انكساراتي في وحدتي أنني شبه ميتة بهذه الطريقة.

في العامين الأخيرين كنت قد اكتفيت من العمل لدى الشركات.. واتخذت قرارًا بأن أنشئ مشروعي الخاص.. وقد اكتسبت خبرة كبيرة في مجال إنشاء الشركات والعلامات التجارية الكبرى.. وكان

حلمي الوحيد الذي تبقى لي هو خلق علامة تجارية تخصني في مجال العطور.. كان تعلقي بمحل أزهار بيلا لم يتركني ليلة. وفكرت أن أطوِّر منه وأنشئ علامة تجارية قوية للعطور تنافِس العلامات التجارية الكبرى الموجودة.. والتي أعمل أحيانًا على طرق التسويق الخاصة بها في الشركات التي أعمل لديها.. وكنت قد جمعت من المال ما قد يكفي لبداية مناسبة.. واستقرت خطتي على أسهل الأسواق للغزو في العالم.. وهي الأسواق العربية.

قضيت أولًا ثلاثة أشهر في مدينة دبي ما بين تلقي عروض للشراكة من بعض المستثمرين الذين تحمسوا للفكرة، وآخرون تحمسوا للمغازلة فقط دون أن يعلموا أنهم لن ينالوا شيء من ورائي في النهاية.. لكن هدفي الأساسي كان دراسة السوق وليس البحث عن مساهمين؛ فقد كان الأهم بالنسبة لي هو امتلاك المشروع وإدارته بشكل مستقل قبل ضمان نجاحه.. كنت اتقبل فكرة الفشل وخسارة مالي فقد كنت أتعامل مع كل الأشياء منذ تقبلت لعنتي وتعايشت معها على أنه لا يوجد لدي شيء قد أخسره.. وانتهى بي الأمر إلى مؤتمر في مدينة الإسكندرية عن السوق العربية وطُرق الاستثمار فيها.. وكنت لم أزرها منذ تركتها آخر مرة مع بيلا، وكان وقد مضى على رحيلي سنواتٍ طوال.

منذ اليوم الأول في الإسكندرية علمت أنها ليست كما تركتها أبدًا منذ سنوات. هبطت الطائرة في مطار برج العرب.. ومنها إلى سيارة مستأجرة أخذتني إلى فندق «سيسل» في محطة الرمل.. استرحت لساعة واحدة وقررت أن أخرج لأتفقد مدينتي الأولى التي قضيت فيها سنوات خالية من النزيف.. وكان الزحام الشديد هو أول ما لاحظته..

لكنـه لم يكـن أول مـا ضايقنـي. أحسسـت طـوال الوقـت أن بي شيئًا غريـب.. الـكل يقتحـم حركتـي بفضـول مزعـج.. يحاوطنـي العابـرون بنظراتهـم وتطفلهـم المـؤذي وكأني كنـت أسـير عاريـة في الشـارع.. لاتهبط مـن عـلى جسـدي نظـرات الجالسـين عـلى المقاهـي أمـام الكورنيش إلا بعـد أن أبتعـد.. حاولـت أن أسـترجع ذكريـاتي في هـذه المدينـة وقت أن كنـت أعيـش بهـا.. واكتشـفت أن شـيئًا كبـيرًا قـد تغـير فيهـا.. حتى رائحة البحـر احسسـت أنهـا قـد تغـيرت وليـس النـاس فقـط.. ووجـدت أنني لـن أسـتطيع أن أسـير في الشـارع دون سـيارة خاصـة. فاسـتأجرت واحدة لكننـي لم أسـتطع أن أتحـرك بهـا في الطرقـات وكل مـن حـولي يسـبني.. ويسـب الآخـرون بعضهـم بعضًـا.. واضطـررت إلى اسـتئجار سـائق مع السـيارة.

بعـد يومـين مـن وجـودي في الإسـكندرية هـزم حنينـي تـرددي وذهبت إلى فيـلا «أنطـوان» ولم يكـن لـدي أي توقعـات عـما قـد حـدث لـه بعد أن تركنـاه وحيـدًا منـذ سـنوات.

في البدايـة لم أسـتطع أن أتعـرف عـلى المـكان، فقـد تغـيَّر تمامًـا.. ووجـدت لافتـة كبـيرة عـلى البوابـة الحديـدة الكبـيرة للفيـلا وقـد كتب عليهـا «دار أنطـوان للمسـنين».. واختلـج قلبـي وكادت عينـاي أن تدمعا وأنـا أدخـل المـكان الـذي كـبرت فيـه.. وعلمـت مـن الإدارة بالداخل أنـه تـوفي بعـد سـفرنا بسـنة واحـدة.. وتـبرع بالفيـلا لإحـدى الجمعيات الخيريـة.. وخرجـت مـن المـكان وكلي أسـى وأنـا أذكـر أنطـوان وهو يعلِّمنـي الشـطرنج ويحكـي لي عـن جـدتي روز.

ذهبـت بالسـيارة بعدهـا عائـدة إلى الفنـدق، وفي الطريـق لمحت على ناصيـة أحـد الشـوارع سـيارة صغـيرة تقـدم وجبـات سريعـة فتذكرت

رحلتي مع بيلا للبحث عن «زين» وطلبت من السائق أن نذهب إلى منطقة بحري، وتمنيت ألا أكون قد نسيت المكان تمامًا بعد كل هذه السنوات.. وفي شارع قصر التين قطعنا الطريق مرتين، وكان هذا هو آخر ما أذكره عن المكان فقد كنت صغيرة فعلًا ولم يكن قد انطبع في رأسي سوى أن الشارع موجود قبالة البحر في هذه المنطقة.. لكني في المرة الثالثة وجدت عربة الساندويتشات المكتوب عليها «أكل بحري» على رأس الشارع الذي كان فيه المنزل.. وتذكرتها فورًا.. ووجدتها كما كانت منذ سنين لم تتغير.. حاول السائق الدخول من زاوية بكير إلى الحارة الصغيرة التي كان فيها منزل «زين» لكنه لم يستطع.. فطلبت منه أن يسبقني وينتظرني على ناصية الشارع جوار عربة الساندويتشات.. تردد السائق وقال لي إن المكان غير آمنًا للتجول فيه ليلًا.. فأصررت.. ثم طلب أن ينزل معي فطلبت منه أن يجد مكانًا يصلح لركن السيارة فيه ثم يوافيني أمام مقهى صغير كان موجودًا جوارنا.. ربما أحاول التعرف على المنزل أو أسأل عنه.. وقد كانت ذاكرتي قد استنزفت كل ما كنت أعرفه عن ذلك اليوم مع بيلا.

نزلت من السيارة وسط تعجب السائق ودخلت إلى الحارة الصغيرة.. وكان بها عدد لا بأس به من المنازل وقلت لنفسي سأحاول.. وكان الموضوع به شيء من المغامرة لم أستطع أن أقاومه.

كان صبية صغارًا يلعبون الكرة في الشارع توقفوا فور أن رأوني.. ونظر إليَّ شاب شكله مخيف كان يعبر أمامي أخذ يبطئ من خطواته تمامًا حتى أحسست أنه توقف، ووجدت أنني قد تهورت في دخولي وحيدة كما قال السائق منذ قليل.. وكان شيخ عجوز يجلس أمام المنازل على الرصيف ووجدت الشاب المريب يقترب فخففت

واتجهـت إلى الشـيخ العجـوز وقلـت لـه «لـو سـمحت» فالتفـت إليّ في تثاقـل، فسـألته:

- هل تعرف أحد يعيش هنا اسمه زين؟

نظر إلي وقد أخذته المفاجأة وأخذ يتفحص وجهي ثم قال:

- أنا زين ؟ أتكونين أنتِ ..

ولم أصدق أذني فصحت :

- أنا ياسمينا.. ياسمينا بنت بيلا.. هل تعرف أمي؟

***

(٥)

يحيى

نظرت إلى ساعتي وكانت ياسمينا قد تأخرت.. ولم يكن هذا طبعًا لها، ثم نظرت إلى مرآة الغرفة للمرة الثانية هذا الصباح، وكانت زينب كالمرة الأولى ساكنة داخلها لكن في هدوءٍ وسكونٍ.. لم تكن حزينة أو سعيدة، ولا حتى بدت مرتبكة كالليلة التي قابلت فيها ياسمينا.. وقد بقي وضع زينب كما هو في المرآة وفي الغرفة وفي الجبال وفي رحلات السافاري للفترة السابقة.. منذ سهرت مع ياسمينا للمرة الأولى في المارينا منذ ثلاثة أشهر تقريبًا.

ثلاثة أشهر نلتقي أنا وياسمينا بشكل يومي.. إما أن تمر عليَّ هي في الكامب فنخرج نتمشى حول الكامب وقد صار الجميع هنا أصدقاء لها.. وإما أن أذهب أنا إليها في الغردقة.. ونذهب إلى المارينا أو نتجول في المدينة.. وكانت تلح عليَّ في تعلم القيادة حتى يسهل عليَّ الحركة بين الكامب وبين المدينة.. لكني كنت أرفض دائمًا.. وكنت أنتظرها اليوم منذ الرابعة عصرًا كي لا نتأخر على العرس. لكنها وللمرة الأولى منذ التقينا تأخرت عليَّ.

في الليلة السابقة كنا نسهر سويًّا في المارينا كعادتنا.. وقد صار

الجـو بـاردًا جـدًّا في الكامـب ويصعـب الجلـوس فيـه لفـترة طويلـة وقـد بـدأ ديسـمبر منـذ أيـام.. وكنـا جالسـين في نفـس الكافيـه والـذي التقينـا فيـه للمـرة الأولى.. وقـد حفـظ العاملـون في المـكان وجوهنـا وطلباتنـا المكـررة. وكنـا لا نتوقـف عـن الـكلام. ولم نعتّـد في حديثنـا أن نتكلـم عنهـا أو عنـي، كان العـالم دائـمًا هـو محـور حديثنـا. لم تحـاول ياسـمينا اقتحامـي كـما توقعـت. بـل تركتنـي أذوب يومًـا بعـد يـوم أمامهـا حتـى اعتـدت وجودهـا في يومـي وألفتـه، ثـم صرت أفتقـده إن غابـت، ولم تحـاول أن تخفـي انجذابهـا لي قَـط. وكان شـيئًا مـا في عينيهـا وهـي تنظـر إليّ وأنـا أتحـدث أو ونحـن صامتـين يطمئننـي إلى انجذابهـا وتعلّقهـا. كان شـيئًا أكـبر مـن الرغبـة وأنقـى مـن الغريـزة.. وكأنـه شيء مقـدسٌ لا يحـق لي أن أصـده أو أرفضـه. بينـما جاهـدت بصعوبـة أمامهـا طـوال الأشـهر الثلاثـة الماضيـة كـي لا تشـعر بانجـذابي لهـا، وكنـت قـد انقلـب حـالي وصـار فهمـي لنفـسي ومـا يـدور داخلهـا لغـزًا كبـيرًا لم أسـعَ إلى محاولـة إيجـاد حـل لـه.. كـي لا ينطفـئ مـن روحـي المزيـد.

صـارت أيامـي غريبـة وليـاليَّ أكثـر غرابـة. أسـتيقظ نهـارًا عـلى حلـم حزيـن مـع ميريـت. ثـم أتنـاول قهـوتي الصباحيـة وأنـا أفكـر في أيامـي الأخـيرة مـع زينـب. ويقطـع شرودي اتصـالٌ مـن ياسـمينا لتخـبرني بقدومهـا أو تطلـب منّـي الذهـاب لهـا فأبتهـج ويغمـرني الفـرح لقدومهـا. أظـل أفكـر وأدخـن في شراهـة وأقـضي الليـل أناجـي جـدي سـليم عسـاه يملـك إجابـة لم يقلهـا بعـد. لكنـه يظـل صامتًـا. وإن كان يبسـم مؤخـرًا في أحلامـي، وصـارت صـور زينـب لا تفـارق كل مـا حـولي. لكنهـا تختفـي تمامًـا فـور أن تظهـر ياسـمينا. ولم أكـن أرى زينـب بعدهـا غاضبـة. لكنهـا لم تكـن سـعيدة أيضًـا وبـدأت أشـعر أنهـا مترقبـة لـشيء سـوف يحـدث.

وطال تفكيري في زينب وطالت سهراتي مع ياسمينا. قالت ياسمينا بالأمس ونحن ساهرين:

-الغردقة هي الحل الأمثل للحياة في مصر.

سألتها مستفسرًا:

- ولماذا الغردقة فقط.. هناك شرم الشيخ أيضًا، وطابا، ودهب، وهناك الإسكندرية.. لماذا الغردقة تحديدًا؟

- لو كنت عشت في «رودس» لفهمت قصدي.. ولو كنت فتاة لفهمت أكثر. الغردقة تبدو وكأنها قرية نظيفة هادئة. ليست صاخبة مثل شرم الشيخ. أو مهجورة كطابا.. كما أنها تخلصت من عُقَد الشارع المصري الأخيرة المبالِغة في الفضول والاقتحام.. محتفظة أيضًا بنوع من التحفظ يجاور التحرر لا يتركه وحيدًا.

- التحفظ.. هنا في الغردقة؟

- نعم.. ألم تلحظ الحارس في النزل الليبي عندما كنت تزورني في البداية وتوصلني يوميًا، لقد كان يرمقك في شك دومًا، ولم يكن على وده الحالي.

- لم أظن الأمر بتلك الصورة.. أنا عامة قضيت معظم الأيام في الكامب، ولم أقضِ وقتًا طويلًا في المدينة.. رغم أنني أحببتها فور قدومي.

- هذا أمر أتعجب منه دومًا.. لماذا لا تقيم في المدينة؟ رحلات السافاري في الكامب قليلة جدًّا.. والفندق الذي يتبعه الكامب أكثر راحة لك.

- أجد راحتي أكثر في الكامب. ربما كان السبب هو الصحراء

والجبـال. كان سباسـتيان صديقـي القديـم يقـول لي دائـمًا إننـي ابنٌ للصحـراء لا المدينـة.

هـزت رأسـها في تعجـب ثـم طلبـت قهـوة لنفسـها مـرة أخرى وسـألتني إن كنـت أرغـب في المزيـد منهـا فقلـت:

- أصبحت تشربين القهوة كثيرًا في الأيام الأخيرة.

ابتسمت قائلة:

- وجودك يدفعني للقهوة.. أحب أن أشربها معك دومًا.

ورمقتنـي بعينيهـا الجميلتـين منتظـرة ردي عـلى جملتهـا، وقبـل أن أفكر في رد عليهـا جـاء أحـد العامـلين في الكافيـه ووضـع قبالتنـا لافتـة كبيرة تعلـن عـن قـدوم إحـدى الراقصـات لاحتفـال ليلـة رأس السـنة للعام الجديـد. وكانـت معظـم الكافيهـات والبـارات في المارينـا تقـدم مثل هذه العـروض في تلـك الليلـة استقطابًا لمزيـد مـن السـائحين الذيـن يستمتعون كثـيرًا بمشـاهدة الرقـص الشرقـي.. هاجمتنـي ذكـرى ميريـت فـور أن رأيـت الإعـلان، وتكـدرت روحـي رغـمًا عنـي وظللـت شـاردًا لفترة ولم أنتبـه لياسـمينا وهـي تحادثنـي لأكثـر مـن مـرة، وبعـد أن أنهـت قهوتها عرضـتُ عليهـا أن نقـوم لنتمشـى في المارينـا أو في أيٍّ مـن شـوارع المدينة.. ولم تعـترض.

قمنـا وتأبطـت ياسـمينا ذراعـي كعادتهـا. وكانـت تفعـل هـذا دائمًا كلـما رحنـا نتمشـى. وكنـت ألاحـظ أن ياسـمينا تتعمـد دومًـا أن يلتصق جسـدانا قـدر مـا استطاعت.. بينـما كنـت أحـاول دائـمًا أن أحافظ على مسـافة بـين روحينـا قـدر مـا اسـتطعت، لكننـي كثـيرًا مـا كنـت أفشل في ذلـك؛ ففـي البدايـة كنـت أخـاف عـلى نفسـي منهـا، لكنهـا اقتربت من روحـي كثـيرًا حتـى قـرأت روحهـا جيـدًا؛ فـصرت أخـاف عـلى روحها

الطيبة من نفسي.. وكثيرًا ما كنت أجدني في حيرة من علاقتي بها.. أؤكد لها طوال الوقت أنني لا أصلح للدخول في علاقة.. لكنها إن غابت لمتها وشكوتها بغضبٍ حقيقي.. وإن اقتربت كثيرًا هربت أنا منها حتى لا أتورط أكثر.. وإن كنت أعترف أحيانًا أمام نفسي ليلًا أنني بالفعل قد تورطت معها.. وكانت ياسمينا غاية في الذكاء.. تحترم صمتي الطويل، بل أشعر أحيانًا أنها تحبه وتقدِّره، وكنت بالمثل أعشق سكوتها وشرودها إن زار جلساتنا سويًّا.. وكنا نجد في صمتنا ألفة. ولم تكن ألفة تقل عن حبنا لكلامنا الذي أحيانًا قد يطول لساعات.. إنما كانت الرفقة أقوى من كل ملل قد يصيبنا. ولم نترك لفضولنا عن ذكرياتنا السيئة فرصة أن يكدر صفو هذه الرفقة الحنون.

مالت ياسمينا على كتفي وهي ملتصقة بذراعي وقالت ونحن سائران جوار رصيف المارينا البحري:

- مالك يا يحيى.. لماذا تغيرت عيناك فجأة؟

لم أردّ، بقيت على صمت.. وعلى غير عادتها تابعت تسأل:

- لماذا ضايقك إعلان الراقصة إلى تلك الدرجة.. ألا يحب الرجال الرقص الشرقي؟

وكنت أتخيلها تبتسم في خبث وهي تسأل فقلت:

- بالطبع.. فهو أجمل الأشياء قبل الذهاب إلى فراش الرجل.

توقفت وضربتني في كتفي مازحة، وقالت وهي تتصنع غضبًا:

- يحيى، راقب كلامك.. هذا تحرش.

فسألتها:

- أتعترضين؟

- على رأيك في الرقص أم على التحرش؟

ثـم ضحكـت عاليًـا ودفعتنـي للضحـك رغـم عبـوسي وقالـت سـائلة في جديـة:

- قـل لي فعـلًا، أتعـترض عـلى الرقـص الشرقـي؟ الرقـص ثقافـة موجـودة في كل الشـعوب بالمناسـبة.. ليـس الرقـص في البـلاد العربيـة فقط.

كان أكثـر مـا يجذبنـي في ياسـمينا هـو تناولهـا الدائـم لـكل الأمـور برؤيـة فلسـفية وتحليلـة خاصـة.. لا تـترك موضوعًـا دون أن تناقـش أصله ومنشـأه.. ومـا نتـج منـه ومـا أدى إليـه. كانـت تذكّـرني بجـدي سـليم. وحكـت لي ياسـمينا مـرة عندمـا عقبـت لهـا عـلى طريقتهـا هـذه فقالـت أنهـا كانـت وحيـدة لسـنوات طويلـة.. وكانـت تقـضي معظـم لياليهـا في التفكـير والـشرود. تتخيـل آلاف المواقـف والأحـداث. لهـا ولمـن حولهـا، ولا تتوقـف عـن التحليـل المسـتمر لتلـك الأمـور، وكانـت تراقـب الجميـع في فضـول وتحـاول أن تتوقـع ردود أفعالهـم طـوال الوقـت.. لم أتعجـب من كلامهـا وهـي ابنـة البـلاد التـي صـدّرت الفلسـفة للعـالم كلـه قبـل قـرون.

خرجنـا مـن بوابـة المارينـا وعبرنـا النفـق المحفـور كالعـادة وتشـبثت بي ياسـمينا حتـى إنهـا كانـت تحتضننـي وأنـا أسـاعدها عـلى العبـور.. ثـم اتخذنـا شـارعًا جانبيًّـا في طريـق مختـصر إلى شـارع النـصر.. وعـادت ياسـمينا تسـأل:

- لم تقل لي رأيك في الرقص الشرقي.. أُصر أن أعرف.

قلت لها بعد إلحاحها لمرتين:

- أنـا لم أعـترض عـلى أن الرقـص ثقافـة لـدى كل الشـعوب ومنذ قديم الزمـان.. أنـا رجـل تاريـخ لا تنـسي هذا.

- ما مشكلتك مع الرقص الشرقي إذًا؟

قلت في صبرٍ:

- عند كثير من الشعوب، بل عند معظم الشعوب يكون الرقص ثقافة تعبيرية بشكل أو بآخر.. تفريغًا لطاقة سلبية أو استدعاء لطاقة إيجابية.. نوع من البهجة ممزوج بليونة الجسد مع إيقاعات لها معنى واضح ومقصود، لكن الرقص الشرقي ليس له علاقة بذلك. أراه في الحقيقة مخاطبة مباشرة للغريزة الجنسية، وليس للموضوع علاقة بملابس الراقصة بالمناسبة.. فالكثير من الراقصات يؤدّين بعض الرقصات بزيٍّ محتشم.. لكن الموضوع له علاقة بطريقة أداء الرقصة.. وتعامل الراقصة مع جسدها أمام المتفرجين. بل ونوع المتفرجين أنفسهم وتفاعلهم مع الراقصة.. الموضوع كله يذكّرني بنوادي التعري في الخارج.. وإن كانت أكثر صراحة ووضوحًا في ذلك.. وكما قلت من قبل.. المجتمعات الغربية بسيطة وواضحة مع نفسها في تعاملاتها.

- إلى هذه الدرجة من السوء ترى الرقص الشرقي؟

- قولي لي أنتِ.. ما الذي يدفع فتاة جميلة أو على قدرٍ ولو بسيط من الجمال إلى التعري وإبراز مفاتن جسدها والقيام بمجموعة من الحركات لإبراز هذا الجمال بشكل لا يحرِّك سوى غريزة الرجل؟

- لا أعرف.. ربما المال.. في الغالب المال بالطبع.. لكن ليس هذا مؤكدًا.. لا بُد من عمل استبيان مع عدد كبير من الراقصات للتأكد.

ضحكت من سذاجتها وقلت لها:

- استبيان؟! أتظنين أن الراقصة الشرقية ستقبل أن تجيب عن أسئلة استبيان لعمل إحصاء لما دفعها إلى العمل كراقصة.. وإن قبلت ستجيب بالأسباب الحقيقية؟ أنتِ ساذجة يا ياسمينا فعلًا.

ضربتني على كتفي مرات ومرات وقالت في خبث:

- هناك حل إذًا لو رضيت أنت به..

- وما هو أيتها الفيلسوفة؟

- أن أعمل راقصة وأقوم باقتحام هذا العالم السري.. ربما عرفنا الحقيقة.

التفتُّ إليها وقلت وأنا أدفع يدي مهددًا بضربها في دعابة:

- وما رأيك أن أكسر عنقك ونستريح نحن الاثنين؟

ابتعدت إلى الطريق وهي تضحك في مرحٍ وقالت وسط صرخان سيارة للأجرة جوارها:

- أنت رجل تاريخ أم رجل الكهف؟

ثم عادت تسير جواري مرة أخرى وقلت لها بعد دقائق:

-الأمر صعب فهمه عليكِ يا ياسمينا.. أنت امرأة أوروبية في النهاية ولن تستطيعي أن...

توقفت ياسمينا وقالت في غضب حقيقي:

- يحيى!! قلت لك مائة مرة أنا مصرية.. «مصـرية»

وكانت تضغط على حروف الكلمة في غضب وتابعت قائلة:

- كما أنني أفكر في الاستقرار هنا نهائيًا.

نظرت إليها في فرحة لم أستطع أن أخفيها أمامها وقلت لها:

- فعلًا؟

- قلت أفكر..

ثم عادت ثانية وتأبطت ذراعي في قوة.. والتصقت بي أكثر وأكثر فأرحت لها كتفي كي تميل برأسها عليه في راحة أكبر.. وسألت ونحن سائران:

-هل تحب فعلًا لو بقيت هنا معك في الغردقة؟

وقبل أن أفكر في ردٍّ عليها قاطعني اتصال هاتفي، كان الشيخ ياسين.. رددت عليه مباشرة وألصقتُ ياسمينا وجهها بوجهي كي تستمع لما يقول.. وكان يؤكد على حضور زفاف ابنه «يزيد» في اليوم التالي.. وبعد أن باركت له وأكدت عليه حضوري ثم أنهيت المكالمة قلت لياسمينا:

- سأقترح عليك شيئًا سوف يسعدك.. هل تريدين أن تَري رقصًا حقيقيًا ؟

فقالت بسرعة شديدة في فرح:

- هل ستأخذني معك إلى القرية أخيرًا؟

أومأت برأسي إيجابًا.. فاتسعت عيناها من الفرحة وقالت هامسة وهي تلتصق بي أكثر:

- شكرًا!

ثم أكملنا سيرنا وحمدت الله أنها نسيت موضوع سؤالي عن استقرارها في مصر.. وإن كنت أشك أنها تجاوزته عمدًا.. ولم تكن لدي إجابة واضحة عليه، وقبل عودتي للكامب اتصلت بالشيخ ياسين أستأذنه في قدوم صديقة معي لزفاف ابنه فرحَّب بشدة.

***

نظرت مرة أخرى إلى الساعة، وكانت قد تجاوزت الخامسة.. وتلقيت مكالمة من الشيخ ياسين لكن التغطية لم تسمح لنا بإكمالها وكنت أعرف أنه اتصل بي لتذكيري بالموعد الذي قارب.. كان أمامنا ساعة من القيادة على الأقل بسيارة ياسمينا التي تقودها في بطء

شديد.. ولما وجدت الوقت سوف يسرقنا اتصلت بياسمينا أتعجلها فأخبرتني أنها ستكون أمام مدخل الكامب خلال دقائق.. اقترحت عليها أن أنتظرها أمام المدخل فرفضت تمامًا وأخبرتني أنها ستكون أمام غرفتي خلال دقائق قليلة.. وبالفعل وصلت سيارتها أمامي بعدها مباشرة، وكنت قد مللت من الانتظار فوقفت أنتظرها خارج الغرفة.. وقبل أن أتوجه مسرعًا إلى جوارها أشارت إلى تستوقفني ونزلت من السيارة.

كانت ترتدي فستانًا جذابًا به شريطٌ أحمر يجسد خصرها في بساطة وبالفستان بعض الوردات المنقوشة بلون وردي خفيف جدًّا.. وكانت تبدو كأميرة جميلة من عصر قديم.. ظللت أتأملها ودارت حول نفسها فبدت كفراشة جميلة ثم اقتربت مني في دلالٍ مقصود وقالت:

- ما رأيك؟

فقلت دون أن أرفع عيني من عليها :

-تبدين كملكة جميلة.. ستغار منك العروس هكذا.

وظللت أنظر إليها وقلبي يخفق لها.. بعدها اتجهت لأغلق الغرفة وسألتني:

- لماذا لم تضع رابطة عنق؟

فأجبتها وأنا متجهٌ إلى السيارة:

-ليس لدي واحدة.

وصعدنا إلى السيارة وفور أن تحركنا، ناولتني هدية صغيرة ملفوفة من تابلوه السيارة، وقالت مبتسمة:

-لقد عملت حسابي.

وفتحت الهدية فورًا فوجدت داخلها رابطة عنق طويبة اللون لها لمعة خفيفة عند حوافها.. فابتسمت وشكرتها.. ثم انحرفت إلى بداية الممر الجبلي المؤدي إلى طريق القرية غير الممهد، وقالت وهي تعدل من وضع مرآة السيارة ناحيتي:

- يمكنك استخدام المرآة لارتدائها.

ولما أتت على ذكر المرآة اختفت ابتسامتي فورًا

***

بقي جدي سليم في المستشفى لأسبوعين كاملين.. وكنت أقضي معه معظم الوقت تقريبًا، وكانت زينب تزورنا بشكل يومي.. ولم تكن حالته تتحسن كما تمنينا.. لكنه لم يعد إلى غيبوبته المرعبة مرة أخرى.. وكنت قد أحسست بذنبٍ كبيرٍ لتركي إياه وحيدًا في الفترة التي كنت غارقًا فيها مع ميريت.. وكانت تتصل بي كل يوم وترسل معتذرة عن كلامنا الأخير سويًّا.

لكن حالة جدي الصحية منعتني من محاولة التفكير في الرجوع إلى شِباكها مرة أخرى.. وكذلك ظهور زينب في حياتي من جديد.. كانت قد تغيرت تمامًا عن آخر مرة ألتقينا فيها.. وكان عمرٌ قد مضى علينا.. أنهيت فيه كُلّيتي وحصلت على الدبلوم وسافرت إلى لندن وعدت، ثم دخلت ميريت حياتي وخرجت، أو أن هذا ما كنت أدّعيه. أما زينب.. فقد بدت وكأنها شخصٌ آخر عندما التقينا في المستشفى. أم أقول إنها صارت شخصًا إضافيًا لزينب التي عرفتها صغيرًا.

صارت امرأة قوية أثقلها الحزن.. وزادها الخذلان حكمة في الحديث والحركة.. فلم تعد محِبة للكلام مثلما اعتدتها.. أو ربما كانت

تُقل من حديثها في وجودي فقد كنت أسمعها تثرثر مع جدي كلما دخلت عليهما غرفة المستشفى بعد عودتي من عملي.. لكننا إذا ما تحدثنا كانت ترد الجملة بالكلمة.. والكلمة بالإماءة أو الابتسام الخفيف.. لكن ما كان واضحًا طوال الوقت في عينيها هو الانكسار، والإحساس بالخذلان.. لكنها ورغم ذلك لم تكن تقصر في مراعاتها لجدي في المستشفى، وكانت تحفظ أنواع الأدوية كلها وتوقيت كل دواء وجرعاته، وتأتيه بالطعام المسموح كل صباح.. وبعد يومين من ترددها على المستشفى صارت تحضر طعامًا لي أيضًا.. ولم أكن أقدر أن أرفضه في وجود جدي.

كان الحزن يعصف بي وتقتلني الوحدة والكآبة.. وكان وجهي شديد العبوس في الأيام الأخيرة وقد أقلق ذلك جدي علي كثيرًا فسألني:

- ما بك يا ولدي؟ ما الذي حدث؟ لماذا تتركني لقلقي هكذا؟

كنت أحاول أن أتماسك أمامه وقلت:

- وعلام القلق يا جدي؟

ردَّ في نظرة عتاب قائلًا:

- ألا تعلم؟

فسألته هربًا :

- أتعني زينب؟

- بل أعنيك أنت.. زينب لا يخاف عليها أحد.. كلي خوف عليك أنت، وخوفي عليك من نفسك.. ما الذي حل بك؟ صار لك أكثر من عام وأنت لست بيحيى الذي عرفته وكبر بين يدي.. ماذا بك؟ لم كل هذا التيه؟

ولم أكن أعرف ماذا بي ولا أعرف بماذا أرد.. كنت متعبًا وكأنني أنا الذي شاخ عمره.. ما زلت شابًا لكنني بدأت أشعر أنني لا أرغب في المواصلة.. لا أعلم ماذا أريد من هذه الدنيا؟ وكل يوم أمنّي نفسي أنني سوف أعرف الإجابة.. وكل الذي أصل إليه هو طريق جديد ممل ليس له من نهاية ولا أفهم له معنى.. وكانت حكايتي مع ميريت قد أتت على ما بقي مني.

وعاد جدي يسأل:

- تكلم يا بني ماذا بك؟ قد لا أكون معك بعد ساعة.. وأنت لم تكن تتكلم طيلة عمرك مع أحد سواي.

قلت له:

- صدقني يا جدي لا أعلم ما بي.. ولا أعلم من أين يأتي كل هذا الحزن وكل هذه الوحدة.. لم أعد أعلم لماذا أحببت التاريخ، ولا أعلم ما الذي سوف أجنيه من ورائه.. لا أعلم لماذا نبذني والداي هكذا وكأني لست ابنًا لهما.. ولماذا فعلت ما فعلت مع زينب؟.. ووسط هذا كله.. لا أعلم الطريق.. ولا أعلم إلى أين يذهب بي؟ ولا طاقة لي على المزيد من مشقته.

فقال وهو يربت على كتفي:

- ولماذا تفكر من الآن في مشقة الطريق.. فكِّر في متعة الوصول.

- الوصول إلى ماذا؟ أنا لا أعرف ماذا أريد كي أسعى أن أصل إليه.. ولا أفعل شيئًا سوى إيذاء نفسي وإيذاء من حولي.

- نفسك لوامة يا ولدي.. نفسك لوامة.

ثم اعتدل وتابع قائلًا:

- يا يحيى.. قال الصالحون قبلنا.. النفوس ثلاث: نفس مطمئنة، ونفس أمّارة بالسوء، وبينهما نفسٌ لوامة.. تأبى هذا وتسعى إلى ذاك.. وما أنت فيه ما هو إلا نفس لوامة تجاهد أمّارتك بالسوء.

- صدقني يا جدي لقد تعبت.. تعبت مبكرًا جدًا عما ظننت أنني قد أحتمل.. تعبت من قلة صبري ومن أنانيتي.. تعبت من كوني أجلس معك الآن وأنت المريض.. ورغم ذلك أنت من تواسيني وتطيب خاطري.. تعبت يا جدي ولا أصدق أنني في الثلاثين من عمري.. أحيانًا أشعر أني أحمل قلب شيخٍ في نهاية حياته وقد استسلم للموت وصار ينتظره وهو راضٍ بقدومه.

- لم يأتِ أوان التعب بعد يا يحيى.. سيكون طريقك طويلًا فلا تتعجل التعب. أنت لم تلقَ شيئًا بعد وما زال طريقك طويلًا.

ثم أراح رأسه على السرير وقد أنهكه الكلام. فقمت أساعده، وقبل أن يغمض عينيه قال:

- لن أوصيك على ابنة عمك يا يحيي.. لم يعد لها من أحد سواك.. وليجمعنا الله على الخير.

في نهاية الأسبوع الأول استدعاني الطبيب المقيم المسئول عن حالة جدي يومها وكان يمسك في يده آخر الفحوصات التي أُجريت له.. وقال إن الحالة سيئة وربما تسوء أكثر خلال أيام.. سألته مستفسرًا عما يقصده فقال لي دون تجميلٍ للكلام:

-الأعمار بيد الله، لكن يجب أن تستعدوا.

وقبل أن يدخل إلى غرفة جدي ناديته وقلت في حزنٍ:

- من فضلك لا تخبره بأي شيءٍ، لا أريده أن يفقد الأمل، فهو رجل مؤمن ومصلٍّ.

نظر إليَّ الطبيب الشاب، وخلع نظارته الطبية، وأخذ يتفحصني بعينين بدا عليهما إرهاق السهر ثم سألني:

- ماذا تعمل؟

- أنا معيد في كلية الآثار.

- وهل يصح أن يصدر هذا الكلام من شخص مثلك؟

لم أفهم ما الذي يقصده فتابع:

- هذا حقه عليكم.. لم أكن لأخبره بنفسي بالطبع إلا إذا أردت أنت ذلك لكنك أنت من يجب أن يخبره. هذا حقه يا أستاذ.. أم أقول يا دكتور؟

وابتسم في برودٍ ولم أرد أن أغضبه لكني قلت:

- لكن.. ربما يؤدي هذا إلى تأخُّر حالته.

بدا مستاء بشدة من قولي وأشار بالأوراق التي في يده، وقال بصوت خرج عاليًا:

- يا حضرة جدك يحتضر.. أي سوء تتكلم عنه؟ يجب أن تخبره بذلك.

- وما الفائدة إذًا؟

- ما الفائدة؟ لا تكن أنانيًا.. المستفيد الوحيد من عدم إخباره هو أنت.

- أنا!! وما الذي أستفيده.

- سوف تريح نفسك من قسوة المواجهة.. تتركه يحتضر في هدوء دون أن يعلم ذلك.. لكن قل لي.. لو كنت أنت مكانه.. هل كنت تحب أن تعرف معلومة كهذه أم لا؟

قلت مباشرة دون تفكير:

- بالطبع لا.. ولماذا أحب أن أعذِّب نفسي؟

نظر متعجبًا مرة أخرى وقال:

- أمرك غريب حقًا.. من يرفض فرصة كهذه؟ أن يتجهز للقاء ربه؟ أن يكتب وصية قبل رحيله؟ أن يصالح شخصًا قد أخطأ في حقه ومنعه كبرياؤه من الاعتذار له.. أن يتطهر من ذنبٍ في حق نفسه أو في حق غيره.. أن يعترف لأحد أنه يحبه ولم يصرِّح بذلك قط.. أن يتصالح مع نفسه قبل أن يرحل.. الأمر قاسٍ ومؤلم بالطبع.. لكنه أجمل شيء قد تمنحه لشخص بينه وبين الموت أيام. ألا تقول أنه رجل مؤمن؟ كيف تحرمه من نعمه كهذه! أحيانًا تكون النعم التي ينعم بها الله علينا في منتهى القسوة لكن هذا من وجهة نظرنا الدنيوية فقط.

ألجمني كلامه تمامًا، ولم أستطع أن أرد عليه بأي شيء، ووجدت أنه كان محقًا في كل حرف قاله.. لكنني فكرت كيف أخبر جدي بذلك؟ بل كيف أخبر نفسي أنه سوف يتركني ويرحل بعد أيامٍ؟!

وعَدتُ الطبيب أن أخبر جدي بحالته وأقسمت له على ذلك.. وقلت لنفسي إنني لن أكون جبانًا وأترك غريبًا يخبره بشيء كهذا بينما أتوارى أنا خلف حزني.. وحاولت أن أتحلى بالشجاعة.. ودخلت إلى غرفة جدي وأنا أكاد أرتجف وترتعش يداي من الحزن.. لكنه لم يكن في فراشه.. كان قد نزل مع الممرضة إلى الدور الأرضي لعمل أشعة جديدة، وكانت زينب فقط في الغرفة تبحث عن الأشعة القديمة.. وفور أن التقت عيني بعينيها لم أستطع أن أحبس دموعي.. فبكيت.. وعندما عاد جدي إلى الغرفة سأل زينب لماذا لم تأتِ بالأشعة القديمة

لأنهم طلبوها منه.. ولماذا وجدنا دامعين.. ولكنه صمت ولم يكمل أسئلته.. وانصرفت زينب باكية ومعها الأشعة.

ساعدت جدي على الاستلقاء فوق سريره.. وطلب مني أن أجلس معه وقال وهو يحاول أن يبتسم:

- كلنا ملاقو الله يا يحيى.. أتظن أن جدك سوف يُخلَّد؟!

ولم أستطع أن أرد، وأخذت أقبِّل يديه ولم أعلم ما الذي قلته له لكنه كان يمنعني عما أقول في توسُّل ثم في غضب.. ولما هدأ أراح ظهره على السرير وقال لي:

- أتظن أنني غائبٌ عن حالتي.. يا بني أنا أعلم ما بي خير منك ومن زينب ومن الطبيب نفسه.. لكل أجلٍ كتاب.. وأنا عشت ما عشت من الدنيا ولم أعد أطمع منها في شيء.. يكفي هذا يا بني.. بل يكفي ويزيد.. ولكنني لم أكن أريد أن أذهب وكلي قلق عليك هكذا.. أرجوك يا يحيى من أجل راحة جدك.. لا تنس شيئًا مما علمتك.. يومًا ما ستصل إلى كل ما ترجوه.

وعدت لأقبل يديه في حزن شديد.. وقبل نهاية الأسبوع الثاني صعدت روحه إلى بارئها فجرًا، وعندما ذهبت إلى المستشفى كانت زينب تجلس وحدها تبكي في الغرفة.

***

قالت ياسمينا وهي تشير بيدها ناحية منازل القرية التي بدأت تظهر أمامنا من بعيد:

- أهذه قرية الجبل؟

انتبهت على قولها ووجدتنا قد وصلنا تقريبًا فقلت لها:

- نعم، لا يوجد غيرها هنا بين الجبال.

فتابعت ياسمينا القيادة متجهة ناحية القرية، ورأت حزني البادي في عيني من أثر تذكري لجدي.. وخيم الصمت على روحينا رغم أننا كنا قد أتينا في بهجة. وأدركنا مدخل القرية الوحيد ووجهت ياسمينا حتى مجلس القرية جوار المقام. وكان المجلس مزدحمًا وقد اجتمع أهل القرية كلهم أمام الساحة الكبيرة الواقعة بين مجلس القرية وبين المقام.. ولمحت بعض الوجوه التي أعرفها من العاملين في وادي حبيبة.

أقبل علينا الشيخ ياسين فور أن رآنا وابتهج بشدة.. كان يرتدي عباءة سوداء تلمع وفوقها كوفية بيضاء مطرزة بخيط ذهبي رفيع.. احتضنني عندما اقترب ورحّب بياسمينا في تبجيل شديد.. ثم نادى على ولده يزيد وطلب منه أن يأخذ ياسمينا إلى حيث تمكث نسوة القرية.. فنظرت إليَّ ياسمينا في قلق فقلت:

- لا تقلقي.. سيجتمع الكل بعد صلاة العشاء هناك.

وكنت أشير إلى الساحة الواسعة وقد فُرشت أرضيتها بعشرات السجاجيد اليدوية التي ينسجها نساء القرية بأنفسهن، وتباع في سوق المدينة بالغردقة للسائحين.

ذهبت ياسمينا إلى حيث يمكث النساء، وجلست مع الرجال في المكان المعتاد.. وكان الكل يرحب ويبارك.. وبعد أن عاد يزيد قمت إليه وباركت له ثم وضعت في جيب صدبريته الجديدة اللامعة ظرفًا صغيرًا به مبلغٌ من النقود على سبيل المباركة.. فشكرني في امتنان شديدٍ ثم دعانا الشيخ ياسين إلى صلاة العشاء فقمنا جميعًا إلى المسجد جوارنا.

فور أن خرجنا ولم تكد أن تمضي دقائق قليلة حتى بدأ صوت الربابات والمزامير يعلو تدريجيًا وأضاء أحد الرجال المصابيح الملونة المعلقة على جدار المسجد أمام الساحة وقد جلبوا محولًا كبيرًا للكهرباء يستخدمونه خصيصًا لهذه المناسبات.. ثم رُصت عشرات المقاعد على شكل مُربع كبير في الساحة الواسعة وجلس الشيخ ياسين على رأس المكان وإلى جواره ولده يزيد، وأصر الشيخ ياسين أن أجلس إلى جوارهما، وقام أحد الرجال فأنشد على خلفية هادئة من موسيقى المزامير والربابات:

نبدأ فرحنا بالصلاة عالمصطفى . . صلو على خير الأنام المصطفى

حلو الكلام من القصايد كلها . . . يا زين قدره ما وفاه وما كفى

وارتفعت الأصوات كلها بالصلاة على النبي الحبيب ثم قام العازفون من ركن المكان وتقدموا إلى وسط الساحة وهم ما زالوا يعزفون وردد المنشد متابعًا:

قولوا لعروستنا القمر من ضيها . . . لولا الملام من الأحبة لاختفى

قولوا العريسنا ابن العرب زين الرجال . .. كرم العرب جمع القلوب وألَّف

ثم علت الآلات بالنداء على النسوة اللواتي كن قد أتين، وبدأ الجميع يصطف في مربع صغير داخل المربع الأول، وقام بعض الرجال بالوقوف في صف مقابل للنسوة اللواتي وقفن في صف مماثل.. ونظرت إليهن أبحث بعيني عن ياسمينا حتى وجدتها بصعوبة وسطهن وقد اجتمعن في أحد أضلاع المربع الذي رسمه أهل القرية بالمقاعد.. ووجدتها تبتسم في فرحة وقد وضعت على كتفيها شالًا طويلًا يبدو أن إحدى النساء قد منحته لها بسبب البرودة التي تحل مساءً في الجبل.

خـرج ثلاثـة أزواج مـن الرجـال متأبطـين بعضهـم بعضًـا في صف مستقيم، وبـدأوا يتحركـون في إيقـاع واحـد عـلى ضربـات الدفـوف، وتحـرك نفـس العـدد مـن النسـاء والتقـوا في منتصـف السـاحة تمامًا وأخـذوا يرقصـون جميعًـا في تناغـم رائـع عـلى صـوت المنشـد الـذي قـال:

يا زينة الليلة الليلة الليلة . . . والقمر ما هو عادي

زينة البنات يا الليلة . . . ربي احفظها ماالحسادِ

ثـم قـام بعـض الرجـال وهتفـوا في حمـاس وسـط زغاريـد النساء المتمايـلات رقصًـا:

لا نعادي ولا تعادينا . . . البسمة الحلوة تكفينا

نبني ونزرع في وادينا . . . وبنفدي اللي بيفدينا

ثم صاح كل من في العرس تقريبًا بصوت عالٍ:

لكن ما تخاف ما العادي

وعلـت المزامـير أكثـر وأكثـر وأخـذت النسـاء الراقصـات يـدرن حـول الرجـال في حلقـات كبـيرة أخـذت تضيـق تدريجيًّـا مـع حركـة الرجـال المصطفـين عـلى الجانبـين، ونظـرت إلى ياسـمينا مرة أخـرى فوجدتهـا تصفق مـع النسـوة في فرحـة وقـد تعلمـت كيـف تصفـق عـلى إيقـاع الدفـوف بانتظـام وهـي تخبـط عـلى كفيهـا بشـكل رأسي مثـل الجميـع، وكانـت تتمايل مـع موسـيقى المزامـير والربابـات بانتظـام حتـى أتقنـت الإيقـاع بسرعة شـديدة وأخـذت تلـوح لي أن انضـم إلى صفـوف الراقصـين فـأشرت لهـا مـن بعيـد معترضًـا.. ورغـم أننـي حـضرت تلـك الأعـراس عدة مـرات كـما حـضرت الكثـير مـن عـروض الدبكـة البدويـة في حفلات السـمر والتـي ينظمهـا الكامـب ضمـن أنشـطة السـافاري للسائحين،

إلا أنني لم أشعر بمثل تلك البهجة من قبل.. وعادت ياسمينا تلوح لي في إلحاح وقام يزيد من مجلسه جوارنا فجأة ودخل بدوره إلى حلقة الرقص، وكان يحمل خنجرًا في يده وأخذ دوره في حلقة الرقص وحيّا أهل القرية بيديه وردوا عليه بالصياح والوقوف، وزاد حماس المنشد أكثر فعاد ليقول:

يافارس الفرسان يا شرف العرب . . . ما أحلى السهر وحبيبك الزين اقترب

لا تستحي مالفرح وعدك تنتشى . . . لو تستحي مالفرح ولى أو هرب

ثم أخذ الرجال يدفعونه فيما بينهم وهو يدور حول نفسه فى مرح ويفي يرقص مع الرجال وحول النساء لفترة ثم عاد إلينا، وقبل أن يجلس قبَّل يد والده.. وعادت الصفوف والحلقات إلى نظامها بعد أن بعثرها قليلًا دخول يزيد إليها وخروجه منها.. ووجدت ياسمينا تتقدم بثقة وسط مجموعة من النسوة في حلقة جديدة للرقص مكان الحلقة الأولى، ونظرت إلى الشيخ ياسين فكان يبتسم وأشار إليَّ ولم أكن لأنتظره.. قمت أشاركها الرقص واتخذت موقعًا مقابلًا لها وانتظم الإيقاع من جديد متسقًا مع صوت الدفوف والربابات وأخذ الصفان يقتربان رويدًا رويدًا حتى صرت أمامها تمامًا.. وكانت عيناها تلمعان من الفرحة وقد كحلتهما عندما ذهبت مع النسوة بكحلٍ خفيفٍ زانهما وجعلهما أكثر اتساعًا وأشد إغواءً.

اقتربنا من بعضنا البعض وأخذت تدور حولى وتتمايل في خفة على الإيقاع وتتموج بجسدها مع الموسيقى ولم أدرِ كيف حفظَتْه بهذه السرعة وأتقنته حتى تناعمت حركتها مع حركته تمامًا.. وتابع المنشد صائحًا من خلفنا:

خف عني حمول ها الدنيا من الليلة . . . كل ما أبغاه في الدنيا تونسني

وكنت أحفظ بعض الأبيات وأردد معهم في فرح ولم أدر من أين أتيت أنا أيضًا بكل هذه القدرة على الرقص في تناغم ومهارة.. ولم أبعد عيني عن ياسمينا حتى إنها كلما درات حولي كنت أحرك راسي لأتابعها حتى تعود لتتمايل أمامي من جديد.. وبقينا على هذا الحال رقصة فرقصة حتى صرنا وحدنا نرقص في إحدى المرات.. ولما أنهى المنشد البيت الأخير في قصيدته عدنا إلى أماكننا وسط صيحات الرجال وزغاريد النساء.. وظل الكل في القرية على حاله وفي مكانه حتى جلست.. ثم عاد الرجال والنساء يشكلون مجموعات أخرى لرقصات جديدة.. وبعد أن انقضت حوالي ساعتين من الغناء والرقص نظرت إلى ساعتي متعمدًا أمام الشيخ ياسين كعادتي كلما وددت الانصراف فقال بصوت سمعته بصعوبة وسط الغناء:

- ليس قبل أن نكرمك ونكرم الضيفة.

وكان يشير إلى ياسمينا، وكنت أعلم أنه يقصد تناول الطعام كالعادة فألححت في الانصراف متعللًا بياسمينا وبالطريق.. وقبل أن يقسم عليَّ وعدته أن نعود مرة أخرى، وكنت أعرف أن ياسمينا ستحب المجيء إلى هنا ثانية.. وأصر أن يرافقنا حتى تحركت مع ياسمينا بالسيارة إلى الطريق المؤدي للممر الجبلي مرة أخرى.. وبمجرد أن تحركنا قالت في فرحة شديدة وهي تتلمس طريقنا وسط ظلام الجبل:

- لم أحضر في حياتي عُرسًا فيه كل هذه البهجة من قبل.. لماذا كنت ستحرمني من هذه الليلة الجميلة؟

قلت وأنا أنظر إليها وأتأملها في افتتان:

- لم أكن أعلم أنك تستطيعين الرقص بحرفية هكذا..

- الرقص غريزة في كل أنثى يا يحيى.. كما أنك أيضًا كنت ترقص بشكل رائع.

- أحفظ معظم الرقصات والأغاني هنا.. هذا جزء من يومي في الكامب، لكني لم أرقص من قبل.

- لا أصدقك..

وقبل أن أرد عليها لمحت أمامنا على يسار الطريق من بعيد أحد الملثمين في عباءة بيضاء.. وكانت ياسمينا تنظر إليَّ وهي تسألني فلم تلمحه، واختفى فجأة قبل أن تلاحظه عندما اعتدلت إلى الطريق.. وكانت تتابع:

- لم ترد عليَّ.. أنا لا أصدق أنك لم ترقص معهم من قبل.

فلم أرد وإنما رحت أنظر في مرآة السيارة الجانبية بعد أن مررنا جوار المكان الذي ظهر فيه الملثم منذ لحظات.. لكني لم أرَ شيئًا من شدة الظلام.. ولم أرد أن أخبر ياسمينا عنه كي لا تقلق دون داعٍ.. وظلَّت ياسمينا طوال الطريق إلى الكامب تحكي عن العُرس وعن النساء في القرية وقالت:

- أتصدق أن زوجة يزيد الأولى كانت ترقص معنا؟.. بل إنها من جلبت لي الكحل الذي وضعته حول عيني.

- العادات هنا مستقلة ومختلفة عن أي مكان آخر.. الانتماء للقبيلة أكثر من الانتماء للشخص.. هذا سر بقائهم طوال هذه السنين رغم غزو المدينة لمعظم الأماكن التي يعيش فيها البدو والعرب.

- هـذا حقيقـي.. لقـد كانـت ترقـص وسـط النسـاء وكأنـه عُرس ابنها أو أخيهـا ولبـس زوجهـا.

ثـم عـادت تحكـي عـن كل التفاصيـل التـي مـرت بهـا مـع النسوة حتـى وصلنـا إلى الكامب، وقبـل أن ندخـل إليـه طلبـت منهـا أن تكمل إلى المدينـة.. فلـم أرد أن تعـود في وقـت متأخـر كهـذا في الطريـق وحدهـا.. كما أننـي لم أكـن أرغـب في أن أدخـل الغرفـة في الكامـب وأصـير وحـدي من الآن.. كنـت أود أن أبقـى برفقتهـا لوقـتٍ أطـول وفرحـت ياسـمينا بشدة مـن طلبـي.. ثـم أخـذت تدنـدن طـوال الطريـق بعـض الأبيـات التـي كان المنشـد يشـدو بهـا وقـد حفظَـتْ بعضهـا.. وكنـت أصحـح لهـا مـا أذكره منهـا.. ثـم نعـود لننشـدها سـويًّا.

وصلنـا إلى النـزل الليبـي حيـث تسـكن.. ونظـرت إلى المبنـى الـذي تسـكنه ولم ألمـح الضـوء المعتـاد الخـارج مـن نافـذة غرفتهـا فقلـت لهـا:

- لقد نسيت وأغلقتِ ضوء غرفتك.

فردَّت:

- لم أعد أتركه مضاءً.

نظرت إليها في تساؤل فتابعت قائلة:

- لم أعد أشعر بالوحدة.

فابتسـمت لهـا وتركتهـا تمسـك يـدي قليـلًا حتـى اضطـرت إلى تركها لتقـوم بركـن السـيارة في الجـراج الخـاص بالنـزل.. ونزلنـا وتمشيت معها حتـى مدخـل المبنـى وسـألتني وهـي تنظـر إلى الحـارس النائـم كالعادة:

- ماذا ستفعل عندما تعود؟

- لا شيء جديد.. القهوة وبعض القراءة حتى يزورني النوم.

ونظرت هي إلى الحارس من جديد وقالت:

- تعال معي أعمل لك قهوة قبل أن تعود.

ابتسمت وقلت لها:

- شكرًا.. لا داعي.. لا أريد أن يراني أحد وأنا أدخل معك إلى الاستوديو.

- لا يوجد أحد.. وحتى لو رآنا أحد.. لا يهم.

وكانت تنظر إليَّ بعينيها الجميلتين بعد أن جعلهما الكحل أكثر فتنة حتى في الليل.. وحاولت أن أقاوم أكثر وقلت:

- لا داعي للمشاكل يا ياسمينا.. لا داعي.

فردَّت في استياء:

- رفضك هذا يسيء لي ولك.. اصعد معي يا يحيى أنت تعرفني وأنا أعرفك جيدًا.

وظلت تنظر إليَّ في توسل من جديد.. ولم أستطع أن أرد توسلها أو أردّ جمالَ عينيها.. فتحركت معها في سكونٍ.. وفور أن دخلنا إلى المصعد أمسكت يدي وشبكت أصابعها فيها وعندما دخلنا إليه وقبل أن نضيء النور قالت:

-لا تسخر من الاستوديو.. فلم أرتبه منذ قابلتك تقريبًا.

وبعد أن دخلنا سبقتني إلى الداخل وقامت برفع كومة كبيرة من الملابس كانت على المقعد الوحيد بالغرفة وألقتها على الفراش.. وجذبتني من يدي وقالت مشيرة إلى المقعد:

-اجلس هنا ولا تتحرك.

وذهبت مسرعة إلى ركن صغير فى جانب الغرفة ووضعت أسطوانة

في مشغل للموسيقى وبدأت «سيلين ديون» تشاركنا الجلسة وقالت ياسمينا:

- هذه الأغنية سمعتها أول مرة التقينا فيها في المارينا.

ثم اقتربت وهي تبتسم في رقة.. وقالت:

- سأعد لك أجمل فنجان قهوة في الغردقة كلها.

وانصرفت إلى ممر جانبي، قمت فورًا إلى النافذة الوحيدة بالغرفة وفتحتها ببطء شديد.. وكانت تطل على شارع النصر مباشرة ودخل منها هواءٌ خفيفٌ باردٌ. ونظرت عاليًا إلى السماء وكانت النجوم هناك مجتمعة في أعداد كبيرة واضحة وكأنها تنظر إليَّ في ترقب.. تركت النافذة وقبل أن أجلس على المقعد مرة أخرى أخذت عيني مجموعة من الكتب فوق طاولة صغيرة في ركن الغرفة.. وكان عنوان أحدها بارزًا فقرأته بسهولة وكان عنوانه «مبادئ لقراءة الهيروغليفية» فتعجبت.

اتجهت إلى الكتب أتفحصها فوجدت كتابًا آخر تحت عنوان «اللغة المصرية القديمة والدولة الحديثة».. ثم عدد آخر من الكتب كلها عن اللغات المصرية القديمة وطرق لتعلم قراءتها.. وكنت أعرف معظمها بحكم عملي ودراستي السابقين.. وجاء صوت ياسمينا من الداخل سائلًا:

- ملعقة واحدة سكر يا يحيى؟

لم أردّ، وكنت أحاول أن أفهم ما الذي يجعلها تقتني مثل هذه الكتب وكل هذا العدد.. وجاءت وهي ممسكة بعلبة السكر في يدها وقبل أن تتكلم نظرت إلى الكتاب في يدي وبدت المفاجأة والارتباك على وجهها.. فازداد شكي في وجود ما يريب فسألتها:

- ماذا تفعلين بهذه الكتب؟

لم ترد، وإنما ظلت جامدة في مكانها.. فعدت أسأل:

- لماذا تحاولين أن تتعلمي الهيروغليفية؟

لم تـرد أيضًـا فوضعـت الكتـب عـلى الطاولـة.. ورحـت أنظـر لهـا في صمـتٍ وسـألتها سـؤالًا أخـيرًا:

- أنتِ لست هنا في إجازة.. أليس كذلك؟

ولـما ظلـت صامتـة أيضًـا قمـت إلى البـاب لأنـصرف.. فحاولـت أن تمنعنـي وتجذبنـي مـن يـدي فدفعتهـا في قسـوة وقلـت: «كاذبـة!»

وعـدت إلى الكامـب مبـاشرة وكنـت لا أفهـم شـيئًا مـم جـرى.. وعندما دخلـت الغرفـة نزعـت رابطـة العنـق التـي منحتنـي إياهـا ياسـمينا وألقيتهـا أرضًـا.. واسـتعدت كل مـا مـرَّ بي مـع ميريـت. ثـم اسـتدرت ناظـرًا إلى زينـب الراقـدة في سـكون خلفـي في المـرآة وقلـت مخاطبًـا وجههـا السـاكن في المـرآة: «لقـد قلـتِ لي لا تحـزن.. لكننـي حزيـن منـذ يومهـا يـا زينـب.. أنا حزيـن ووحيـد يـا زينـب»

***

فاجأنـا والـداي وعـادا إلى مـصر لحضـور جنـازة جـدي سـليم.. وكانـت أيامًـا حزينـة ثقيلـة عـلى قلبـي لم أتجاوزهـا بسـهولة وكل ركـن في البيـت كان ينطـق بصوتـه.. وفاجـأني حـزن والـدي الـذي بـدا صادقًـا رغـم هجـره الطويـل لنـا وزياراتـه المعـدودة منـذ سـافر إلى العمـل في الخليـج.. وكانـت عيناه في العـزاء تنطقـان بإحسـاس قـوي بالتقصـير والذنـب في حـق جدي. وكانـت أكثرنـا حزنًـا بالطبـع هـي زينـب.. وفي البيـت جلسـنا جميعًـا نترحم على ذكـراه الطيبـة.. وقـد فاجأنـا عـدد المواسـين في العـزاء الـذي أقمنـاه في

مسجد السيدة زينب.. ثم عدنا جميعًا بعدها إلى البيت.. وأصرت أمي أن تبيت زينب وأمها معنا.. فلم تمانعا.

جلسنا في الصالة التي طالما جلست فيها مع جدي يحكي لي سِيَر الأولين والنوادر من قصص الغزاة والفاتحين في تاريخ مصر. وشهدت سهراتنا سويًا وشرب القهوة حتى الفجر وسماع الأغاني القديمة على الجرامافون الأثري الذي كان يملكه. وطالما كانت زينب ثالثتنا في تلك السهرات إلى أن تركتنا وأمها بعد امتحاناتي في الثانوية العامة.. وأخذت ذكرياتي معها تعصف بي خاصة عندما جلست زينب قبالتي على الكنبة التي اعتاد جدي الجلوس عليها.. وفور رؤيتي لها في تلك الصورة اشتقت إلى قهوتنا بشدة.. ولم أجد تحرجًا في أن أطلبها منها.. فالبيت بينها مهما حدث، على الأقل بالنسبة لي كان الأمر دائمًا كذلك.. وربما تعمدت فعل ذلك أمام أمي التي لم يبدُ أنها لاحظت شيئًا.. وجاءتني اتصالات عديدة من ميريت لم أرد عليها ثم أرسلت لي رسالة تعزيني فيها لوفاة جدي وتطلب مقابلتي في إلحاح.. ونادت عليَّ زينب من المطبخ مستفسرة عن شيء لم أسمعه فقمت إليها ورسالة ميريت ما زالت مفتوحة على الهاتف في يدي.. ولما ذهبت إليها سألتني من بين دموعها عن مكان البن الذي كان يخبئه جدي.. فأشرت إلى مكانه وأنا أحدِّق في عيني زينب.. وأحسست وقتها كم صرنا وحيدين في هذه الدنيا من بعده.. وجذبتها إلى حضني وصرنا نبكي سويًا في صمت.

وبعد مرور شهرٍ واحدٍ على وفاة جدي تقدمت إلى والدة زينب طالبًا الزواج. فوافقت على الفور وردت زينب بابتسامتها الصامتة المعتادة منذ صرنا نلتقي مؤخرًا.. ولم أخبر والداي بشيء إلا قبل إعلان الخطبة رسميًا بيومين.

جاءتني مكالمة طويلة من أمي لم تخلُ من الصياح واللوم.. فاستمعت إليها في صبر طويل حتى أنهت كل ما كنت أعرف أنها ستقوله.. ثم أكمل أبي المكالمة معي مباركًا ومهنئًا.. وأخبرته أن الزواج سيكون في خلال شهرين وفور أن أنتهي من بعض التجهيزات القليلة في شقة عابدين. وأكّد عليَّ أنه سيحضر العرس مهما كانت ظروف عمله. وكان زفافنا متواضعًا. حضر عدد قليل جدًّا ممن تبقى لنا من أقرباء.. وعزمت زينب بضع زميلات لها. ولم أدعُ سوى زميلين لي بالجامعة إضافة إلى سباستيان وقد خشيت أن يغضب إن لم أقم بدعوته.. وفاجأني والداي للمرة الثانية بقدومهما من الخارج وكان ذلك من أجلي فقط تلك المرة.

وكانت أمي جامدة الوجه وصامتة لا تتحدث مع أحد ولم يكن وجهها الغاضب الذي أعرفه دائمًا.. كان به قلق لم أعهده.. قلت لها وهي ترتب غرفة نومنا الجديدة في ليلة الزفاف:

- أستظلين غاضبة هكذا؟ حتى في فرح ابنك الوحيد؟

ردت في يأس لم أعهده على وجهها أبدًا:

- لست غاضبة منك يا يحيى.

- ماذا إذًا؟ لماذا كل هذا الحزن؟

- لأني خائفة يا بني.. خائفة.

- ولم الخوف؟ زينب طيبة يا أمي وأنت تعرفين ذلك جيدًا.. لقد كنتِ تحبينها وهي طفلة.. ما الذي حدث؟

- ومن قال لك إني خائفة من زينب؟

- مم تخافين إذًا؟

صمتت قليلًا وبدا أنها لن ترد ثم وضعت ما في يديها من ملابس على الفراش وقالت في حزن:

- أنا خائفة على زينب.. خائفة عليها يا ولدي ولست خائفة منها.

- خائفة عليها؟ ممن؟

- منك.. أنت ابني وأنا أعرفك جيدًا حتى وإن كنت غائبة عنك طيلة هذه السنوات.. زينب لن تملأ عينيك ولا ذنب لها في ذلك.. سامحه الله جدك هو الذي وضعها في رأسك.

صدمني كلام أمي ولم أدرِ أتعنني ما تقول أم إنها تتعمد مضايقتي فقط لأنني سأتزوج زينب على غير رغبتها؟ ومتى صارت أمي تخاف على زينب وتحمل همها وهي التي لم تحمل همي أنا؟ أم أن غضبها الدائم من وجود زينب قد ذهب بعد أن استردها أبي منذ أعوام؟ وكيف لأمي أن تعرف ما في نفسي وتدَّعي أنها تعرفني جيدًا وأنا الذي لم أعرف نفسي بعد؟!

ضايقني كلامها وبدا أنها أفلحت في تكدير فرحتي البسيطة بالزواج من زينب.. إلا أنني وبعد بضعة أشهرٍ من الزواج أدركت كم كانت محقة في كلامها وفي خوفها.

رفضت زينب السفر لقضاء شهر العسل بعد الزواج مباشرة واقترحت أن نؤجله بعد تجاوز الامتحانات الخاصة بالماجيستير والتي كانت قد اقتربت.. ودخل روتين الزواج القاتل إلى بيتنا بشكل سريع لم أتخيله.. وكنت قد ظننت أن ميريت قد ذهبت من حياتي إلى الأبد.. إلا أن أثرها عليَّ لم يكن قد ذهب.

كانـت زينـب تراهـا في عينـي وفي شرودي طـوال الوقـت.. وصرت إنسـانًا شـديد الكآبـة غارقًـا في الصمـت مفرطًـا في الشرود الطويـل.. ثـم صرت أتأخـر في العمـل لأتفـه سـبب، غـير راغـب في العـودة إلى المنـزل.. وكنت أبحـث عـن زينـب الصغـيرة في أركان البيـت فـلا أجدهـا.. لكنـي أصطـدم بزينـب الزوجـة.. زينـب الصامتـة دائـمًا.. الناظـرة إليّ في لـوم طويـل يعـرف كلانـا معنـاه ولا يجـرؤ عـلى الحديـث عنـه.. وخفـت أن تحتل ميريـت المنـزل أكثـر مـن ذلـك.. فـصرت أتسـكع ليـلًا عـلى المقاهـي في وسـط البلـد مـع سباسـتيان مـرة أخـرى.. خاصـة بعدمـا علمـت أن ميريـت سـافرت في إجـازة إلى بـيروت منـذ أشـهر.. وأحسسـت براحـة كبيرة عندمـا علمـت أنهـا خـارج مـصر. خاصـة عندمـا أصبـح وجههـا يطاردني مؤخـرا في كل مـكان.. وأحسسـت بالخـوف مـن نفـسي للمـرة الأولى في حيـاتي.. ولـما وجـدت مـا في نفـسي مـن إحسـاس بالراحـة مـن كـون ميريـت بعيـدة.. اكتشـفت أني شـخصٌ جبـانٌ أخشـى المواجهـة وأتعمـد الهـرب منهـا دومًـا.. لكنـي تقبلـت أن أتعامـل مـع صفـة الجبـن بديـلًا أقـل سـوءًا مـن الخيانـة.. ولم أكـن لأسـامح نفـسي لـو عـدتُ إلى ميريـت وخنـت زينـب.

ظلـت المسـافة تتباعـد بـين زينـب وبينـي يومًـا بعـد يـوم.. وصـار كلامنـا شِـبه منعـدم وانخرطـت هـي في عملهـا بالتدريـس. ورحـت أنـا أتنقـل الأيـام بـين الجامعـة والماجيسـتير والمقهـى مسـاء مـع سباسـتيان ورفقـاء جـدد لا أعرفهـم ولا أعـرف أسماءهم ولا مـاذا يعملـون.. ولم أعـد أذكـر متى وأيـن تعارفنـا.. لكنـي كنـت أقـضي الوقـت بصحبتهـم بشـكل شِـبه يومـي بعـد انتهـاء الجامعـة والكورسـات الخاصـة.. وأحيانًـا أخـرى كنـت أمـر عـلى سباسـتيان في الجريـدة.

انتهت مناقشة الرسالة بنجاح وصرت على مشارف حلم التدريس كما تمنيت دومًا.. وكما تمنى لي جدي سليم رحمه الله.. وافتقدته كثيرًا أثناء المناقشة الخاصة بالرسالة.

لكنني كنت أراه طوال الوقت في عيني زينب الفرحتين في صدق طوال المناقشة.. ورغم الجمود الذي كان بيننا.. إلا أنني كنت أشعر بالفخر كلما نظرت إليها في المناقشة.. وبعد إعلاني رسميًّا حاصلًا على شهادة الماجيستير وبعد تلقي المباركات.. عرض عليَّ سباستيان القدوم مساء إلى شلة المقهى وقد اعتزموا تنظيم حفل صغير لي احتفالًا بحصولي على الرسالة.. وعرضت على زينب بشكل عابر أن تأتي معي إن أرادت.. لكنها اعتذرت في رفقٍ وعرضت هي عليَّ الخروج مساء للاحتفال وحدنا إن أردت.. فقلت في غير نية حقيقية للذهاب:

-لا أمانع.. إذا سمح الوقت.

وفي مقهى البستان بأحد الممرات العتيقة بوسط البلد كانت تنتظرني مفاجأتان أعدهما سباستيان.. الأولى كانت احتفالًا مسليًا نظمه مع إحدى زميلاته في الجريدة والتي كانت من المداومات على الحضور معه إلى القهوة مع صديقين آخرين..

أحضروا كعكة صغيرة وبعض الهدايا التذكارية احتفاء بي.. أما المفاجأة الثانية فكانت ميريت التي فاجأتني وسط الموجودين.. ووجدتها أمامي على نفس المنضدة.. وكانت تبتسم في رقة وتلمع عيناها الجميلتان في مكر.

مدت يدها الناعمة في سلام جاهدت ألا يكون حارًا.. وكانت يدها باردة بشدة وأبعدت عيني عنها ناظرًا إلى سباستيان في استفهام..

نـاذا بـه يبتسـم في بلاهـة كعادتـه.. وهـز كتفيـه ومـط فمـه معلنًـا أنـه لم يكـن يعلـم بقدومهـا.

لكنـي لم أستطع أن أمنـع نظـرة اللـوم الحـادة التي رمقته بهـا.. ميريت لم تقرأ الغيـب وتعـرف عـن وجـودي هنـا اليـوم مـن نفسـها بالتأكيـد.. وترددت في اتخـاذ قـراري بالرحيـل أو البقـاء.. لكـن توتـري البائـن وارتعاشـة يـدي بعـد سـلامي عليهـا أنـذراني بـضرورة الرحيـل، وأخـذت افكر في حجـة أقـوم بهـا مـن المقهـى دون أن أتسـبب في إحراجهـم.. خاصة وأن التجمـع الليلـة كان معـدًا خصيصًـا للاحتفـاء بي. مـدت ميريـت يدهـا بعلبـة قطيفـة صغـيرة الحجـم وقالـت:

- ألف مبروك يا دكتور يحيى.

وعـادت تبتسـم ابتسـامتها القديمـة.. وتنظـر في ولـهٍ وكأننـا كنـا سـويًّا بالأمـس.. تناولـت الهديـة مـن يدهـا مجـبرًا وشـكرتها ولم أقـم بفتـح الهديـة إلا أنهـا أشـارت إليَّ أن أفعـل دون أن تتكلـم.. وتعجبـت مـن طريقتهـا هذه..

أعـدت النظـر إلى وجـه ميريـت وكانـت دقـات قلبي قـد انتظمـت وهدأ انفعـالي مـن مفاجـأة رؤيتهـا بهـذه الطريقـة.. كانـت تضـع الكثـير جـدًّا مـن مسـاحيق التجميـل عـلى وجههـا وطـلاء شـفتيها شـديد القتامـة يشـعرك أنهـا ندميـان.. وأخـذت أنظـر إلى عينيهـا الجميلتـين اللامعتـين.. ثـم أنظـر ثانيـة إلى ملابسـها المثـيرة الملفتـة وصدرهـا البـارز المكشـوف.. ثـم أعـاود النظـر إلى وجههـا وأصابعـه الكثـيرة مـرة أخـرى وقلـت في سري: «لم كل هـذا؟ كنـت جميلـة دون تجمـل».. ووجدتهـا تحـدق في عينـي باسـتغراب شـديد.. وتسـبل جفنيهـا بطريقـة قصـدت أن تجعلهـا مثـيرة.. لكنـي وجدتهـا مبتذلـة بشـدة.. ثـم أرحـت ظهـري عـلى مقعـد المقهـى وأشرت إلى صبـي المقهـى وطلبـت قهـوة مركـزة.. وقبـل أن يذهـب قلـت لهـا:

- أطلب لك قهوة معي؟

وكنت ابتسم بطريقة لم تفهمها وقد أربكها سؤالي الذي خرج هادئا تمامًا.. وشكرتني في غير ودٍّ.. ثم عدت أتأملها من جديد.. ولم أستوعب كيف ذهبت ميريت الجميلة من العالم الواقعي فجأة هكذا لتستقر فقط في ذاكرتي.. تاركة أمامي هذا المسخ الملوَّن المبتذل.. أم أن ميريت الجميلة كانت مجرد وهم ولم تكن واقعًا أبدا وما أراه أمامي الآن هو الواقع الوحيد. ولم تكن الابتسامة تفارق وجهي طوال الجلسة.. وكنت أمزح معهم واضحك وأسخر من كل واحد فيهم وأتحدث مع ميريت بعفوية شديدة وكأنها زميل عمل قديم.. أو كأنها أحد زبائن المقهى الغرباء.. وكان ارتباك ميريت يزداد كل دقيقة وقد أحست أنها لا تفهمني بعد أن بطل مفعول سحرها المزيف فجأة؟.. أو أنها خافت مم قد فهمته.. وقد علمَتْ أنها انتهت فعلًا بالنسبة لي.. بينما كان الأمر مسل جدا طوال الجلسة.. وأخذت أتعامل مع الجلسة الطويلة وكأنها لعبة ممتعة.. وإن كان في الأمر بعض من التشفي الذي لم أنكره أمام نفسي.. ولا أعلم لم أحسست فجأة برغبة شديدة القوة في العودة إلى المنزل.. ولولا ذلك لبقيت أمارس لعبتي المسلية هذه طوال الليل رغم القهوة شديدة السوء التي كان يقدِّمها المكان.. وعندما استأذنت منهم وأشرت إليها بيدي مودعًا كانت ابتسامة جديدة على وجهي ولم أعرفها من قبل.. وانصرفت إلى الممر الجانبي المؤدي لشارع طلعت حرب وأمام مقهى ريش وقفت أشير إلى سيارة للأجرة وجاء صوت ميريت من خلفي وكانت ممسكة بالعلبة القطيفة التي كنت قد تركتها على الطاولة وقالت:

-على الأقل افتحها.

فقلت لها:

- ليس لدي أي فضول لمعرفة ما فيها.

فقامت هي بفتحها وأخرجت منها ميدالية لأحد التماثيل الفرعونية وكان له رأس طويل مدبب وأذنان شديدتا الطول، وقالت:

- ظننتها سوف تعجبك.. قال لي صاحب البازار أنه إله العاصفة القوي عند القدماء.

لم أستطع أنه أمنع نفسي من الابتسام وقلت لها:

- أنتِ أول شخص أعرفه يشتري ميدالية للإله «ست» كهدية لأحدهم.. كلمة «إله العاصفة» هذه بديل مهذب جدًّا يا ميريت نستخدمه فقط مع السائحين.. «ست» عند المصريين هو إله الشر.

وضحكت مرغمًا ودون قصد حقيقي للسخرية منها.. وتركت الميدالية في يدها وركبت سيارة الأجرة التي توقف صاحبها أمامنا وقد جذبه بالطبع جسد ميريت المثير واتجهت مباشرة إلى المنزل.

عند دخولي كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء.. ووجدت زينب تنظر إليَّ متعجبة من قدومي مبكرًا وقد ظنت أنني سوف أغيب عنها كالمعتاد.. وظللت أنظر إليها وكأنني أراها للمرة الأولى.. وقلت:

- ارتدي ملابسك سريعًا سوف نخرج سويًّا.

ولم تصدق هي ما سمعت وابتسمت وأضاءت ابتسامتها الواسعة منزلنا الكئيب دومًا.. وكنت أبتسم لها أيضًا في صدق.. وقالت ونحن خارجان:

- ماذا بك.. تبدو غريبًا.

ولم أرد.. نزلنا إلى شارع الشيخ ريحان وكان مزدحمًا كالمعتاد.. وأشرت إلى سيارة أجرة وسألت زينب:

- إلى أين تحبين الذهاب؟

- لا أعرف.. أنت غريب حقًا.. قل لي ماذا حدث لك؟

فأعدت السؤال، وكنت أضحك هذه المرة وسائق السيارة ينظر إلينا متعجبًا فأخذت زينب تفكر وقالت مرة أخرى:

- لا أعرف.. قل أنت.

فسألتها:

-ما هو أكثر مكان تريدين الذهاب إليه؟

فقالت:

- نفسي أعمل عمرة.

وأخذت تضحك وضحكت أنا أيضًا بصوت عالٍ وخُيِّل إليَّ أن السائق أطلق سبة لم أسمعها وانصرف مسرعًا.. وغرقنا أنا وزينب في نوبة ضحك شديدة ثم أعدت سؤالها لكن بجدية فأجابت:

- نروح الحسين.. شارع المعز.

فوافقت على الفور.. وتحركنا إلى شارع بورسعيد مشيًا وكان المنزل قريبًا منه ثم عبرنا الشارع إلى الناحية المقابلة وأشرت لأول سيارة أجرة لمحتها.. ودخلنا إليها وقال السائق :

- هل اتفقتما أخيرًا؟

وفوجئت بأنها نفس السيارة التي أوقفناها منذ دقائق.. فقلت في أدبٍ وكأني أعتذر:

- الحسين بإذن الله.

وكتمت ضحكتي بصعوبة.

كان المكان مزدحمًا بشدة عندما وصلنا والناس تتخبط في بعضها البعض وسألتني زينب:

- ألن تخبرني ماذا حدث لك اليوم؟

ولم أرد، وكنت أحاول أن أعبر بها وسط الحشود الكثيرة التي لم أكن أتخيل وجودها في هذا التوقيت.. وأحسست كأنني والد لطفلة صغيرة يحاول أن يحميها من التيه وسط كل هؤلاء البشر.. بينما كانت زينب منكمشة في ذراعي تستمتع في نفس الوقت بالمكان.. وكل دقيقة كانت تشير إلى مقهى أو بازار وتطلب أن تدخله.. لكني كنت أتابع في رفض وأقول:

-اصبري.. عندي لك مكان سيعجبك.

فتزوم بشفتيها في طفولة.. وظللنا نحارب الزحام حتى هدأ أخيرًا عندما وصلنا إلى عطفة يبدأ عندها مسجد شديد الجمال سألتني عنه زينب فقلت لها:

-إن هذا هو الجامع الأقمر

وسألتني:

- لماذا اسمه الأقمر؟ ما معناه؟

- حسب الكتب فالأمر عليه جدال.. أما ما أخبرني به جدي رحمه الله فالسبب هو نوع الأحجار البيضاء التي شيد منها، وقديمًا كان انعكاس ضوء القمر عليها يجعل المكان كله قطعة جميلة من نور.

ثم ابتسمت متابعًا:

- والعهدة على جدي.

فقالت زينب:

- أريد أن آخذ صورة أمامه.

وكانت الإضاءة لا تساعد على التقاط صورة واضحة بالهاتف الذي كنت أحمله وقتها إلا أنها ألحّت عليّ، وأخذت أحاول أن ألتقط لها عددًا كبيرًا من الصور ربما تكون إحداهن واضحة.. ومر جوارنا رجل عجوز يدفع عربة صغيرة بيدية أمامه وقد حمل عليها عددًا من الطرابيش الطوبية.. فطلبَتْ منه زينب أن يلتقط لنا صورة سويًا وأضعت وقتًا كبيرًا أشرح له كيفية التقاط الصورة بالهاتف.. وبطفولتنا التي عادت إليها اليوم فقط، ابتاعت زينب أحد الطرابيش منه وأخذت تتصور به أمام سور المسجد وعلى الرصيف الحجري المقابل.

عدنا نتمشى سويًا في شارع المعز وسألت زينب عن المكان الذي أبحث عنه وكنا قد وصلنا تقريبًا.. وكان الزحام شديدًا.. ربما أكثر من ذلك الذي كان عند ساحة مسجد الحسين.. وقلت لها:

-هذا هو بيت السحيمي.

وكانت إحدى فرق المولوية في أحد عروضها بالداخل وبدا أنها سبب هذا الزحام الشديد.. فقالت بقلق::

- أتاتِ إلى هنا كثيرًا؟

- لا.. مرات قليلة.. كان لي صديق يعمل إداريًا في هذا المكان فكنت أزوره أحيانًا.

فنظرت في عدم تصديق لكني ابتسمت وقلت:

-أتشكين في يا زينب؟

لكنها لم ترد على سؤالي.. وجاهدت في صعوبة كي ندخل وسط

هذا الزحام الشديد أمام الباب رغم تأخر الوقت.. وتسللت معها بصعوبة من أحد الأبواب الجانبية التي كنت أعرفها.. وردت زينب بصوت مسموع «مرات قليلة؟!» فابتسمت وأمسكت يدها داخلين إلى القاعة المزدحمة والتي كان العرض قد بدأ فيها.. ولم أعد أستطيع أن أسمع أسئلة زينب الكثيرة عن المكان من ارتفاع صوت الفرقة المؤدية.. وكل ما كان يشغلني هو الزحام الشديد ومحاولاتي المستميتة لمنع أيٍّ من الواقفين من الاحتكاك بجسدها وسط هذا الصخب، حتى صرنا ملتصقين تمامًا ويدها في يدي واندمجنا مع العرض وموسيقاه الرائعة، وكانت الفرقة تنشد «أكاد من فرط الجمال أذوب» على رقصات التنورة.. ولا يوجد مكان لقدم.. وبدأت زينب بعد اندماج طويل في القصيدة تضغط على يدي برفق كل فترة ثم بقوة شديدة وغاصت بجسدها كله تحت ذراعي.. فطوقتها بكلتا يدي وبدا كأن العازفين والمنشدين والراقصين جميعهم يقدِّمون العرض لنا وحدنا.. والتفتُّ إلى زينب وكانت عيناها دامعتين والمنشدون يرددون مجتمعين في صوتٍ واحدٍ:

«شاقني وجدي وحبك مطلبٌ.. من شاقه حب الجمال يصيب»

وكان راقصو التنورة يدورون في وجد حولنا ويأخذونني مع زينب إلى أماكن لم نطأها من قبل.. وخرجنا متأخرين بعد أن انتهى العرض وكانت زينب متعلقة في ذراعي بقوة وتدمع عيناها كل فترة حتى وقفنا أمام بازار صغير يكاد صاحبه أن يغلقه وكان يضع عددًا من التحف والجرامافونات القديمة أمام واجهته في الشارع واستوقفتني زينب وسألت صاحبه إن كان يبيع أسطونات جرامافون فردَّ بالإيجاب.. وطلبت زينب أن أنتظرها بالخارج وغابت داخل البازار لدقائق قليلة ثم خرجت وكان معها أسطوانة لأسمهان.. ثم تحركنا عائدين إلى

البيت.. ووجدتني قد اشتقتها.. وفور دخولنا انهلت عليها تقبيلًا فقابلتني بقُبلٍ أكثر سخونة وانفرط حبل جموحنا تلك الليلة حتى صرنا نكتشف ما في أجسادنا من غريزة كامنة للمرة الأولى، وكان عطشي إليها شديد فكانت تسقيني في كرمٍ حتى أنهكنا جسدينا بشكل بالغ، وفور أن هاجمتني ذكرى قُبلتها الأولى لي في الشرفة منذ سنوات وجدتني أطلب جسدها مرة أخرى فأقبلت ملبية في شوق.

انقلبت حياتي وزينب في ليلة واحدة فصرت شخصًا جديدًا لم أعرفه من قبل وعادت إليَّ زينب كاملة كما عرفتها قديمًا.. وصرت لا أصبر على الابتعاد عنها كثيرًا وأعود إليها في لهفة متجددة كل يوم.. ووجدتني قد وقعت في حب زوجتي بعد أكثر من عامٍ من الحياة الرتيبة الجافة.. وأخذ وجهها يضيء نورًا وجمالًا ويزداد بريق عينيها حتى صارت روحها تضيء المنزل من جديد بعد أن استقرت فيه الكآبة لأعوام طويلة.. ولم أدرِ كيف كنت غبيًّا ومغيبًا كل هذه السنوات الحزينة؟

في إحدى الليالي الطويلة من ليالينا الشبقة قلت لها بعد أن انتهينا أنه يجب أن نبدأ في التفكير بالإنجاب.. ووجدتها قد ارتبكت قليلًا ولما سألتها عن سبب ذلك قالت:

- أرجو أن تسامحني.. عندما تزوجنا كنت أشعر أنك لم تكن لي أبدًا.. وكنت أتناول أدوية لمنع الحمل.. فلم أكن أعلم إلى أين ستذهب بنا في هذا الزواج.

ولما وجدتها تحاول الاعتذار مرة أخرى عن ذنبٍ لم يكن يخصها من البداية، تناولت يدها وقبلتها وسألتها المغفرة.. وقد تفاجأت أنني لم أسأل نفسي من قبل لماذا تأخر موضوع الإنجاب هذا.. فاكتشفت أنني لم أكن أفكر فيه من قبل.. وقد كنت بالفعل مغيبًا عن حياتي

الحقيقية.. وعن كل ما هو رائع بين يدي.. وأخبرتني أنها توقفت عن تناول هذه الأدوية منذ شهرين تقريبًا.. فاقترحت أن نذهب إلى زيارة الطبيب ولو بشكل روتيني فوافقت.

أخبرنا الطبيب بعد كشف عادي أنه لا توجد أي مشاكل ظاهرية، وطلب منا بعض الاختبارات العامة لي ولها وإعادة المرور بعد أسبوعين.. وبدأنا نفكر أنا وزينب ونتحدث في موضوع الإنجاب بشكل مستمر، وقالت إنها تتمنى لو تنجب بنتًا.

أخذ الطبيب في زيارتنا التالية يتفحص النتائج الخاصة بتحاليل زينب لفترة طويلة وبدأ القلق يغزو وجهه.. ثم أخذ يسأل زينب عددًا كبيرًا من الأسئلة الغريبة ولم تكن لها أي علاقة بموضوع الإنجاب.. ثم استأذنها أن تنتظرنا في الخارج للانفراد بي.. وقال في لمحة بها نوع من المواساة:

- هناك ارتفاع مخيف في عدد كرات الدم البيضاء.. أنصحك بالتوجه لمختص في أمراض الدم فورًا.. الآن لو تستطيع.

سألته وقد كنت لا أفهم أي شيء مما يقول:

- أتعني أن هناك مرضًا ما بالدم يسبِّب عدم القدرة على الإنجاب؟

فردَّ في نفس الأسى:

- لا علاقة لموضوع الإنجاب هنا بما أقول.. المشكلة أكبر من ذلك بكثير.. طبقًا لهذه التحاليل والفحص المبدئي.. قد يكون هناك أورام حادة بالدم.. الموضوع ليس في نطاق اختصاصي بالمرة.. لا بُد من اختصاصي لأمراض الدم فورًا.. وكذلك إعادة التحاليل.. وأضف عليها ما سأطلبه منك.. لكن إن كانت هذه النتائج حقيقية فالأمر غير مبشِّر.. أرجو من الله أن يكون ظني خاطئًا..

ثـم صمـت ولم أسـتطع أن أسـتوعب منـه مـا يقـول، وحاولـت أن أستفسر أكثـر لكنـه أكّـد عـلى أن زيـارة طبيـب أمـراض الـدم هـي التصرف الوحيـد السـليم حاليًـا.... ورشـح لي عـددًا كبـيرًا مـن زملائـه.. وخرجت إلى زينـب ووجهـي يتحـدث وحـده عـن كل شيء. وكل مـا استطعت قولـه لهـا أن الطبيـب وجـد شـيئًا غريبًـا في الفحوصـات لم يسـتطع تفسيره.. فانكمشـت زينـب في نفسـها وعلمـت أننـي أخفـي عنهـا شيئًا كبيرًا.. وتوجهنـا إلى عيـادة أقـرب طبيـب لأمـراض الـدم.. وفـور اطلاعـه على الفحوصـات التـي كانـت معنـا رفـض أن يعلـن أي تشـخيص ولـو كان مبدئيًـا إلا بعـد عمـل عـدد كبير مـن التحاليـل والأشـعة التـي مـلأت الروشـتة التـي أعطاهـا لنـا.. ولم تعـد زينـب إلى أي مـن الأسـئلة الكثيرة التـي كانـت تقتلهـا.. لكنهـا التزمـت الصمـت التـام وظلـت تمسك يـدي في خـوفٍ شـديدٍ، وكنـت أتعلـق بيدهـا وقـد تهـت تمامًـا.. وعندما دخلنا إلى البيـت هربـت إلى الحـمام سريعًـا ورحـت في نوبـة بـكاء لم تنتـهِ أبدًا.

وانتهـى بنـا الأمـر بعـد سـتة أشـهر مـن العـلاج الكيميائـي والإشـعاعي والفحوصـات والمزيـد مـن الفحوصـات إلى جسـد ممتـص هزيـل ذبـل كل مـا كان فيـه مـن محبـة وحيـاة.. وفي تلـك الليلـة السـوداء كانـت زينـب ترقد جـواري وقـد استسـلمت لمصيرهـا، واستسـلمت أنـا ليـأسي ودموعي، وقالـت وهـي ممسـكة يـدي في ضعـفٍ شـديدٍ: «لا تحـزن».. فكنت أقبّل يديهـا وقدميهـا وأبكـي كطفـل تائـه ووحيـد، وكان عجـزي يقتلني وقد اقتـصر دعائـي أن تنـام دون الألم اليومـي الـشرس الـذي يهاجمها ويقتلني جوارهـا.. وقالـت وقـد بـدأت عيناهـا تغيبـان في استسـلام للنـوم:

-ماذا كانت تقول تلك الأغنية في الحسين؟

وحاولت أن أتذكر وقلت باكيًا:

- كانت تحكي عن جمالك يا زينب.

لكني لمحت انعكاس وجهها الذابل في المرآة وقد راحت في نوم هادئ أخيرًا فحمدت الله كثيرًا، ثم احتضنتها برفقٍ شديدٍ ونمتُ إلى جوارها من فرط إرهاقي الطويل.

جاءني جدي سليم في نومي وكان وجهه مضيئًا تملأه ابتسامته الطيبة وكان يشير بإحدى يديه في بطء وهو يقول مكررًا: «لا تحزن.. لا تحزن».. وفُقت من النوم على برودة شديدة في جسد زينب بين ذراعي.. وكان انعكاسها ما زال أمامي في المرآة وقد غادره الشحوب الأخير إلى الأبد.. وبرزت عروقٌ رفيعة وسط بياضه الجديد. وخفت أن انظر إليها مباشرة جواري، وبقيت أراقب وجهها الساكن في المرآة وأبكي في صمتٍ ثم خانني صوتي وعلا نحيبي وهززتها في عنفٍ مناديًا عليها، وكانت قد رحلت نهائيًّا وبقيت وحدي مع حزني ووحدتي إلى الأبد.

في العزاء الصغير كان سباستيان هو آخر الراحلين من البيت.. وودت ألا يرحل ويتركني وحدي في الشقة ولم أعرف كيف أطلب ذلك منه.. ورحل الجميع وصرت وحيدًا لا أفهم ماذا أفعل.. أقوم من نومي أبحث عن زينب في الشقة فلا أجدها فأظل أنادي عليها.. وعندما لا ترد أرتدي ما أجده متاحًا من ملابسي وأخرج أبحث عنها في الشارع بين أوجه المارة وفي انعكاسات وجهي أمام فاترينات المحلات التي كنا نقف أمامها سويًّا في الماضي، ثم أتعب من البحث فأعود إلى الشقة الخاوية.. أترك أنوارها جميعًا مضاءة من شدة الوحدة والخوف.. ثم أنظر إلى وجهي في المرآة لأجدها راقدة جوار انعكاسي فيها.. فأعود لأبكي.

أدارت الحياة وجهها الطيب بعيدًا عني تمامًا.. وسلمتني إلى وجه قبيح لم أعرفه من قبل.. واستسلمت ليأسي في ضعفٍ ورضا.. وجاءني

الإنـذار الأول بالفصـل مـن الجامعـة بعـد أن نفـد صبرهـم الطويـل على انقطاعـي.. وكان سباسـتيان لا يتركنـي كثـيرًا.. وداوم عـلى زياراته المستمرة محاولًا انتشـالي مـن الغـرق في دوامـة حـزني هـذه لكنـه لم يستطع أن يفعـل لي أي شيء.. وأحيانًـا مـا كنـت أنفعـل عليـه وأعاملـه بقسـوة كلـما ألـحَّ عـليَّ في عـدم الاستسـلام.. أو ألـح عـليَّ للخـروج.. وفي مـرة فقدت أعصـابي وقمـت بطـرده مـن المنـزل.. وبعـد أن فقـت مـن ثـورتي حزنت أكثـر عـلى مـا فعلتـه معـه مـن نكـران للجميـل.. فعـاودت الاتصـال به ورفـض أن يقبـل الاعتـذار مـا لم أخـرج لمقابلتـه على المقهـى أو في أي مكان أريـده.. فقبلـت.. وعـدت أنظـر إلى وجهـي في المـرآة بلـوم شـديد ولم أقـم بتهذيـب هيئتـي وارتديـت مـا وجـدت مـن ملابـس وخرجـت إلى ملاقاتـه.

رحـت أتمشـى في وسـط المدينـة أراقـب الأرجـاء في فضـول ومقـت.. كانـت الشـوارع شـديدة الازدحـام.. والنـاس كلهـم عـلى عجلـة مـن أمرهـم.. أوجههـم جميعهـا عابسـة كئيبـة ربـما أكثـر مـن وجهـي.. وكان وجـه المدينـة قبيحًـا.. قبيحًـا إلى درجـة منفـرة. وأخـذت أعجـب مـن قـول جـدي سـليم دائـمًا أن بلدنـا «جميلـة».. وقلـت مخاطبًـا إيـاه في غضـبٍ: أي جمـالٍ وسـط كل هـذا القبـح؟ وسـألت نفسـي: أي بـلادٍ كان يقصـد جدي؟ وأيـن ذهـب هـذا الجـمال الـذي كان دائـمًا يتحـدث عنـه.. أم أن زينـب قد تكـون أخذتـه معهـا عندمـا رحلـت؟

ووجـدت عينـي لا تلتقـط مـن الشـارع إلا كل مـا هـو سيء مثير للغضـب.. ملابـس الشـباب والفتيـات أشـبه بمهرجـي السـيرك.. تقليعـات عجيبـة تحـت مسـمى الموضـة.. تحـرش وشـجار ونظـرات جوع في أعـين الجميـع.. وتعجبـت تمامًـا.. أحـدثَ للبلـد هـذا كلـه في تلك الأيـام القليلـة الماضيـة؟ أم إننـي لم أكـن أرى شـيئًا قبـل رحيـل زينـب؟ ولم أسـتطع أن أتحمـل الجلـوس مـع سباسـتيان عـلى المقهـى لأكثـر من

نصف ساعة واعتذرت له كثيرًا قبل أن أنصرف.. وعدت سريعًا إلى المنزل وقد حسبته أكثر رحمة.. لكني فور دخولي عادت إليَّ هواجس الوحدة وأنياب الخوف. وعندما عدت أنظر إلى المرآة وكان وجه زينب متظرًا، قمت بتغطية المرايا في الشقة كلها ولم أعد أستطيع أن أتحمل النظر إلى وجهي الذي صرت أكرهه.. ولم أعد أحتمل ذكرى زينب الراحلة في تلك الليلة الحزينة الباردة.

حاولت مرات ومرات الاندماج ثانية في الحياة.. لكني كلما خرجت إلى الشارع وجدتني أصاب بنوبات من الاختناق والهلع الشديدين حتى أصبحت لا أتحمل منظر الشوارع والعابرين من المارة والجالسين على المقاهي.. وأحسست أنني أعيش داخل مسخٍ كبيرٍ اسمه القاهرة.. وعندما حاولت العودة للجامعة صار الجميع يتأفف من ضيق خلقي وقلة ذوقي الواضحين.. وأصبح الدكتور يحيى الطيب رمزًا للمشاكل والخلافات في الكلية ووجهًا مكروهًا لدى زملائه من الأساتذة والمعيدين بالقسم، حتى تعاملاتي مع الطلبة صار يشوبها نوعٌ شديد من الإهمال واللامبالاة في مسئولياتي تجاههم.. فصارت سمعتي بالغة السوء لدى الكلية فعدت للانقطاعات المتكررة.. وقبل أن يأتيني إنذار جديد بالفصل قمت بتقديم استقالتي وذهبت إلى عددٍ من شركات السياحة أعرض عليهم خدماتي.. وكان طلبي الوحيد هو العمل في أي مكانٍ بعيدٍ عن القاهرة.

بدأت العمل أولًا في شركة صغيرة ألحقتني للعمل في طابا، ومن طابا إلى سانت كاترين، حتى استقر بي المقام في كامب وادي حبيبة بالغردقة.. وجدت جزءًا من نفسي في الصحراء.. لم أستطع أن أتقبل نفسي بالكامل.. لكنني في نهاية الأمر ومع مرور الوقت وجدت طرقًا عديدة للتعايش معها.. كان إحساسي القاتل بالذنب تجاه زينب

يقتلني في البداية.. إلّا أنني استسلمت لإرادة الله في النهاية.

«لكني لم أستطع أن أنظر في وجه امرأة أخرى من بعدك يا زينب.. حتى جاءت ياسمينا.. منذ التقينا في بازار عارف وشيء قوي يدفعني بعنفٍ شديدٍ إليها.. شيء لم أفهمه إلى الآن.. أحيانًا كنت أشعر ونحن معًا أنها تتكلم بروحك يا زينب.. وتعاتب وتلوم بلسان جدي.. حتى إنها كانت عندما تمزح تذكرني بسباستيان. كل أرواح من عرفتهم في حياتي كانت تحملها ياسمينا معها.. وتظهرها وقتما تشاء.. وكيفما تشاء.. وعندما كانت تصمت أو تحزن فإنها كانت تحزن مثلي يا زينب. وتصمت مثل صمتي.. وقبل أن أشعر أنه ثمة ما يمكن أن يعيد لي الأمل في حياة جديدة.. وجدتها تخدعني. تعلقت بأمل بدا جميلًا في بدايته لكنه انقطع في النهاية.. سامحك الله يا جدي.. قلت لي قبل رحيلك ألا أفكر في مشقة الطريق.. وأن أفكر في متعة الوصول.. وها هو الطريق قد طال.. طال كثيرًا يا جدي حتى صرت منبوذًا في الصحراء.. فإلى أين أذهب بعد ذلك.. وأين وكيف يكون الوصول؟»

انتصف الليل وأنا غارقًا في أفكاري بين الماضي وياسمينا، حتى سمعت صوت سيارة تتوقف أمام الغرفة.. بعدها جاء صوت طرقات قوية غاضبة على الباب، وعندما فتحت وجدت ياسمينا أمامي، وكانت تحمل في يدها مجموعة من اللفائف دخلت وألقت بها على المنضدة جوار الجرامافون وقالت في غضب:

- كنت سأخبرك بكل شيء.. لكنني لم أعرف متى كان يجب أن أفعل ذلك.

ونظرت إلى رابطة العنق الملقاة على الأرض في أسفٍ بالغ وقالت وهي تشير إلى اللفائف:

- ماتت جدتي روز من أجل هذه.

ثم خرجت من الغرفة في نفس الغضب تاركة بابها مفتوحًا.

بقيت واقفًا في مكاني لا أفقه شيئًا مما قالته.. ثم ذهبت وأغلقت الباب ورحت إلى اللفائف أتفحصها.. فوجدتها مجموعة عريضة مطوية حول بعضها وملفوفة بعناية في أكياس بلاستيكية شفافة.. وفور أن أخرجتها وجدتها لفائف من أوراق البردي مكتوب عليها بالهيروغليفية، وعندما لمست أولها ونظرت إلى الأحرف التي فوقها عرفت فورًا أنها برديات أصلية وليست مقلدة.. فهالتني المفاجأة.. قمت مسرعًا إلى باب الغرفة وتأكدت من إحكام إغلاقها بالمفتاح من الداخل ثم عدت إلى البرديات أتفحصها.. مررت بعيني فوق بدايتها وقرأت في السطر الأول الكبير

«الأول العظيم من ثلاثة»..

ثم في السطر الذى يتبعه:

«أنا الزعفرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة»..

ثم مررت سريعًا بعيني فوق بقية الأسطر في البردية الأولى فوجدتها قد زُيِّنت بالنقوش والخراطيش الملكية التي أعرفها جيدًا للملوك الدولة الحديثة في العصر القديم.. وأخذ عجبي وفضولي يتفاقمان حتى زاحماني في الغرفة.. تفحصت البرديات أكثر بين يدي وكانت من القطع المتوسط أو الصغير للكتابة في ذلك الزمان.. نظرت إلى زينب في المرآة خلفي مرة أخرى وكانت تنظر في ترقب.. ثم أخرجت كل الأفكار من رأسي قدر ما استطعت وأحضرت أوراقًا وقلمًا، ثم جلست لأدوِّن ما أترجم.

***

(٦)
الزعفرانة
«الأول العظيم من ثلاثة»

أ

أنا الزعفرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة.. أنا التي رضي الإله مُلكي وما رضيت.. أنا التي تقدَّست أسمائي وتبجلت ألقابي من الشمال إلى الجنوب.. فنبذت هذا كله وسعيت مع مَن آمن بي نحو الشرق.. حيث يمكث رب الشمس وإلهها «رَع» طوال الليل يدبر لنا سُبلنا في النهار.. فنقتات من عطفه، أو نتصارع من غضبه.. أنا التي حُمِّلت فوق ما حمِّل من في مثل قداستي.. فما ضعفت وما خنعت.. وعندما حاول أعدائي دس السم لي قبل أن أكشف خيانتهم.. قلبت الأمر عليهم.. وتركت لهم الشر ينعمون به ما شاءوا وكدت أن أنتصر.. وثُرت ثورتي الكبرى ساعية أكثر إلى الحقيقة.. فأقسمت أمام «رع» المقدس ألّا أهدأ حتى أصل إلى قلب الحقيقة.. وإلا ما استحققت نسبي إله بجميلته التي يحب.. ومفضلته بين من سبقني من الأميرات.

أنا جميلة الإله «نفرو- رع» ابنة سيدة الأرضين الحرة. النبيلة في ملكها،

موهوبة الحياة والبقاء الأبدي على عرش «حورس» الذهبي. أنا ابنة جلالة الملكة العظيمة المعظمة. خليلة آمون المقدمة على الأميرات.

أنا الأميرة «نفرو- رع» ابنة الملكة المقدَّسة دومًا «ماعت- كا- رع- حتشبسوت».

أنا الزعفرانة.

خبَّرتني أمي الملكة «حتشبسوت» في مهدي المقدَّس الأول أن أبي الملك «تحتمس الثاني» قد زاره طيفٌ في حلمٍ خافت بعد نوبة تعبُّد طويلة وقد نبأه الطيف بقدومي.. فما كان منه إلا أن ابتهج ابتهاجًا لم يعهده.. وقام بنشر الصلوات في أرجاء القصر الملكي.. وبشَّر الشعب العظيم بالنبوءة الرائعة.. ولم تلبث أن تباركت بطن أمي المقدسة.. وأعطى رب الأرباب الإذن لي بالقدوم.. لجئت.

سألت وزير القصر الحكيم «سنن-موت» ذات مرة بعد أن انتهينا من أحد الدروس التي اختصته جلالة الملكة بتقديمها لي وقلت مستفسرة عن سبب اسمي.. فقال إن جلالتها هي من اختارته لي.. وردَّد بتبجلٍ «أنت جميلٌ مرآكِ يا «نفرو-رع» منذ جئت إلى الحياة.. وتبارك هذا القصر بجمالك منذ ذلك اليوم العظيم».

عَهِدت أمي ومولاتي الملكة «حتشبسوت» إلى سنموت الحكيم برعايتي منذ المهد.. وكان أن اختصتني بذلك وحدي.. فلم تنعم بذلك أختي «ميريت- رع».. وبالطبع لم يمنح تلك الرعاية «تحتمس الثالث» ابن أبي. وأخي من المحظية «إيست» والتي كان يفضِّلها أبي الملك عن سائر المحظيات..

ولم أكن أعلم لذلك سبباً سوى رغبة الملك المقدس في أن يحظى بجدي الأكبر بابنٍ ملكيٍّ يرث الأرض ويملك العرش من بعده.. وكانت أمي جلالة الملكة لم تمنحه الإبن الذكر. لكني عندما كبرت نفَتْ لي أمي الملكة ذلك.. وقالت جلالتها إن «إيست» أعجبت والدي الملك فقط.. ولم يكن يسعى إلى المزيد من الورثة.. خاصة أن «إيست» لم تكن من دم مَلَكي صافٍ مثلي ومثل «ميريت» وبالتبعية فإن «تحتمس الثالث» ابن أبي من «إيست» محرومٌ من الصفة الملكية.. لكني لم أكن أستوعب ذلك كثيراً.. فقد كانت أمي الملكة أجمل جميلات القصر.. وإن قارنتُ جمال «إيست» بها فكأنني كنت أقارن الثور الممتلىء بالغزال الرشيق.

فارقنا أبي الملك وأنا صغيرة.. لم أكن قد رأيت سوى خمسة فيضانات للنيل العظيم.. وذهب أبي إلى حياته الأخرى ليظفر بالنعيم الأبدي.. وكان هذا في نفس العام الذي وُلدت فيه أختي «ميريت التي جاءت بعد موته مباشرة في نفس الخريف.

بينما كنت أنا أكبر من «تحتمس» ابن أبي بفيضانٍ واحد.. لكني كنت أيضًا- كما أخبرني «سننموت» الحكيم - الأكثر ذكاء والأكثر جمالًا.. وكيف لا أكون.. وأنا جميلة جميلات الإله رع؟!

كانت لي خصلة شعر ذهبية نادرة نبتت وسط شعري الأسود الليلي بعد أن ولدتني أمي.. وحكى لي الحكيم «سننموت» أن أبي الملك كان قد قام بإزالتها بمقصٍ ذهبي وأنا وليدة عندما لمحها فوق رأسي أول مرة.. بل وتشاءم منها لأن مرآها قد ذكَّره بلون شعر «أبناء بحر» الذين طالت حروبنا معهم. ولم يكن

بتهي تمردهم عليه وعلى جدي من قبله. وبعد أن مات أبي الملك، وجلست المبجلة أمي مكانه على العرش. وأخذت الوصاية على «تحتمس» والذي لم يكن قد جاوز الأربعة فيضانات..أحبت أمي هذه الخصلة. وقد كان لونها يموج بين الأصفر الذهبي تحت شعاع رع المقدس نهارًا، والأحمر البرتقالي كقرصه النبيل عندما يذهب مساءً.. وقالت لي سيدة الأرضين وأنا صغيرة:

- ليتقدس اسمك يا «نفرو»، أنتِ جميلة جميلات الإله.. لقد اصطفاك رع دون جميع الأميرات من دمنا المقدس، ومنحك لمسة مقدسة من يده الطاهرة، طبعها تاجًا على جانب رأسك كي يصحبك نوره أينما ذهبتِ.

ثم دللتني ناطقة باسم الزعفرانة. تيمنًا بتلك الزهرة الجديدة التي اكتشفوها في إحدى الحملات التأديبية التي قام بها جدي الأكبر «تحتمس الأول المقدس» والتي كانت خصلة شعري تتلون بلونها تحت شعاع رع المقدس.. وصار اسم الدلال بيني وبين أمي لفترة. ثم شاع بعد ذلك بين جدران القصر، حتى صار اسمًا لي.. مثله مثل اسمي الملكي.

في ذكرى مولدي الثامن.. كانت الملكة قد أحكمت قبضتها على العرش وصار كل من بالقصر من الكهنة والنبلاء في طيبة يذكرون اسمها جنبًا إلى جنب مع اسم الآلهة.. ونجحت في إنهاء عصر الفتوحات الذي كان قد بدأه جدي منذ عقود. وقالت في حزمها المعهود للنبلاء المجتمعين والمعترضين على قرارها الحكيم:

- لقد ولى الهكسوس إلى غير رجعة منذ زمن، ولم تعد التمردات تشكّل خطرًا علينا حتى في أقصى الأقاليم البعيدة.

ثم قامت من جلستها وصاحت بصوتها الذي كان يشق أعق القلوب من الخوف:

- لقد حان وقت العمل الحقيقي، لمن أراد بقي، ومن اعترض فإنني سوف أكون أكثر كرمًا مع التماسيح في «حابي» تلك الأيام.

لم تكن أمي ملكة قاسية لكنها كانت امرأة قوية.. أو هكذا كنت أراها دائمًا.. كما أنها كانت أمًّا عظيمة، ولم أكن أحب لجلسات البلاط الملكي.. كان رأسي يتصدع من زحام الأرقام وتفاصيل الجبايات ومناقشات جامعي الضرائب، وخلافات القادة العسكريين التي لم تكن أكثر سوءًا من نزاعات الكهنة معها في معبد آمون. وعندما كنت أشتكي لـ«سننموت» وكلي خوفًا من أن تسمعني كان يقول:

- هذا واجب من واجبات الملكة. أم أنك لا ترين «ميريت» أختك التي تجلس دومًا تحت قدميها؟.. وكذلك ابن أبيكِ الجالس دومًا إلى جوارها على العرش

فكنت أضحك وأقول:

- وكأنه يفهم ما يقولون.

- يومًا ما سوف يفهم يا بنيتي، ويجب أن تفهمي أنتِ أيضًا كل شيء.. أنتِ الأكثر ذكاءً وجمالًا ونبلًا.. أنت الدم الملكي الصافي.. ويجب عليك أن تستعدي باكرًا لمسئولية الحكم، فبعد سنوات سوف تصبحين الزوجة الملكة لـ«تحتمس» الابن.. وتجلسين إلى جواره على العرش مكان جلالتها.

فرُحت أقول:

ـ زوجة ملكية.. لمَن؟ لأخي ابن أبي؟ أنا لا أحب أن أكون زوجة ملكية.

وكنت أهمس في سِرّي حتى لا يسمعني سوى «رع» العظيم: «أنا أحب الشِعر.. وأحب الموسيقى».

وكان «سننموت» يستاء من ردي كل مرة، ويظل يقول أنه يومًا ما سوف أكبر وأدرك مسئوليتي وواجباتي تجاه مصر، وتجاه انشعب، مثلما فعلت أمي بعد أن مات أبي الملك.

كنت أحب «سننموت» وأثق في حكمته أكثر من أي شخصٍ في القصر.. كان أبًا إلهيًا لي دون أن أخبر بذلك أحدًا سوى «رع العظيم».. ومنذ مهدي كانت قد أُسندت إليه مهمة حمايتي وتنشئتي.. وكنت أبتهج من مرآه وأجزع من رحيله. كنت أحب هدوءه حين يتحدث وينطق بلسان فيه من حكمة الآلهة ما فيه.. وكان دائم التطيب بأجود وأفخر العطور التي كانت أنفي تعتادها وتحبها حتى إنني كنت أميز رائحة عطور أمي بين ثيابه كثيرًا، وكنت أحب اقترابه كلما شق عليها مجالستي لانشغالها بشئون الحكم ومشقته، وكان «تحتمس» ابن أبي ينشغل بأمور السيف والرمح. وتنشغل «ميريت» بزينتها لكن يومي الحقيقي كان يبدأ عندما يسمح لي «سننموت» الحكيم بحضور دروس الموسيقى مع العازفين المهرة على القيثارة.. أحب الآلات إلى قلبي وأكثرها طربًا، حتى كنت لأشعر أحيانًا أنها صوت السري لـ «رع» المقدس وقد هبط إلى حديقة القصر حيث كانت تبدأ الدروس. والتي كانت تؤنس حياتي المملة في القصر، وكان حرماني من حضور دروس الموسيقى عقابًا محببًا لدى الملكة إذا ما أهملت في دروس الحساب ودروس الإدارة العامة..

خاصة أن مَن كان يعلمني هو رئيس الديوان الملكي للتعليم بنفسه.. وقد كنت أكرهه، ولا أطيق صبرًا إذا ما جاء موعد الدرس الخاص بالموسيقى فأضع زينتي وأوسمتي وأنطلق فرِحة إلى حيث كانت العازفات ينتظرنني، وإلى حيث كان يوجد الصبي «حور».

آه يا رع الذهبي المقدَّس.. ماذا أقول عن «حور» الطيب.. «حور» الجميل ذو الذراع القوي والساق الطويلة والأعين السوداء المكحلة بالأحجار المقدسة والتي كان اتساعهما يشملني في أوقات دروس الموسيقى. حتى إنني كنت لأرى انعكاسي فيهما وأحب النظر إليهما كثيرًا.

كان الجميل «حور» أكبر مني سنًا، وشهد هو موسمين من الربيع قبلي.. جلبه الحكيم «سننموت» بعد أن صار كبر خدم آمون.

كان الجميل «حور» صامتًا دائمًا لأنه وُلِدَ أصمًا لا يسمع ولا يمكنه الكلام. وقد اختاره «سننموت» الحكيم لهذه المهنة تحديدًا لكي يكون حارسًا أمينًا لي أنا وأختي «ميريت» الصغيرة، ولم تكن تحب دروس الموسيقى ولعب القيثارة بعد أن أدمنت جلسات البلاط الملكي جوار جلالة الملكة، بينما كان «تحتمس» ابن أبي قد أدمن ألعاب المبارزة وانخرط فيها أيّما انخراط، لكن أمه «أيست» كانت تجبره دومًا على عدم تفويت جلسات البلاط مع أمي الملكة.. لأنه الحاكم والفرعون المنتظر.

كان الجميل «حور» أكثر مني طولًا، يقف دائمًا عاري الجذع، حليق الرأس، يبرق جمالًا تحت آشعة رع المقدسة.. يظل طوال دروس القيثارة واقفًا قبالتي ضامًا ذراعيه إلى صدره حتى إذا ما احتجت شيئًا لبَّاه لي بمجرد

الإشارة.. وقد كان يفهمني دون كلام.. يقف في عزة وشموخ أمام كل الوصيفات الجميلات وكأنه أميرٌ نبيل.. حتى إذا ما جئت أنا. انكسرت حدة شموخه.. ونظر إليّ في ابتهالٍ وخشوعٍ وكأنه يتعبدني..

عندما كنت أقوم بالعزف على قيثارتي الذهبية كنت لا أنقطع عن النظر إليه. فإن جاء عزفي طربًا حسنًا وجدته يبتسم في إجلال واستحسان رغم أنه لم يسمع شيئًا.. وإن جاء أدائي مبعثرًا قلقًا وجدته ينظر إليّ في تشجيع وحث على المثابرة.. وأحيانًا كان يخالف قوانين القصر بمخاطبة الأميرات عن طريق الإشارة، فيومئ إليّ أن عاودي مرة أخرى، فأستعيد حماسي وأجدني قد منحت رشاقة ونعومة في يدي حتى يخرج عزفي رائعًا يطرب كل من حولي في حديقة القصر.. وبالتأكيد يكون «حور» أكثرهم طربًا لما لم يسمع.

طالت توسلاتي إلى أمي الملكة.. وكثرت صلواتي وابتهالاتي إلى إلهي الحبيب رع الذي خلق كل أشكال الحياة، كي توافق أمي على ترقية «حور» من زمرة الخدم الخارجي للقصر وضمه إلى خدم الحاشية الداخلي لقصر الأميرات.. حيث أمكث أنا و«ميريت»، وكنت قد مللت من الجارية الكوشية[٢] غليظة الصوت المسئولة عن جناحنا. وضقت ذرعًا من ملامحها القاسية.. ولم تفلح أيٌ من توسلاتي أو صلواتي في شيء، ولم يفلح مع أمي الملكة سوى ما كنت أعرفه مسبقًا.. الحكيم «سننموت» بالطبع ،والذي أقنعها بذلك في سهولة.. وقد ضمنه بنفسه لثقته الشديدة في إخلاص «حور» وولائه لنا.

كان «حور» يشعر بي قبل أن أشير، ويتواجد أمامي قبل أن أفكر في طلبه،

---

٢) مملكة كوش : مملكة قديمة كانت في المنطقة من حوض نهر النيل الواقعة بين مصر والسودان حاليًا

وكنت أعتقد طوال الوقت أن الجميل «حور» تحركه الآلهة المقدسة وتتواصل معه أكثر منا.

كانت «ميريت» دائمة السخرية من عدم قدرة «حور» على السماع.. فكانت تسبه أمام الجواري بصوتٍ عالٍ، وتظل تضحك معهن لعدم قدرته على الرد، حتى وإن كان يستطيع الكلام، فهو خادمها المطيع مهما كان تصرفها بذيئًا معه. وليس بيده شئ سوى أن يطيع ما يؤمر به.

في أي عمرٍ بدأت أكره الذهاب إلى المعبد.. لا أعرف تحديدًا .. لكن هذا كان بالتأكيد بعد الربيع العاشر، وكانت أمي لا تسامح في هذا الأمر أبدًا.. ولم تكن تسمح لي أو لـ«ميريت» بالتغيب عنه أبدًا.. لكنها أحيانًا كثيرة ما كانت تترك «تحتمس» يتغيب عن حضور الصلاة فيه.. وإن كانت أمه «إيست» سرعان ما ترسل به مع أحد الجنود خلفنا ليلحق بنا في الصوات وأحيانًا كثيرة ما كانت «إيست» تأتي بنفسها معه.. وتظل بعد رحيلنا جالسة مع كهنة المعبد لتوطد علاقة ابنها -ولي العهد المنتظر- بهم.. وكانت أوامر مولاتي الملكة صارمة بشأن احتكاكنا بها إذا ما تواجدت معنا في نفس الوقت.. كانت أمي تنبّه على الحرس بمنع الاختلاط مع «إيست» تمامًا.. بل وتجرّمه.. خاصة بعد الإشاعات التي دارت في القصر عن سقوط بردية في يد حرس القصر قد أرسلت إليها ردًا من أحد سحرة الشمال المنبوذين

برع «تحتمس» ابن أبي في الصيد والقنص سريعًا.. برع فيه إلى درجة أنه كان يذهب في حملات الصيد مع قادة الجيش قبل أن يشهد الفيضان الثاني عشر.. وعاد ذات مساء إلى القصر وفي يده رأس لبؤة كبير اصطاده من

صحراء الجنوب في رحلته الأخيرة، وكان أن قدّم الرأس لي كهدية عودته سالمًا من رحلته.. فرفضتها لمنظرها الدموي المقزز.. ونهرتني أمي الملكة على ذلك.. وقبلتّها منه نيابة عنّي بل وشكرته كثيرًا عليها، ثم أشارت إليه كي يتبوأ مكانه جوارها على كرسي العرش.. وقالت لي مولاتي الملكة قبل أن أعود إلى غرفتي بقصر الأميرات:

- لا تتحامقي كثيرًا يا «نفرو» قريبًا سوف ألحق بأبيكِ الملك إلى عالم الخلود.. ولا بُد أن أطمئن على مُلكك جوار أخيكِ من بعدي.

ولم أرد عليها، فلم يكن هذا مسموحًا.. فقط نظرت إلى «حور» الواقف وقد نظر أرضًا حيث لم يكن من المسموح له أن ينظر إلى قداسة الملكة مباشرة.. ثم انتظرت أن تذهب جلالتها ودخلت إلى غرفتي وأشرت إلى «حور» أن يتبعني، فدخل ورائي في صمت.

خلعت الأكاليل الزهرية من فوق رأسي، ونزعت منها الأشرطة الكتانية حتى أترك شعري ينسدل على ظهري في حرية، ووقفت أمام المرآة أنزع الأقراط الثقيلة التي تورمت من أثرها أذني، وكان «حور» يقف خلفي بعيدًا أراه في المرآة في سكونه المعتاد.. قلت مخاطبة انعكاسه:

- لا أحد في هذا القصر يفكر سوى في رغباته.. وكأني غير موجودة.

فشد «حور» على أسنانه معلنًا مشاركته استيائي مما يدور وتابعت وأنا ألتفت قائلة:

- لماذا أشغل بالي من الآن بالعرش والحكم؟!

مال برأسه مشاركًا اعتراضه.. ثم اقتربت منه في بطء، وقلت:

- أمي الملكة بدأت تفكر في زواجي من الآن.. ألا ترى معي أنني لا زلت صغيرة على الزواج.

ثم وضعت يدي حول خصري وهبطت بها على جانبيّ نخلاي وتابعت قائلة:

- أعلم أنني قد بلغت حد الكمال في جمالي.

وشددت على صدري أمامه وبدا مرتبكًا وأنا أقول:

- قل لي أنت ماذا ترى؟ هل تراني قد صرت أنثى ناضجة صالحة للزواج والمعاشرة.

فزاد ارتباكه وابتسم في تحرج، وكنت أحب كلامي معه في أموري الخاصة كثيرًا.. بل ويسعدني كثيرًا عندما أراه وهو يختلس النظر إلى ما قد يتعرى من جسدي بقصدٍ أو بدون قصدٍ أمامه.. ثم تركته وعدتُ إلى مرآتي أخاطبه فيها وتابعت:

- والآن ما العمل؟ الملكة تصر على زواجي من «تحتمس» أخي.. وهو أمرٌ آتٍ لا محالة، شئنا أم أبينا يا «حور» الطيب.. ماذا أفعل الآن ونحن لا نحب هذا الـ «تحتمس» غليظ القلب الذي لا يمتعه شيء في الحياة سوى الذبح والقتل؟

والتفت إليه وكان يتأملني في خشوع ولطالما أحببته عندما ينظر إلي بتلك الطريقة بعينيه الجميلتين الواسعتين وما بهما من كحلٍ أصيلٍ.. اقتربت منه ثانية حتى كدت أن أكون ملتصقة به.. وضعت أصبعًا على صدره وقلت له وابتسامتي وعيني فيهما ما فيهما من خبثٍ وغنجٍ:

- هل تعلم أكثر ما يثيرني فيك؟ صدرك العاري دومًا هذا.

وبدأ «حور» المسكين يتنفس في سرعة ويتعثر نَفَسُه كلما هبطت بأصبعي على جسده حتى ضحكت من منظره المسكين رغم اشتهائي أنا أيضًا له.. استدرت في مكاني دون كلام وفردتُ ذراعيّ بطولهما إلى جانبي في إشارة معتادة كي يسدل الرداء من على ظهري.. فأزاح الرداء من فوق كتفي بيد مرتعشة أكثر من المرة السابقة.. وكنت أبتسم في رضا وأنا أتأمله في المرآة وهو بالكاد يلفظ أنفاسه.. ثم تركته وانصرفت نصف عارية وأنا أوليه ظهري إلى حوض الاستحمام في القسم الشرقي من الغرفة.. وظل مكانه حتى اختفيت عن ناظريه ثم انصرف في صمتٍ.

وبعد أن انتهيت من الاستحمام وقفت عارية أمام المرآة أتأمل جسدي وأتفحصه وقد فاضت مفاتنه منذ أكثر من عامٍ إلى الآن.. وقلت لنفسي: «ألم يئن لهذا الجمال اليابس أن يرتوي؟».. ثم نمت وأخذت أحلم بـ «حور» طوال الليل وقد صرنا شجرتين يافعتين أمام قرص الشمس هبطت أشعتها علينا فأثمرنا سويًا في آنٍ واحدٍ ثم خرج كلٌّ منا من إحدى الثمرات ونحن عراة فامتزج كل منا بالآخر حتى تخصبت الأرض من تحتنا بما بقي منا فأنبتت أشجارًا لتثمر من جديد.. وهكذا..

في اليوم التالي طلب مني «سننموت» الحكيم أن أحضر أنا و«ميريت» إلى جلسة خاصة بينه وبين جلالة الملكة في بلاط القصر.. ولما دخلنا عليه كان متأهبًا ولم تكن الملكة قد حضرت بعد.. وسألته عمّا سيحدث فطلب مني أن أنتظر حتى تأتي أمي.. وبعد قليل صاح الحارس:

- مولاتي الملكة.. سيدة الأرضين.. العظيمة في قدرها «حتشبسوت».

ودخلت علينا الملكة فانحنينا جميعًا في تبجيل حتى جلست جلالتها على عرشها وأشارت بيدها حتى انصرف كلُّ من في القاعة الملكية ولم يبقَ غيرنا أنا وأختي «ميريت» و«سننموت» الحكيم وقالت جلالتها بعد تنهُّد طويل:

- لقد عثر الحراس مرة أخرى على رسالة قادمة من أحد الكهنة المرتلين المنبوذين لممارسة السحر.. والرسالة قادمة من الشمال.

ثم قامت من مجلسها الذي لم تكن قد اتكأت عليه بعد وصاحت:

- البردية هذه المرة كانت ردًّا على أخرى تم إرسالها منذ فترة ولم يضبطها أيٌّ من الحرس!

وكانت تنظر بلومٍ شديدٍ إلى «سننموت» الذي ارتبك فور أن علا صوت جلالتها وقال في أسفٍ:

- لو تسمح لي جلالتها.. إن إخفاء البرديات لهو أمرٌ يسير على أي شخص في القصر.. وإني لأرى أنه كان من رفق «آمون» بنا أن وجدنا هذه البردية قبل أن تصل إلى صاحبها.. وقد أراد بهما سوءًا كما ظهر من مضمون البردية.

وكان يشير إليَّ وإلى «ميريت» وردت جلالتها عليه في وقارها:

- أنا لا ألومك على التقصير الأمني يا «سننموت».. المسائل الأمنية في البلاد ليست في نطاق اختصاصك.. لكنك أنت من عارضت رأيي في البداية بالتخلص من تلك الحية التي لن تهدأ قبل أن تلحق الأذى بالصغيرات. والآن ها هي صارت كما يبدو على اتصال وثيق بكهنة السحر الذي حرمته فور اعتلائي العرش.

ثم نظرت إلى الكرسي الملكي الشاغر جوار كرسيها وأكملت غاضبة:

- والوصاية..

لم أكن أفهم ما يقصدون ومن يتكلمون بحديثهم هذا فنظرت إليها بعيني فقط في تساؤل مستفسرة فقالت:

- اسألي ما شئت يا «نفرو-رع»

قلت:

- من تقصد جلالتها بالحية التي لن تهدأ قبل أن تؤذينا؟

فأشارت بيدها إلى «سننموت» كي يجيبني هو فقال:

- تقصد «إيست» مَن كانت زوجة أبيك الملك يا بنيتي ومولاتي.

فصاحت في صوت كاد أن يشق جدران القصر:

- محظية الملك.. لم تكن زوجة أبدًا.

فتراجع «سننموت» طالبًا غفرانها وقال في اعتذار:

- لتسامحني جلالتك وليغفر لي «آمون» إنما قصدت ما قلتِه يا مولاتي.

ثم تابعت الملكة وهي تضرب على يد كرسي العرش:

- والآن.. بعد أن قويت شوكة «تحتمس» وتوطدت علاقاته بقادة الجيش.. لم يعد من الممكن القضاء عليها بسهولة.. لقد قضيت سنوات عديدة أدفع بهذا البلد نحو الاستقرار والرخاء.. حتى إذا ما حلت مواجهة صرنا في صفوف المهاجمين لا المدافعين.. أما الآن.. وبعد أن صارت الحرب داخل طيبة وليست خارجها.. صار عليّ أن اقف ذليلة في موقف المدافع عن نفسه وعن أهله.. لا في موقف من يهاجم ليبيد أعداءه!!

فسأل «سننموت» في ترقب:

- وما الصواب الذي تراه عظمتك حفاظًا على جلالتهما من شرٍّ قد يأتي؟

- الكثير يا «سننموت».. الكثير.. لكننا سنبدأ أولًا بنقل الأميرتين من مكانهما.. أريدهما أكثر قربًا مني بعد اليوم. لم يعد مكانهما آمنًا الآن.. وليمكثا معي هنا في القصر ولا يأكلان ولا يشربان إلا بإشرافك أنت على ما يقدَّم لهما من مطبخ القصر وليرافقهما ضعف العدد من الحرس.. واجعل ضابطًا على رأس كل مجموعة من الحرس وابتعد عمّن يدينون لـ«تحتمس» بالولاء.. فهؤلاء أيضًا غير آمنين.

فردَّ «سننموت» في إخلاص:

- أمر جلالتك.

وقالت «ميريت» في فرحة:

- سيكون هذا جميل يا أمي.. القصر هنا أجمل وأوسع من الآخر.

فنظرت إليها أمي الملكة في لومٍ شديدٍ وقالت بحزمٍ:

- الأميرات لا يتكلمن في حضور الملكة دون إذنها، تأدبي يا «ميريت رع».

فردَّت أختي في حرج:

- عفوك مولاتي.. لم أقصد.

ولم ترد عليها أمي وإنما أشارت إليها بالانصراف عقابًا على سوء تصرفها فانصرفت «ميريت» في غضب فشلت في أن تخفيه، وقالت الملكة بعد أن أُغلِق باب الديوان ثانية:

- أما الأمر الثاني فسوف أنفّذ ما اقترحته أنت يا «سننموت» منذ الفيضان الأخير.. لقد آن الآن الأوان أن نذهب إلى «بونت».

هنا أبدى «سننموت» الحكيم عجبه من قول أمي وسألها:

- «بونت» الآن جلالتك؟ لا أقصد أن أشكّك في حكمة مولاتي لكن ألا ترين أن التوقيت الآن أصبح متأخرًا على هذه الرحلة؟ سوف تكلف هذه الرحلة الكثير من النفقات.. وسيكون هذا مدخلًا للكهنة في المعبد للمزايدة عليّ القرارات الأخيرة التي تخص القصر.

ردّت أمي في هدوء:

- أعلم.. هذا ما سوف نعمل أنا وأنت عليه يا «سننموت».. سوف نتدبر سويًا كيف نجعل الطرح يأتي منهم أولًا.. ولن يكون قرارنا سوى استجابة لرغبات الكهنة.

- تأسرني حكمة جلالتك دائمًا يا مولاتي.. لكن هل لي أن أستفسر كيف سيكون ذلك؟

عادت أمي إلى كرسي عرشها وجلست عليه في وقار، ثم أشارت إليّ وإلى «سننموت» بالجلوس وقالت بصوت رخيم:

- اسمعني جيدًا يا «سننموت»، وأنتِ أيضًا يا زعفرانة.. اصغي لما أقول جيدًا.. إن التجربة الأخيرة لتجرأ الهكسوس على أقطارنا وحروبهم الطويلة قد تسببت في ارتياب رعايانا من كل ما هو أجنبي بشكل مبالغ فيه.. بل إنه الأجنبي صار منبوذا لدى الجميع.. رغم أنه لا أحد يستطيع أن يعيش منعزلًا طوال العمر.. لا بُد من التعاون والتبادل والتجارة مهما ساءت أحوال الأقطار..

والآن بعد أن استقرت الأوضاع في بلادنا منذ زمان بعيد.. ولم يعد أحد يجرؤ أو يفكر لمجرد التفكير بالمساس بحدودنا مرة ثانية.. وصار الجيش في أقوى حالاته.. لم يعد هناك مبرر للمزيد من الحملات الحربية والتأديبية.. أصبح الكل يدين لنا بالولاء الكامل.. وقادة الجيش الذين أدوا واجبهم على أكمل الوجوه أصبحوا غارقين الآن في النعيم والثروات بفضل الخطط التي أقامها أبي وزوجي.. وبفضل تدبيرنا الحكيم من بعدهم.. كما أن الضريبة المفروضة على سائر البلاد المجاورة تأتي إلينا في وقتها دون أي تأخير.. لقد سيطرنا على الجميع في الخارج.. وقد آنَ الأوان أن ينعم مَن في الداخل بالمكاسب من وراء ذلك.. مثلهم مثل قادة الجيش وكهنة المعبد.. كما أنني أخشى أن تزيد توسعاتنا في الخارج أكثر من اللازم إلى الحد الذي نفقد فيه السيطرة فجأة على الجميع.. ولذلك..

ثم قامت من مجلسها ونظرت في شموخ إلى الأفق البعيد قائلة بصوت جهوري:

- بأمري أنا الملكة «حتشبسوت».. سيدة الأرضين.. ملكة البلاد شمالًا وجنوبًا.. سوف تُوقَف جميع الحملات العسكرية بدءًا من اليوم.

ثم نظرت إلى «سننموت» بنظرة آمرة فردَّد في إجلال بعد أن وقفنا احترامًا لها:

- أمر جلالة الملكة.. إن السماء كلها الآن تمطر من أجلك فوق بلادنا وفوق البلاد الأجنبية فلتكن مشيئتك أمرًا إلهيًّا ما علينا إلا تنفيذه.

ثم عادت لتجلس وأكملت:

- أما الأمر الثاني فهو ما أحتاج منكم فيه إلى المشورة.

وقالت وهي تنظر إليَّ:

-أنت معي في هذا يا «نفرو-رع»

قلت:

- ما تأمر به مولاتي الملكة هو أمر سيكون بمشيئة آمون الإله.

نظرت إليَّ وهي ممتنة وتابعت:

- نحن الآن لمحتاج إلى فتح سُبل التجارة مع الحدود المجاورة بكل أشكالها.. وليس أفضل من أن نبدأ بأصعبها.. وهي «بونت».. تا- نتر.

فردَّد «سننموت» في ورع:

- تا - نتر.. أرض الإله الرب.

وأكملت أمي:

- الفكرة الآن التي تشغل رأسي، تكمن في دفع الكهنة بمعبد آمون أنفسهم إلى طرح الفكرة وتقبُّلها.. بل ومباركتها.. وقد هداني آمون الإله إلى فكرة أراها مناسبة.. لا بُد أن تبدأ موارد «بونت» التي استخدمناها مؤخرًا في النقص الشديد.. أخص بذلك البخور والعنتيو[٣].

فتدخل «سننموت» قائلًا:

- لكن جلالتك.. ما لدينا في مخازن المعبد والقصر يكفي لعامين.. بل يزيد.

- وهنا يأتي دورك يا «سننموت» أيها المخلص الحكيم.. أريد أن تختفي هذه الخزائن من أرض طيبة كلها.. أريد أن ينفذ كل ما بها من موارد.. وأعلم أنك لك في ذلك سُبلك وحيلك.

[٣] نوع خاص جدًا من البخور

أطرق «سننموت» الحكيم مفكرًا متأملًا كلام جلالتها وبعد برهة اقترح قائلًا:

- إن حدث الأمر في هيئة سرقات متكررة فسوف يشك قادة الجيش وفي الأمر.. وكذلك الكهنة في المعبد.

- إذًا، ماذا ترى بحكمتك؟

- العفو مولاتي.. إنما الحكمة والتدبير ما تعلمنا من جلالتك.. وما منحك إياها آمون العظيم.. لكني أرى أن الحرائق هي أفضل وأسرع الطرق. وفيها ما فيها من المميزات.. أولًا سوف نقضي على مخزون طيبة من البخور والعنبر في آنٍ واحدٍ. ثانيًا سوف يبتهج أهل طيبة لو رأوا السماء فوقهم وقد غُطّت بالبخور وسحابه المقدس.. ولن يذكر الشعب الحادثة بشر، وإن شك أحدٌ من المعبد أو غير المعبد سيجدون أنه أمر وارد حدوثه ولا ريب فيه.

- الصواب ونعم الصواب ما رأيت أنت يا «سننموت» الحكيم..

هنا أشرت لأمي راغبة في الكلام فأذنت لي، فقلت:

- لكن كيف سيدفع هذا الكهنةَ في المعبد إلى عرض الذهاب إلى «بونت»؟

فردَّت جلالتها:

- لن يطلبوا هذا بشكلٍ مباشرٍ بكل تأكيد.. بل سيدفعهم هذا إلى المزايدة على القصر وسياسته وكبار موظفيه لعدم قدرتهم على توفير ما يحتاجه المعبد من هذا التراب المقدس.. وسيقومون بالإشارة إلى القصر تحديدًا بشكل مباشر في لومهم هذا.. وهنا..

ثم أشارت بيدها إلى «سنموت» الحكيم الذي ابتسم وتابع مفسرًا ما يقصده:

- وهنا تقوم جلالتها بالتضحية بقدر لا بأس به من المال في رحلة مقدسة إلى أرض الرب.

غلبني فضولي فسألت أمي دون استئذان:

- لكن جلالتك.. ما الذي يمنعنا من جلب ما يحتاجه كهنة المعبد من احتياجاتهم بالطرق العادية؟ التجارة المعتادة مع القوافل التي تأتي من هناك كل عام.. أعني أن هذا ما قد يسألونه..

- يعجبني تفكيرك في كل شيء يا زعفرانة.. لكن اعلمي يا بنيتي أن ما تجلبه القوافل عامة لا يكفي ما سوف يضيع في المخازن.. كما أنهم لن يستطيعوا أن يمنعوا فضولهم وطمعهم إذا ما اقترح القصر الذهاب في مغامرة كتلك.. فإنها إن نجحت سوف تغرق معابدهم ومنازلهم في العطايا المقدسة من تلك الأرض المباركة.

- لكنهم يقولون يا أمي إن الطريق إلى «بونت» شاق ومخيف ومليء بالمخاطر.. وهي بلاد بعيدة وغريبة.. ربما لهذا السبب من الأساس نجلب بضائعنا من القوافل التي تمر بها ولا نذهب بأنفسنا إليها.

- أعلم يا زعفرانة كل ما يقال.. وأغلبه مجرد قول.. لقد كان أجدادنا يذهبون إليها في سلام منذ زمان.. ولم نسمع بمثل هذه الأمور.. وإنما هي أكاذيب روجها التجار في الشرق وفي الجنوب للرفع من قيمة تجارتهم والحد من المنافسين فيها.

ثم نظرت إلينا وبدا أنها قد حسمت أمرها بشأن التخطيط للذهاب إلى بونت وقالت لـ«سننموت» سائلة:

- كم سوف يستغرق الإعداد لتلك الرحلة يا «سننموت»؟

-قد يستغرق التجهيز أشهرًا ثلاثة جلالتك.. لكن بالطبع لو توفر المال والعتاد والرجال.. قد يستغرق أقل بكثير.

فابتسمت جلالتها قائلة:

- ظننتك فهمتني من البداية أيها الحكيم.. سيتوفر المال بالتأكيد فور توقف الحملات العسكرية.. وكذلك الرجال.. أراك لم تربط بين الأمرين بعد.

فابتسم «سننموت» من دهائها وتابع:

- ليس لنا من قدر حكمتك إلا القليل جلالتك.. لكن هل لي أن أسأل أي الطرق تفكرين في اتخاذها إلى «بونت»؟

وردت مباشرة وكأنها كانت تنتظر سؤاله:

- الأخضر العظيم(٤).

ووقف «سننموت» من المفاجأة، وقلت سائلة وقد هالتني المفاجأة أيضًا:

- هل سنتخذ طريق البحر إلى بونت؟!

- نعم يا «نفرو-رع».. سوف تتخذ البحر شرقًا ثم جنوبًا إلى بونت.. سوف تذهب خمسة من المراكب الهائلة إلى هناك.. وفوق ظهر كل منها مائتان من الجنود البواسل.. وأكفأ الضباط في الجيش.. ولتُحمَّل السفن بالعطايا والهدايا من معبد آمون ومن كل طيبة.. لتعود إلينا بكل غالٍ من تلك الأراضي المقدسة،

٤) البحر الأحمر حاليًا

فقال «سنموت»:

- لكن حمل السفن من طيبة إلى سواحل الأخضر العظيم سوف يستهلك الكثير من الرجال والعتاد والأموال أيضًا.. وربما لن يصبر الكهنة ولا القادة في الجيش على ذلك.

- هذا أمر يمكن تدبيره مع الوقت.

وهنا تدخلت مقترحة وقلت لهم:

- ولماذا نذهب إلى البحر بالسفن.. يمكننا أن نجعله جوارها؟

فقال «سنموت»:

- ماذا تقصدين يا زعفرانة؟

- أقصد أنه بدلًا من مشقة صنع السفن في موانئ طيبة.. ثم مشقة نقلها مع العطايا إلى سواحل الأخضر العظيم.. لماذا لا نقيم ميناء جديدًا على ساحل البحر.. ونقوم بصناعة السفن في الوِرَش البحرية بها.. بدلًا من تلك المشقة؟

ابتهج وجه أمي الملكة بما اقترحت وانفرجت أساريرها، وقالت مخاطبة «سنموت»:

- تباركت لما علَّمته ابنتي من حكمة يا «سنموت» الرائع.. لقد أحسنت وأبدعت في تعليمها.

فردَّ فرِحًا من إطرائها:

- إنما هو نسلكم المقدس بعلم آمون يا مولاتي.. ما علَّمنا إلا ما تعلمناه.

ثم قامت أمي معلنة الاستقرار على ما اقترحتُه، وقالت في ختام مجلسنا قبل أن تنصرف:

- إذًا فقد استقر الأمر على ما اقترحَتْه ابنتنا.. ولتبدأ يا «سننموت» في إنهاء موضوع الكهنة هذا.. ومن الليلة تبيت الأميرات معنا هنا في القصر.

ثم انصرفت فانحنينا لها في إجلال.. وعبس وجهي بعد أن أعادت ذِكر انتقالنا من قصر الأميرات.. وأول ما فكرت فيه هو وجه «حور» الجميل.. ولم أكن أعرف إلى أين سيؤول مصيره.

جاءت غرفتي الجديدة في القصر على شرفة واسعة لحديقة كبيرة في ساحة القصر.. وجواري كانت غرفة ميريت.. وأمام الغرفتين حرس مدجج بالسلاح.. كانت أوامر جلالتها ألا يتركوا أماكنهم مهما حدث.. بينما كان يرافقنا عدد آخر من الجنود والضباط إذا ما تحركنا.. وكانت تحركاتنا كلها قد اقتصرت تقريبًا على معبد آمون للصلاة.

سألت الحكيم «سننموت» بعد ذلك عن مصير «حور» فأخبرني أنه نُقل إلى العمل مع بعض الخدم في ساحة الرماية الخاصة بجنود القصر.. وبعد محاولات جديدة نقله «سننموت» للعمل في حديقة القصر منسِّقًا للزهور في أحد البساتين تحت غرفتي.. وأصبح «حور» أول ما تراه عيني في كل صباح عندما أقف في شرفتي لأقوم بصلاتي إلى القرص المقدَّس للإله المعبود.

بعد أيام هاجم حريق كبير مخازن الغلال في طيبة.. كان هائلًا إلى الدرجة التي جعلته يمتد أثرًا لينال من مخازن القمح والشعير. وكذلك مخازن البخور والعنتيو.. وكما ظنَّت أمي ووعدَ «سننموت». ابتهج أهل طيبة رغم الكارثة، واعتبروا أن ما حدث علامة رضًا من آمون. وذهبوا يقيمون الصلاة شكرًا وامتنانًا للإله.. حتى انتهت الحرائق وأتت على كل ما في المخازن من خير،

واشتعل كهنة آمون غضباً.. بعد أن جاءتهم الأخبار بنفاذ مخزون البلاد من بخورهم المقدَّس.. وأعدوا حملة تطوق البلاد تنذر الناس بالوعد السيء الذي ينتظرهم إذا لم يتوفر لدى معبودهم ما تحتاجه الكهنة من بخور لإقامة الشعائر المقدسة.. وأتوا في حشدٍ كبيرٍ إلى الملكة في القصر.. وبدأوا ينذرون بغضبة الآلهة ويحذرون من شر انتقامها إذا ما جاء يوم ولم تجد المعابد ما تقيم به صلواتها إليهم.. وفاجأتهم أمي الملكة بعرضها الكريم بأن تُوقف بعض الحملات الخاصة بالجيش.. وتستبدلها برحلة كبيرة إلى بلاد «بونت»(*).. وقالت جلالتها إنها مستعدة لبذل كل التضحيات في سبيل إرضاء آمون وإسعاد كهنة معبده المقدس.. فعاد الكهنة يملأهم الحبور بعد قرارها هذا الذي صاغته بدهائها في صورة اقتراح. وركع لها كبيرهم في إجلال معلناً رضاءهم الأبدي عن مُلكها.. ولم يبدِ أي من كان في المجلس تذمرًا سوى «تحتمس» ابن أبي الجالس جوار أمي الملكة على العرش.. وقد ساءه ما عرضته أمي بِشأن إيقاف الحملات الخارجية الخاصة بالجيش.. لكنه لم يعلن عن ذلك صراحة.. وبعد أن انصرف الكهنة مسرورين بما قالته لهم الملكة أشارت إلى الملكة أن أنتظر مع «تحتمس» وصرفت الجميع بمن فيهم «ميريت» و«سننموت».. ثم أشارت لنا بالجلوس وقالت مخاطبة «تحتمس»:

- المجد لك أيها الملك ابن الملك العظيم.. أما آن لك أن تستقر فوق عرشك وتنعم بمُلكك؟

ثم أكملت وهي تنظر إليَّ:

(*) بلاد كانت تطل على البحر الأحمر، لا يوجد إجماع بين العلماء على مكانها المؤكد ولكن أغلب الظن أنها في سواحل شمال غرب الصومال

- وإلى جوار الملكة القادمة للأرضين.. «نفرو-رع» ابنتنا.

ابتهج وجهه وانفرجت أساريره بعد أن كان عابسًا فور إعلان الملكة إيقاف حملات الجيش الخارجية.. ثم اقترب منها ومال على يدها في خشوع مبديًا ولاءه وامتنانه الشديد بعرضها.. ولم يكن هذا التبجيل الشديد واردًا بينهما من قبل. فرغم أنها ما زالت واصية عليه إلى الآن.. لكنه في نهاية الأمر كان الملك الفرعون الذي ينتظره الجميع تقريبًا.

أبدت أمي راحة كبيرة بعد خضوعه لها بتلك الطريقة ووضعت يدها بعد ذلك فوق رأسه مباركة وجوده.. ثم سألتني في حزم:

- مالك لم تنطقي بشيء يا «نفرو- رع».. هل ترين شيئًا آخر غير ما تراه الملكة؟

وكان «تحتمس» ينظر إليَّ منتظرًا ردي في جوع إلى جسدي وإلى العرش من بعده.. وكنت قد لاحظت أن نظراته الجائعة إليَّ هذه قد زادت في الفترة الأخيرة ومنذ جئنا لنقيم معه ومع أمي الملكة في القصر.. لم أستطع أن أرد على جلالتها بشيء فالتزمت الصمت.. لكنها صاحت في حزم أكبر:

- تكلمي يا زعفرانة..

فرددت في جمود :

- ما تراه مولاتي دائمًا هو أمرٌ مقدس

إلا أنها لم يبدُ أنها قد اكتفت بردي الجاف هذا فتابعت تسأل وقد بدأ الغضب يغزو صوتها:

- مالي أراكِ غير مبتهجة بقراري.. هل لك من رأي آخر غير رأي الملكة؟ إن كان كذلك فلتتكلمي الآن.

- لو تسمح لي جلالتها.. أريد أن أتكلم معك وحدنا..

ونظرتُ إلى «تحتمس» في مقتٍ لم أفلح أن أخفيه.. فهرب شرٌ من عينيه الحادتين ثم انصرف قبل حتى أن تأذن له الملكة.. واقتربت أمي من بعدها وكلها غضب وصاحت:

- ماذا دهاك يا «نفرو»؟ هل أفسد الشعر والموسيقى عقلك؟ لماذا تنبذين أخاك الملك هكذا؟

لم أستطع أن أرد عليها في وسط صياحها.. وبقيت نِي صمتي غارقة لا أفكر سوى في الهروب إلى غرفتي.. إلا أنها أصرت أن تستنطقني وعادت تسأل لكن في لهجة أقل حدة قائلة:

- تكلمي يا ابنتي.. أنتِ لا تخفين عني شيئًا.. أليس كذلك؟

وقامت تتمشى في هدوءٍ وهي تفكر قبل أن تقول مازحة:

- أم أنه قد أفسد لك الصبي الأصم قلبك؟ ماذا كان اسمه؟

ارتبكت من كلامها ثم قلت بصوت خافض وكلي خجل:

- أتقصدين «حور» جلالتك؟

فاقتربت مني ووقفت إلى جواري واضعة يدها فوق شعري وداعبت خصلته الصفراء بأصابعها وقالت:

- لم يعد لكلمة «جلالتك» معنى الآن.. نحن الآن أم طيبة وابنتها الجميلة.. لتحكي لِي دون قلق.

ترددت قبل أن أتكلم إلا أن عينها التي كانت تنظر إليَّ في حنو بالغ شجعتني على الكلام فقلت:

- أتعلمين يا أمي أنني أذكرك أنتِ وأبي عندما كنت صغيرة.. قبل أن يتركنا ويرحل إلى نعيمه الأبدي.. أعلم أنني كنت صغيرة وقتها لكني أذكر جيدًا كيف كنتما تجلسان في بهجة طوال الوقت.. وكيف كان يحبك ويجلك.. وأعلم أيضًا كم كنتِ تحبينه.. وكم بكيتِه في صمت رغم إخفائك هذا عنا طوال الوقت.

بدأ حزن يزور عينها فور أن أتيت على ذكر أبي الملك الراحل ولم ترد عليَّ.. ترددت قليلًا قبل أن أتابع قائلة:

- بل إنني أعلم دون الجميع لماذا تقسين على «ميريت» من وقت لآخر.. لأنها تذكرك برحيله الذي كان وقت قدومها.. رغم أنه لا ذنب لها في ذلك سوى الذكرى.

ردت بسرعة:

- أنا؟ أقسى على «ميريت»؟

- نعم يا أمي.. يحدث هذا كثيرًا.. أنتِ لا تلاحظين نفسك.. أعلم أنها كثيرًا ما تكون مزعجة وكثيرًا ما تبدو أنانية في تفكيرها.. لكن ألم تفكري أن هذا ربما يكون سببه هو معاملتك القاسية لها.

بدا حزنها جليًا وهي تقول لي:

- اصمتِي يا «نفرو».. اصمتِي يا ابنتي.. أنتِ صغيرة لا تفقهين شيئًا.

- كما تشائين.. لكنني فقط كنت أطلب منك ألا تحرمي ابنتك من سعادة مثل التي عشتيها مع أبي.. وأنت تعلمين كل العلم أن ذلك لن يكون مع غليظ القلب هذا.

ـ ولمن تترك الحكم؟ لقد كبر «تحتمس».. وفي غضون عام سوف يحكم البلاد وحده.. وإن لم تكوني إلى جواره فسوف ينعم العرش لنفسه.

ـ وما في ذلك؟ أليس هو ابن الملك؟

ـ فيه الكثير.. ألم أقل لك أنت لا تفهمين شيئًا.. إن حدث ذلك واستقل بالعرش سوف وحده سوف يأخذ البلاد إلى حروب طويلة لا تنتهي.. وهذا ما أخاف على البلاد منه.

ـ وما الغريب في ذلك؟ «تحتمس» وإن كنتُ لا أطيقه إلا أنه سيكون قائدًا قويًا. فهو الآن محارب بارع ويعلم الجميع ذلك.. وإن استقل بالبلاد في الحكم سيكون ملكًا قويًا.

ـ هذا غير حقيقي.. إن أصبح ملكًا قويًا سيكون هذا بفضل حكمتي وحسن تدبيري.. وأنا أخشى أن يأتي ليضيع كل هذا في حروبٍ لا نحتاجها.. كما أنه ليس من دم ملكي صافٍ ولا بُد له من الزواج من ابنة الملك حتى يسمح له الكهنة بتولي الحكم ويدينون بالولاء لحكمه.

قلت في ضيق:

-الدم الملكي.. الدم الملكي.. فليتزوج من «ميريت» إذًا ما دام الأمر بتلك السخافة.

فردَّت أمي في سرعة:

ـ لا.. هذا لن يكون أبدًا.. كما أن أختك لا تزال طفلة..وهو لن ينتظر كل هذا الوقت..

ثم بقينا في صمتٍ طويلٍ وقد انتهى الكلام إلى غير نتيجة قالت بعدها أمي في شرود:

- لا بُد أن نجد حلًّا قبل أن يأخذ الأمر مأخذ النزاع.. لا أريد صراعًا بين أبناء عائلتي.

وعادت إلى الكرسي وألقت بجسدها عليه في همٍّ وأشارت إليَّ أن أذهب فانطلقت حزينة إلى غرفتي.

بعد أسبوع كنت في غرفتي أبحث من نافذتها عن «حور» كي أسرّ ناظري به لكني لم أستطع أن أجده في البستان.. وكان القصر كله في حالة تأهب شديدة استعدادًا لإرسال البعثة التجارية إلى «بونت» وما كدّر هذا التأهب والحماس إلا ما علم به «تحتمس» من رفضي للزواج منه. وأخبرني «سننموت» أن أمي سربت خبر رفضي الزواج من تحتمس إلى كهنة المعبد.. وكانت تحاول أن تدرس ردة فعلهم بعد خبرٍ كهذا.. وإرباكهم بذلك وسط انشغالهم بشأن الرحلة الكبيرة المنتظرة إلى بونت.

جاءني إفطارٌ لم أطلبه في الصباح.. وضعه أمامي أحد الجنود المكلفين بحراسة الغرفة.. وقبل أن يذهب، أخبرني أن أمي الملكة هي من أمرت بذلك.. وعندما همَّ بالانصراف اندفع «حور» فجأة إلى داخل الغرفة متجاوزًا الضابط والحارس الآخر الذي أمسك به في عنفٍ قبل أن يصل إليَّ.. وكنت ممسكة بكأسٍ من الحليب الدافئ وأهم أن أتناوله.. عندما صاح «حور» مفاجئًا الجميع:

- احترسي يا مولاتي إنه كأس مسموم.

نظرت إليه غير مصدقة أن هذا الصوت كان خارجًا من فمه، وأنه مثلنا يستطيع أن يتكلم، وأفلت بصعوبة من بين ذراعي الحارس ودخل إلى الغرفة فدفع الكأس من بين يدي.. وحاول الحارسين والضابط أن يحاصروه وأخذت أنا في الصراخ منادية على أمي وعلى «ميريت».. وعندما لم يجد «حور» أي مهرب، قفز من شرفة الغرفة العالية إلى حديقة القصر.

***

(٧)

يحيى

أنهيت قراءة البرديات للمرة الثانية بعد ترجمتها، وأخذت أقلبها بين يدي غير مصدقٍ أنها انتهت عند هذا الحد، وغير مصدق لما هو كائن بين يدي من أسرار لم يقرأها أحد غيري حسب ما أعرف وما وصلني من دراستي للتاريخ.

. أحقًّا كتبت هذه البرديات الأميرة «نفرو- رع» بنفسها؟ تلك الأميرة التي اختفت تمامًا من صفحات التاريخ بعد أن تولى الملك المحارب «تحتمس الثالث» الحكم خلفًا لحتشبسوت زوجة أبيه.. ولم ترد أي مصادر لتوضح مصير بنات الملكة بعد رحيلها.

بقيت واقفًا على حالي متوترًا كذيل عقرب متحفز من عقارب المكان المنتشرة في الكامب.. وكانت ساعات النهار الأولى قد حلت ومر الليل كله عليَّ في ترجمة البرديات حتى إنني لم أشعر بالليل وهو يمر من حول الغرفة.. وصرت أفكر ما الذي يجعل الأميرة «نفرو- رع» تدوِّن هذا الجزء فقط من سيرتها.. وبدأ فضولي البحثي يأكلني حتى صرت ألف في الغرفة كالمجذوب.. وأخذت أسأل نفسي كيف ومن أين لياسمينا أن تأتي ببرديات أثرية خطيرة وهامة كهذه؟!

أتكون قد جاءت بها من إحدى العائلات الأوروبية المتخصصة في سرقة واقتناء الآثار من مصر منذ العهد القديم؟ عندما كان الأجانب يدخلون ويخرجون بالقِطَع الأثرية من مصر على مرأى ومسمع من العالم كله.. ورأس الملكة «نفرتيتي» في برلين خير شاهد على تلك الواقعات المشينة لسرقة شواهد ذلك التاريخ العظيم.

لكني عدت لأقول إنه حتى لو كانت ياسمينا قد أتت بها من بلادها.. فكيف لها أن تدخل وتخرج بها من المطارات؟ هذا ليس بالأمر السهل.. لكنه ربما يكون ممكنًا وأنا الذي لا يعلم.. كما أن هذه البرديات لو كانت موجودة من قبل فلا بُد وأن أكون قد سمعت عنها بأية صورة.. ولو مجرد سماع. من الممكن سرقة وإخفاء البرديات. لكن حكاياتها وأسرارها مستحيل إخفاؤه. فهم اكتشاف في حد ذاته يساوي ثروات.

أخذني التفكير في البرديات كثيرًا وبعد تفكير طويل وجدت أن كل الطرق لا بُد وأن تؤدي إلى ياسمينا في النهاية.

ترددت كثيرًا وأنا أفكر في الاتصال بها.. لكني أيضًا قلت مبررًا الاتصال لنفسي أنني لن أصل إلى أي شيء دونها.. لا بُد من سؤالها عن البرديات.. هي وحدها من تملك الإجابة.. ثم عدت لأقول أنه يمكنني أن أسلِّم البرديات إلى المتحف المصري.. ويتولى هو مسئولية البحث عن المصدر.. وعن بقية الرسائل إن وجدت، خاصة وأن مقبرة الأميرة نفرو-رع التي اكتشفت في وادي المَلوك كانت فارغة.. مثلها كمثل معظم مقابر الملوك والأُسَر الحاكمة في العصور القديمة.

نبذت فورًا فكرة تسليم البرديات مباشرة إلى المتحف هكذا.. فأنا لست بمواطن عام وجد أثرًا لا يفقه معناه وقرر أن يسلمه..

أنا أثري مصري.. وقد جاءت هذه البرديات إلى يدي لسبب لا بُد أن أعرفه.. ونظرت إلى انعكاس واضح لوجهي في المرآة وسألت: هل أتحجج بذلك للاتصال بياسمينا ومحاولة رؤيتها مرة أخرى؟ وطردت السؤال من رأسي مباشرة.. وقد كان وجه زينب معي في نفس المرآة.. وكان ساكنًا على غير عادتها.. وأخذت أنظر إليها في صمتٍ منتظرًا اي إشارة أهتدي بها وعلى أثرها أقوم بالتصرف السليم.. لكنها ظلت ساكتة وكأنها تحملني مسئولية كاملة لما قد أفعله.

في النهاية حسمت أمري، وقمت بالاتصال بياسمينا.. وردت هي بسرعة شديدة إلا أن صوتها جاء حزينًا.. لكن فيه فضول وقالت:

- هل قرأتَ ما في البرديات؟

- من أين أتيت بهذه البرديات الملكية ومن أعطاها لك.. هذه البرديات أصلية.. ألا تفهمين؟ مر عليها أكثر من ثلاثة آلاف عام.. كيف وصلت إليك؟

ردت في تعجب من قولي:

- برديات ملكية؟! هذا غريب.. سأخبرك بكل ما تريد لكن هذه حكاية طويلة.

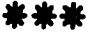
ترددت وأنا ممسك بالهاتف واستدرت ناظرًا إلى المرآة خلفي وكانت الشمس قد أشرقت على الكامب وبدا النور الشديد من الخارج حول الغرفة واضحًا.. قلت في النهاية:

- سأنتظرك إذًا.

- سأتحرك فورًا.

وأنهيت المكالمة.. ولم أعرف لم انتابتني حالة من البهجة فور إنهائي المكالمة.. هل هي البرديات؟ أم أنها ياسمينا؟

وبقيت انتظرتها وأنا أفكر مرارا في البرديات حتى سمعت صوت السيارة أمام باب الغرفة فأسرعت لأفتحه.. ووجدتها أمامي وكانت عيناها منتفختين كعيني باديًا عليهما السهر.. وتأكدت أنها لم تنَم ليلتها مثلي.. ولمحت عارف في نهاية الطريق ينظر إلينا بفضولٍ شديدٍ.. ولم أشر إليه بأية تحية ودعوت ياسمينا إلى داخل الغرفة ثم أغلقت الباب خلفها.



(٨)
ياسمينا

عزيزتي بيلا:

كانت الليلة حُلمًا جميلًا يا حبيبتي.. لكنها سريعًا ما تحولت إلى كابوس مزعج مثله مثل حياتي كلها.. لقد تعبت يا أمي.. تعبت من معاندة الحياة لي بهذا الشكل المرهق.. واستنزفني سوء حظي الليلة لأبعد الحدود حتى كدت أيأس بعد أن أحياني يحيى وزرع الأمل داخلي بأن يكون لي حياة طبيعية.

ذهبنا الليلة سويًا يا بيلا الحبيبة إلى عُرسٍ مبهج في قرية نائية بعيدة وسط الجبال.. قرية جميلة وبسيطة بعيدة عن ضوضاء المدينة القاتلة.

في العُرس تزينتُ مع النسوة.. من أجل يحيى فقط وتمنيت أن يراني جميلة.. وأحسست بذلك عندما رأيته ينظر إليَّ في حب وغزل.. فأيقظ داخلي كل ما مات منذ سنين.. أو هكذا كنت ظننت.. وانطلقنا نرقص سويًا وكنا نرقص يا بيلا وكأننا نحن العروسين.. وكأن العُرس في القرية قد أعدَّ لنا لا لغيرنا.. وكان يحيى يمسك بيدي وكأنني حبيبته التي يعشقها.. وكنت أذوب أمامه كلما نظر في عيني وأنا أدور حوله وأكاد أحلّق كالطير من نشوة الرقص.. وبعد أن عدنا

إلى الاستوديو وصرنا وحدنا أخيرًا أخذت أفكر فيه يا أمي وأتمناه لنفسي.

سألت نفسي يا بيلا لماذا لا أكون مثل باقي الفتيات أعشق أحدهم ويعشقني هو الآخر؟ لماذا كُتب عليَّ هذا السفر الطويل وتلك الوحدة المهلكة؟ ولماذا منحني الله هذا الجمال وتلك المشاعر ثم حُرمت من الاستمتاع بها مع رجلٍ أحبه؟! خاصة بعد أن انتهى أمر ذلك النزيف وأحسست أن تلك اللعنة قد غادرتني بعد أن عرفت يحيى.. ورغم أنني لم أجد لذلك سببًا إلا أنني وجدتني قد أحببته حقًا.

نعم يا بيلا.. الآن أعترف لك دون أن أخفي عليكِ ذلك.. لقد أحببت يحيى منذ رأيته للمرة الأولى في البازار.. وأحبَّته دمائي قبل أن يحبه قلبي.. ولا أريد أن أعرف السبب.. كل ما أريده الآن هو يحيى فقط.. وقد أضعته بغبائي يا بيلا.

نسيت الكتب التي كنت أحاول أن أفهم منها ما كُتِبَ في تلك اللفائف الملعونة. والتي أخبرني زين أن يحيى هو من سيساعدني على فهم أسرارها وما كانت تسعى إليه جدتي روز. لكنني في النهاية لم أصل لشيء. وها هو يحيى أيضًا قد رحل.. مثله مثل جدتي.. ومثلك.

عدتُ إلى وحدتي من جديد يا أمي.. لكني لا أحتمل أن يتركني وهو يظن أنني كنت أخدعه تلك الأشهر السابقة.. سوف أذهب إليه الآن.. فأنا لا أستطيع أن أجلس وحدي هكذا وأتركه ليظن بي الظنون.

سامحيني يا بيلا.. سوف آخذ إليه اللفائف. وأتركها بين يديه.. عساه يصدق أنني لم أكن أنوي به غدرًا.. وربما استطاع أن يجيب عن السؤال الذي كانت تسعى إليه روز طيلة هذه السنوات..

أو على الأقل.. عسى أن أراه لمرة أخيرة قبل أن أعود من جديد إلى وحدتي القاتلة.. أدعو الله أن يكون زين صادقًا فيما قال. وألا يخيب يحيى ظني فيه.

أحبك يا بيلا.. أحبك وأفتقدك وأحتاجك كثيرًا الآن

ابنتك المخلصة والوحيدة.. ياسمينا.

***

لم أحتمل نظرات يحيى إليَّ عندما ذهبت إليه وتركت له اللفائف.. كنت أفكر طوال الطريق أن ألقي بنفسي بين ذراعيه.. وأحكي له كل شيء.. أحكي له عن أنطوان وعن اختفاء روز، وعن موت بيلا، وعن فيليب، وعن نزيفي الطويل الذي لم ينتهِ إلا على يديه.

إلا أن نظرته لي أمام غرفته ألقت بكل أحلامي أرضًا.. وزرعت مكانها بؤسًا وإحباطًا قاتلين.. ولم أستطع أن أقل له أي شيء. تركت اللفائف بين يديه ورحلت. وأخذت أبكي طوال الطريق من الكامب إلى الاستديو. وعندما عدت إلى غرفتي وكانت أنوارها مغلقة ندمت على تركِها كذلك قبل رحيلي وانتويت أن أعود إلى طقوس الوحدة من جديد. وقضيت ليلتي أفكر فيه. وسألت نفسي في خوفٍ شديد: هل أكون قد فقدته بغبائي؟

طوال الفترة التي عرفت فيها يحيى أدركت من كلامه القليل انعدام ثقته بالآخرين إلى حدٍّ كبيرٍ.. ثم جئت أنا وبمنتهى الغباء لأؤكد له شكوكه وأفقد ثقته إلى الأبد.

لكنني لم يكن لدي اختيار.. ما الذي كان يجب عليَّ أن أفعله؟ لقد ذهبت إليه كما طلب مني زين.. ولو كنت أخبرته بذلك من البداية لما كنت استطعت أن أتقرب إليه هكذا.. وكان انجذابي إليه

من البداية أقوي بكثير من فضولي ولهفتي لمعرفة سر هذه اللفائف وما كُتب فيها.

كنت أرى الحب الصادق في عينيه الليلة في الجبل ونحن نرقص سويًا.. ربما للمرة الأولى في حياتي.. وللمرة الأولى أيضًا أشعر بكل هذا القدر من الانجذاب والأمان معًا في نفس الوقت تجاه رجل.. رجل كان يعاملني دون أي طمعٍ في شيء.. دون رغبة واضحة أو كامنة في استغلالي. كان كل ما يطلبه هو الرفقة فقط. وكانت كل ما أحتاجه في البداية. لكنها الآن لم تعد تكفي.. أردته لي كاملًا.. فضاع مني وضاعت صحبته.

الآن أعود إلى الليالي الحزينة المليئة بالوحدة.. لأكمل رحلتي في هذه الدنيا حتى أموت دون أحدٍ جواري.

أخذَتْ الساعات تمر عليَّ وتأكل في روحي بنهم وشراسة، وجاء نور الصباح وأنا ما زلت يقظة أندب حظي ولعنتي التي لُعِنت بها ولم أعرف لها سببًا.. حتى جاء اتصال يحيى ليعيد لي الأمل من جديد.. قال أشياء غريبة لم أفهمها عن برديات ملكية وكان قليل الكلام ولم أفهم معظم ما قاله.. ولم يكن يهمني شيءٌ مم يقول.. كنت فقط أود أن أعرف ما علاقة هذا كله بي.. وما كان يهمني أكثر أنه اتصل في النهاية.. وكان هذا يكفيني. وذهبت إليه بعد اتصاله مباشرة.

فور أن دخلت إلى غرفة يحيى بالكامب وجدت وجهًا مرهقًا وقد بدا عليه السهر.. وعلمت أنه لم ينم ليلته أيضًا.. وبدا لي أن عينيه كانتا دامعتين وليس مجرد إرهاق.

تفحصت غرفته بعيني ولم أكن قد دخلتها من قبل.. فالمرات القليلة التي كنت أقابله فيها أمامها عندما نكون سويًا في الكامب

كان دائمًا ما يطلب أن أنتظره في كافيتيريا وادي حبيبة.. وكنت أشعر أنه يتعمد إبعادي عنها قدر المستطاع.

كانت غرفته صغيرة لا أثاث فيها تقريبًا سوى مقعد صغير أمامه طاولة خشبية يبدو عليها القِدَم.. وعليها عدد كبير من أقداح القهوة القديمة.. وعدد من علب السجائر الفارغة.. وعلى المنضدة كانت اللفائف مرصوصة في عناية شديدة وجوارها أوراق أخرى مبعثرة بدت لي أنها ما كانت يعمل فيها على الترجمة.

جلس يحيى على الفراش قبالتي تاركًا الكرسي الوحيد كي أجلس عليه، وسألني في لهجة جافة ولم يكن ينظر إليَّ:

- احكي لي.. كيف وصلتك هذه البرديات؟

أقلقتني لهجته الجافة رغم توقعي لها، لكنني كنت قد جئته في حنين فخرج صوتي مهزومًا وقلت:

- لم تصلني.. إنما أنا التي سعيت إليها.

- لا أفهم.

- الأمر كله كان غريبًا من بدايته.. لكن أخبرني أولًا ما الذي وجدته في هذه البرديات وجعلك تتنازل هكذا وتتصل بي؟ ظننت أنك سوف تبلغ عنّي شرطة الآثار..

- ما زال هذا الاحتمال قائمًا.. عندما أعلم كل شيء سوف أحسم هذا الأمر.

- لهذه الدرجة!

- أكره الكاذبين يا ياسمينا.. وقد أخبرتك بذلك منذ التقينا.

أهانني رده، فقلت في حدة:

- وأنا لم أكذب عليك يا يحيى.

- بم تفسرين هذه البرديات إذًا؟

- لم أكذب عليك في ذلك.. لقد أخفيت الأمر عنك فقط.

قال في سخرية:

- يختلف الأمر.. حسنًا، وهل كنتِ صادقة عندما قلتِ إنك هنا في إجازة؟ أم إنك أخفيت هذا الأمر أيضًا؟!

نظرت إليه في لوم شديد وقد آلمني ما يتهمني به ولم أجد لسؤاله ردًا فقد كان صائبًا في كذبي عليه بشأن السبب الحقيقي لوجودي في الغردقة.. فقلت له:

- السبب الحقيقي لوجودي هنا كان أنت.. ولم يكن في استطاعتي أن أخبرك بهذا منذ البداية وقبل أن أعرفك جيدًا.

ردَّ في تعجب:

- أنا؟ وما شأني بكِ؟

- سوف أخبرك.. لكن قل لي أرجوك ما الذي تحتويه هذه البرديات؟ لقد أخبرتك أن جدتي روز ماتت وهي تحاول أن تفهمها.

نظر إليَّ يحيى طويلًا وكان كالعادة يمرر كلامي على جهاز كشف الكذب الكامن في رأسه.. ولما تأكد من صِدق قولي نهض متثاقلًا، وتناول إحدى البرديات من فوق الطاولة التي كانت أمامي بعد أن أخرجها بحرصٍ شديدٍ وكأنه يقوم بعملية جراحية.. ثم فرد البردية بلطفٍ شديدٍ فوق الطاولة وأشار إلى مربع مزين داخله أحد الرموز التي قضيت ساعات طويلة في محاولة ترجمتها ولم أستطع وقال وهو يشير إلى مجموعة من النقوش:

- انظري هـذه الكلمـة «نفـرو- رع» وتعنـي جميلـة الإلـه رع، إله قرص الشمس المعبود عند المصريين القدماء.. وهـذا المستطيل المطوَّل هـو الخرطـوش الملكـي لصاحبـة البرديـة.

أعجبَتني طريقتـه وهـو يـشرح لي في سـهولة مـا كان بارعًـا فيـه. وتملكنـي فضـول نحـو مـا يقـول حتـى كـدت أنسـى حدتـه السابقة في طريقـة كلامـه وسـألت:

- ومَن «نفرو- رع» هذه؟

- «نفـرو- رع» هـي الابنـة الكـبرى للملكـة «حتشبسـوت».. أهـم ملكة في التاريـخ المـصري القديـم، وفـترة حكمهـا هـي الفـترة الأكثـر طـولا في فـترات حكـم النسـاء في تاريـخ مـصر القديمـة كلـه.

- وما هي قصة «نفرو- رع» هذه؟

عاد يحيى ليجلس على فراشه في تفكير قائلًا:

- لا أحـد يعلـم إلى الآن.. هـذه الأمـيرة كان مـن المفـترض أنهـا وريثة أمهـا الملكـة «حتشبسـوت» في ملـك مـصر.. كانـت الابنـة الكـبرى ومن دمـاء ملكيـة خالصـة لأبيهـا «تحتمـس الثـاني».. ومـن المفـترض أنهـا هي مـن شـاركت الحكـم مـع أخيهـا «تحتمـس الثالـث» وكان أخاهـا لأبيها من إحـدى محظيـات والدهـا.. لكنهـا اختفـت مـن كل النقـوش والبرديات فجـأة وهـي بعمـر السادسـة عـشر.. وكانـت مقبرتهـا خاليـة كمعظـم مقابر الملـوك التـي نُهِبَـت في عصـور كثـيرة لاحقـة.. حتـى تماثيلهـا لا يوجد لها أي أثـرٍ تقريبًـا.. لا يوجـد لهـا سـوى تماثيـل وهـي طفلـة مـع مربيهـا وزير قـصر آمـون المعلِّـم والمهنـدس المعـماري «سـننموت».

بـدأ الفضـول يتنامـى في داخـلي بينـما كان يحيـى مندمـجٌ تمامًـا وهو يحكـي لي وكأنـه يلقـي محـاضرة لمجموعـة مـن الطلبـة.. فسـألته:

- وماذا حدث لها بعد ذلك؟

- قلت لك.. لا أحد يعلم.. اختفت من صفحات التاريخ.. تبخرت مثل الماء..ومن المفترض أن نقول هذه البرديات ما حدث.

- وهل قالت شيئًا؟

- قالت الكثير.. لكنني لن أخبركِ بأي شيءٍ قبل أن أعرف الآن كيف وصلت هذه البرديات إلى يديك.. أنت لا تدركين قيمة هذه البرديات.. قد ينقلب التاريخ بعد معرفة ما فيها.

تنهدتُ طويلًا ونظرت إليه ثم قلت في صبرٍ:

- سأخبرك بكل شيء..

***

قال لي «زين» ونحن على متن القطار المتجه إلى الأقصر:

- لم تحكِ لي روز هانم بالتفصيل نَص الرسالة التي بعثتها إليها أختها الدكتورة تريز رحمها الله.. كل ما فهمته منها أنهما كانتا على تواصل طوال سفر جدتك. وأن أختها الدكتورة «تريز» ترجمت قصاصة ما وطلبت منها الذهاب إلى مكان في بالأقصر.. وعادت جدتك بعد وفاة الدكتورة مباشرة. وكنت خادمًا للدكتوره تريز منذ جئت إلى الإسكندرية هربًا من ثأرٍ قديم.. وقد كان لها فضل كبير عليَّ حيث آوتني ووفرت لي عملًا في «فيلًا» أنطوان باشا.. وأوصتني على جدتك قبل أن تموت.. وطلبت مني أن أنتظرها لأنها ستأتي عما قريب.. وكانت متأكدة أنها سوف تعود.. رغم أنني منذ عملت في الفيلا لم أسمع عن روز هانم إلا القليل.. وبعد أن جاءت من اليونان وقضت بعض الأيام في غرفة الدكتورة تريز تفتش فيها، أخبرتني أنها

ستسافر إلى الأقصر.. وسألتني أن أذهب معها فوافقت على الفور رغم علمي بخطورة ذلك على حياتي.. وكان موضوع الثأر هنالم يبرد بعد.

نظرت إلى وجه زين العجوز أتفحصه في فضولٍ بالغ وهو يحكي، وكان يذكر كل شيء وكأنه كان بالأمس فقط وسألته:

- ظننت أن موضوع الثأر هذا مقتصر على الصعيد وليس للنوبة علاقة به.

فابتسم في طيبة وظهرت أسنانه النخرة وقد بدت عليها آثار التدخين الطويل، وقال:

- الثأر موجود في كل مكان في مصر.. وموضوع النوبة هذا كان كذبة اخترعتها لكي أجد أي عملٍ عندما هربت من قنا قبل سنين طويلة.

- أتعني أنك لست نوبيًّا؟

- لا يا ست ياسمينا.. أنا قناوي من قوص.. أعني كنت.. سامحهم الله.

ثم صمت طويلًا وبدأ أسى يغزو وجهه بعد أن كان يبتسم منذ دقيقة واحدة فسألته أن يكمل فتابع:

- وصلنا بعد ليلة سفر طويلة إلى الأقصر.. وكان السفر شاقًا تلك الأيام ليس يسيرًا مثل الآن.. كنت قد تجاوزت الثامنة عشرة بقليل، وكانت روز هانم في ترقب وقلق طوال الوقت.. كنا في شهر مارس. ولم يكن قلقي من المجهول الذي أذهب إليه مع جدتك تنفيذًا للوصية.. لكنني كنت خائفًا من منظرنا الملفت لكل من يرانا..

وتنبأت أن عودتي من الأقصر سالمًا لن تكون سهلة لكنني لم أستطع أن أدعها تذهب وحدها في سفرها هذا.. وعندما وصلنا أقامت في بانسيون صغير جوار محطة القطار.. وكانت الوقت عصرًا.. ووضعنا حقائبنا في غرفتينا ثم توجهنا مباشرة إلى البر الغربي للنيل.. وذهبت جدتك إلى أحد المعابد وأخذت تسأل أحد المرشدين بعض الأسئلة ثم توجهت إلى إحدى الواجهات الشرقية للمعبد، وكانت ممسكة حقيبة لم تتركها من يدها منذ تحركنا.. ففهمت أن هذا هو المكان الذي طلبت منها الدكتورة تريز أن تذهب إليه.

ظلت على حالها هذه حتى حل الغروب.. ولم يحدث شيء ثم عدنا إلى البانسيون.. وفي نهار اليوم التالي ذهبنا إلى نفس المكان.. وظلت واقفة مكانها لا تتركه.. وأحضرت لها مقعدًا صغيرًا عندما فهمت منها أن الانتظار سوف يطول. وبقينا على نفس الحال إلى نهاية اليوم.. وفي اليوم الخامس جاءها أحد الرجال ووقف معها لدقائق قليلة وكانا يتهامسان فلم أسمع منهما أي شيء.. لكن جدتك بعدها طلبت مني أن أذهب معهما إلى «نجع الحسينات».. ولم يكن لي أن أرفض لها أمرًا.. فعبرنا النيل عائدين إلى ضفته الشرقية.. وبعد ساعة كنا في بيت «آل عواد».. وجلست أنا في صحن الدار مع مسعود الابن الكبير لهم.. بينما بقيت جدتك مع الشيخ عواد الكبير.. وظلا سويًا لمدة ساعة خرجت جدتك بعدها وتحركت أنا وهي ومسعود إلى مدافن البلدة.. وغاب مسعود بالداخل لفترة كبيرة حتى كانت الشمس قد قاربت المغيب ثم عاد بلفافة مطوية ناولها للسيدة روز ووقفا يتكلمان لفترة ثم عدنا إلى البانسيون.. وقبل أن تصعد إلى غرفتها أعطتني خطابًا وطلبت أن أرسله إلى ابنتها في اليونان إذا حدث لها أي مكروه..

وكان وجهها تعبًا ولا يطمئن.. ثم أخبرتني أننا سنتوجه إلى سفرٍ آخر بعد يومين.

فسألت زين:

- سفر آخر.. إلى أين؟

- هذا ما لم أعرفه من جدتك أبدًا.

- ماذا تقصد؟

- في اليوم التالي انتظرت أن تناديني لكنها لم تفعل.. انتظرت كثيرًا ثم بدأ قلقي عليها يزيد.. ولم أعرف ماذا أفعل.. وبعد أن طال انتظاري تجرأت ودخلت غرفتها.. فوجدتها غارقة في دمائها وقد فارقت الحياة.. فارتعبت ولم أدرِ ماذا أفعل.. وكانت اللفائف معها جوار فراشها.. وعندما رأيتها عرفت أنها أثر لشيء ما لكني لم أفهمه.. ولم يكن من أحدٍ أعرفه قد يساعدني في تلك الورطة سوى «آل عواد».. فذهبت إليهم مستغيثًا.. ولما علموا وجدتهم وكأنهم لم يفاجئهم الأمر في شيء.. جاء معي مسعود وكان معه رجلان آخران واستأجرا غرفة في نفس البانسيون. ودخلا إلى المكان بحقيبة كبيرة فيها ملاءة ضخمة وطلبا مني أن أنتظرهما في موقف المحطة بعيدًا عن البانسيون.. وفي نهاية اليوم جاءني مسعود وأخبرني أنهم أخرجوها هي واللفائف كلها التي كانت معها من الغرفة.. وقال أنها الآن مسئوليتهم وحدهم.. وطلب مني أن أعود حيث جئت.. وقال إن يومًا ما سوف تأتي ابنتها لتأخذ الأمانة.. ولم أفهم ما الذي كان يقصده بتلك الأمانة وقتها.. أهي اللفائف أم كان يقصد جدتك نفسها؟. وذهبت إلى محطة القطار وكلّي رعب مما ينتظرني وما سوف أجده في فيلا أنطوان من تساؤلات

حول مصير ابنتهم وما حدث لها.... وقبل ذهابي إلى الفيلا قمت بتنفيذ الوصية الأخيرة التي طلبتها مني جدتك في البانسيون ليلة رحيلها.

فهمت بالطبع ما يعنيه وقلت:

- قمت بإرسال الخطاب إلى أمي بيلا في اليونان.

- للأسف.. وكان دليل براءتي الوحيد لدى أهل جدتك.. كان الدليل الوحيد؛ فقد كان مكتوبًا بخط يدها.. ولا أعلم لمَ تأخر هذا الدليل كل هذه السنوات؟ وعندما عاد للظهور كنت هاربًا مشردًا بين تهمة بالقتل وثأر قديم.

تذكرت ما حدث بين بيلا وأبي منذ خمسة وعشرين عامًا.. وقلت لزين:

- لم تتسلم أمي الخطاب بيدها للأسف.. وإنما تسلمه جدي فيليب ولم يعطه لها إلا عند وفاته.. قالت لي أمي إنه لم يصدق ما كان فيه وعندما سافر بنفسه إلى الإسكندرية شبَّت مشاجرة بينه وبين خالها أنطوان.. وكنت أنت قد اختفيت وقتها ولم يستطع جدي أن يصل إليك.

- وماذا كان يوجد في هذا الخطاب؟

- كانت جدتي تطلب من أمي أن تذهب معك إلى حيث نحن ذاهبان الآن.

- ولماذا منع عنها جدك - سامحه الله- هذا الخطاب وأخفاه كل هذه السنوات؟ لقد عشت هاربًا لسنين طويلة بسببه.. بعد أن هددني أنطوان باشا بالزج بي في السجن إن لم أقل له الحقيقة..

ولم يصدق أي من كلامي فعشت هاربًا في النهاية.. وكل ذنبي أنني حافظت على وعدي لجدتك وللدكتورة تريز.

- لا ذنب لك.. خاف جدي على أمي أن تلقى نفس مصير جدتي وتختفي هي الأخرى إن عادت إلى مصر.. كان يقول لأمي إنه تمنى لو استطاع أن يحرق هذا الخطاب لولا أنه كان آخر خطاب من روز كتبته بخط يدها.. وكان يشعر بتأنيب ضمير شديد تجاهها.

- ولماذا قرر فجأة أن يعطيها الخطاب بعد أن كان قد مرَّ على ذلك سنين طويلة؟

- لم يقرر فجأة.. كان يحتضر، ولا بد أنه أحس عندها بالذنب فأعطاه لها. لقد انفصلت أمي عن أبي سنين طويلة بسبب قرارها العودة إلى مصر كما طلبت جدتي.. لكننا لم نجدك وقتها.

- لا أراك الله أيامًا مثل التي عشتها.. لقد كنت أبيت كل ليلة منتظرًا القبض عليَّ في مخبئي.. ولم أستطع العودة لغرفتي إلا بعد أن مرت كل هذه السنوات.. وكان أنطوان باشا سامحه الله قد رحل هو أيضًا.. ووجدت رسالة أمك إليَّ داخل الغرفة.. وعدت إلى حياتي القديمة أخدم في أحد البيوت حتى صرت شيخًا عجوزًا.. ولم أتخيل أن تأتي أنت بعد كل هذه السنوات.

قلت له وأنا شاردة في الطريق أمامي:

- ولا أنا يا زين كنت أتخيل كل هذا الشقاء الذي لاقته جدتي وكل هذا الغموض الذي دفعت ثمنه أنت.

- أدعو الله أن نجد الإجابة هذه المرة.

- ليت هذا يحدث يا زين.. ليته يحدث.. أنت لا تتخيل كم أتمنى

أن أعرف ما الذي جعل جدتي تفعل كل هذا وفي النهاية لم تصل إلى أية إجابة.

وكنت أتذكر جسد أمي الملقى على الفراش وهي غارقة في دمائها مثلها مثل جدتي روز كما حكى لي زين منذ قليل.. ودعوت الله في سري أن نجد الإجابة في الأقصر كما قال زين.

نزلت في فندق صغير في شارع رمسيس الرئيسي بالأقصر ورفض زين أن أحجز له في الفندق، وقال إنه لن يجرب راحة أو نومًا قبل أن يذهب إلى بيت «آل عواد» ويجده.. وقد مر سنوات كثيرة لم يعد يذكر عددها منذ ذهب إليه للمرة الأولى.

اختفى زين ليومين كاملين وتركني في ترقُّب وقلقٍ شديدين.. عاد بعدهما مشرق الوجه وأخبرني أنه وجد المنزل وقال إن الحاج مسعود ينتظرني في منزله مع ابنه الوحيد.. وقد صار مسعود شيخًا كبيرًا لا يتحرك.

رغم فضولي الشديد ورغبتي في معرفة السر وراء كل هذا الشقاء، إلا أنني كنت في شدة الخوف عندما ذهبت مع زين إلى نجع الحسينات حيث بيت الحاج مسعود هذا.

كانت بلدة فقيرة رغم ازدحامها، وبدا أنها لم تعتد على وجود الغرباء فيها، على عكس الأقصر التي تعج بالآلاف من الغرباء يوميًا.. وكان الناس ينظرون إليَّ في فضولٍ زاد من خوفي.. وعندما دخلنا على الحاج مسعود هذا وكان عجوزًا قارب سنه السبعين عامًا أو يزيد.. وكان يتكلم في صعوبة، تولى عمار ابنه الوحيد التواصل بينا وبينه.. وبعد عددٍ كبيرٍ من الأسئلة عني وعن روز، وعن نَص الخطاب الذي أرسلَته روز إلى بيلا منذ سنوات قال لي الحاج مسعود

إنـه هـو الـذي طلـب مـن روز أن ترسـل هـذا الخطـاب إلى بيـلا تلـك الليلـة، ولما سـألته عـن السـبب قـال:

- نحـن لا نملـك إجابـاتٍ لا نعرفهـا.. مهمتنـا فقـط هـي توصيـل الأمانـة إلى أهلهـا.

وفشـلتُ تمامًـا أن أنتـزع منـه أيـة معلومـة تفيـدني، وكان سـنه الكبير وثقـل لسـانه في الـكلام مـا زادا الموضـوع مشـقة وصعوبـة.. وبعـد أن انتهـى كلامنـا، قـال لولـده عـمار أن يسـلمني الأمانـة ثـم نتحـرك بعدهـا مبـاشرة.. وطلـب منّـي أن أبعـث بعنوانـه إلى أكـبر بنـاتي، ولما أخبرتـه أنني لم أنجـب لأنني لم أتـزوج، غمـر صوتـه إحبـاط شـديد. وقـال لي إنـه يجـب أن أتحـرك بسرعـة، وازداد خـوفي وعـاد مشـهد أمـي بيـلا في فراشـها إلى ذهنـي وأصابتنـي شـفقة عـلى نفسـي لفـرط وحـدتي وأنـا أتحـرك وسـط كل هـذا الغمـوض دون أن يوجـد شـخص واحـد معـي أعرفـه واثـق فيـه.. وطلـب عـمار أن ننتظـر حتـى الليـل كـي لا نلفـت انتبـاه أحـد في تحركاتنـا.. وعندمـا جـاء الليـل خرجـت مـع زيـن وعـمار إلى مقابـر القريـة.. وبـدأ خـوفي يـزداد وامتـلأ قلبـي رعبًـا.. وكان عـمار رقيقًـا في تعاملـه معـي، ولـولا وجـود زيـن مـا كنـت ذهبـت معـه إلى أي مـكان.. وعنـد المقابر كان الظـلام الحالـك يزيـد المشـهد رعبًـا وقلقًـا.

جـاء رجـل طويـل مخيـف الهيئـة إلى حيـث كنـا مـع عـمار وفي يـده طـوقٌ حديـديٌّ بـه عـدد كبـير مـن المفاتيـح الصدئـة.. وقـام بفتـح إحـدى البوابـات وسـط المقابـر، وعـلى ضـوء مصبـاح زيتـي خافـت لمحـتُ شـاهدًا للقـبر الـذي وقفنـا أمامـه.. وفتـح الرجـل بابًـا حديديًّـا صدئًـا، وطلـب منّـي أن أدخـل معـه فرفضـت في حـزم وتراجعـت خطوتـين إلى الوراء

منتحبة في زين العجوز، وقد أدركت أنني قد تماديت في الذهاب معهم وحدي هكذا. وقال عمار: أعطها الأمانة لا نريد منها إزعاجًا.

ثم نظر إليّ وقال في خبث ووقاحة:

- ألن تلقي نظرة وداع على المرحومة.

وضحك في خبث وودت لو أسبّه لكن منعني خوفي بالطبع.. ونهره الرجل الآخر ودخل إلى المقبرة، ثم غاب لدقائق قليلة عاد بعدها باللفائف، وكانت متربة باديًا عليها الإهمال.. ونظر إليها عمار في حسرة وقال:

- ما منعني عنكم سوى الحاج سامحه الله.. هذه تساوي ثروة الآن.

وأخذت اللفائف وطلبت من زين أن نتحرك فورًا فقال عمار:

- إلى أين؟ لم ينته الأمر بعد..

نسألته في غلظة:

- ماذا بعد؟ أليست هذه الأمانة؟

فقال:

- ليست كلها.. تنقصك الإجابة.. مازال لدينا لدينا سفر آخر.

- سفر؟ إلى أين؟

- إلى الغردقة.. هذه وحدها لن تنفعك بشيء.

ولم أكن أعرف ما الذي تحتويه تلك اللفائف.. فقلت وأنا أتحرك مع زين:

- غدًا غدًا.. نعود ونتفق.

وهربت مسرعة، وقد أقسمت على عدم تكرار هذا التهور مرة أخرى، وسمعته يردد من خلفي بخبث:

- على راحتك يا هانم.

فلعنته في سري وعدتُ مرتجفة خائفة إلى الفندق بعد أن أخفيت اللفائف بصعوبة في حقيبة كبيرة. ولما فتحتها وجدت تلك البرديات، وبالطبع لم أفهم منها شيئًا.. وفهمت ما كان يقصده عمار الملعون هذا.. فطلبت من زين أن يذهب للقاء الحاج مسعود بنفسه وليس عمار ويستفسر منه عن أمر الغردقة هذا.. ولما عاد قال إن الشيخ مسعود طلب مني أن آتي إلى هنا.

***

كان يحيى ينصت إليَّ في شغفٍ وترقُّب شديدين ولم ينطق بكلمة أو سؤال حتى انتهيت من كلامي ولما سكت سألني:

- ثم ماذا؟

فقلت له:

- ثم لا شيء.. فعلت كما طلب مني مسعود وجئت إلى هنا.. أخذت أراقبك لفترة طويلة وأبحث عن فرصة للكلام معك.. لكني وجدتك لم تلمحني في أي مرة أكون معك فيها في الكامب وسط السائحين.. حتى شككت أنك تتعمد ألا تلاحظني. ولما التقينا في البازار مصادفة وجدتك قد لاحظتني للمرة الأولى بعد شهرٍ من المحاولة.. فجئت أنا إليك.

قام يحيى من جلسته وبدا متحيرًا وسألني:

- وما علاقتي أنا بكل هذا؟

- لا أعرف.. لقد جئت إليك كما أخبرني زين.. وظننت أن الإجابة ستكون عندك أنت بعد أن نترجم هذه البرديات.

فقال يحيى في عجب:

- البرديات لا علاقة لها بكل ما حكيتِ، لقد قمتُ بترجمتها كلها ولم يكن فيها شيء يخصني.. هذه برديات لأميرة مصرية مضى عليها آلاف السنين.

قلت له:

- لم تقم بترجمتها كلها.. لقد ترجمتَ ما أحضرته أنا لك.

فسأل يحيى في لهفة:

- ماذا تقصدين؟

- اللفائف كانت مجموعتين.. وما فهمته من زين أن هذه التي أحضرتها إليك هي التي كانت مع جدتي روز.. أما الأخرى فهي التي كانت مع «آل عواد».. وهي معي في الاستوديو بعد أن أخذتهم جميعًا من قبر جدتي روز.

فصاح يحيى:

- أتمزحين.. لماذا لم تحضريهما معًا.. لكنا قد فهمنا الآن ما كان فيهم.

- وما الذي يجعلني أفعل هذا وقد أهنتني بالأمس ونعتّني بالكاذبة؟ لقد خفت أن تضيع البرديات كلها مني وأنا لم أفهم أي شيء إلى الآن.

صمت يحيى قليلًا ثم قال:

- لو كنتِ أخبرتِني من البداية لم أكن لأشك فيكِ يا ياسمينا.

- صدقني كنت أتمنى لو أفعل.. لكني كنت خائفة.

- خائفة من أي شيء؟

- مـن أن أفقـدك.. لا تدعـي أنـك لا تفهمنـي وتعـرف مشـاعري ناحيتـك كـما تنكـر مشـاعرك تجاهـي.

قال يحيى وهو ينتعل حذاءه.

- أنا لا مشاعر لدي لأي إنسان.

- مـن الـذي يكـذب الآن.. لا تنكـر ذلـك.. يمكنـك أن تتركنـي لكـن لا تنكـر أنـك أحببتنـي مثلـما أحببتـك.

صاح يحيى متعجبًا:

- أحببتك؟

- ألم تر كيف كنت تنظر إليّ ونحن نرقص سويًّا؟

اتجـه يحيـى في عصبيـة إلى بـاب الغرفـة وتنـاول معطفًـا طويـلًا كان معلقًـا عـلى شـماعة بالبـاب ونظـر طويـلًا في المـرآة وبـدا عليـه الارتبـاك عندمـا اسـتدار وقـال في حـزنٍ شـديدٍ:

- مـن فضلـك يـا ياسـمينا.. لقـد أخبرتـك منـذ اليـوم الأول.. أنـا رجـل مسـتهلك ولا أصلـح للعلاقـات.

- لا يهمنـي إن كنـت تصلـح أم لا.. أتعلـم.. لا يهمنـي أي شيء سـوى أن أعـرف فقـط أنـك تحبنـي مثلـما أحبـك.

- ومـن الـذي يعـرف أي شيء عـن أي شيء.. أنـا لم أعـرف شـيئًا عن نفسـي طـوال عمـري.. أضعـت ثلاثـين عامًـا لم أعـرف فيهـم أننـي كنت أحـب زينـب.. وعندمـا علمـت كانـت قـد رحلـت.. فكيـف أعـرف عن حبـي لـكِ وأنـا لم ألقـاك قبـل ثلاثـة أشـهر؟

قمت من جلستي واقفة وصحت:

ـ وأنا ذهب من عمري ثلاثون عامًا لم أحب فيهم أحدًا.. وعرفت أنني سأحبك منذ اليوم الأول الذي التقينا فيه..

وكان يحيى ما زال ينظر إلى المرآة ويزداد شروده حتى أحسست أني سأكلم نفسي إذا تابعت.. لكنني قلت في يأس:

ـ ماذا تقاوم يا يحيي.. لماذا تهرب من نفسك الآن؟ ألم تتعب من الهرب؟ كل هذا الحزن وكل هذه الغربة.. والآن ترفضني رغم أنني أتيت إليك في رضا؟ ماذا تريد من الدنيا إذًا؟ ما الذي تنتظره؟

ولم يرد عليَّ يحيى أيضًا.. ظل واقفًا في شرودٍ وسكونٍ دون أن ينطق بكلمة.. ثم تحرك بعدها في سرعة وكأنه يتلافاني، وجمع البرديات في حرص شديد ورتبها في عناية ووضع فوقها الأوراق التي ترجمها وطوى الكل في رقة بالغة ثم نظر إليَّ في صمت سائلًا أن نتحرك إلى الاستديو.. فتنهدت في يأسٍ وخرجنا إلى السيارة.

لم ننطق بكلمة طوال الطريق من الكامب إلى الأستديو في الغردقة.. وكان الغضب يتملكني وقد أحسست للمرة الأولى أنني لم أفهمه.. وعند مدخل البناية في النزل الليبي كان الحارس جالسًا يدخن في شراهة، ونظر إلينا ونحن داخلان إلى المبنى ولم يعلق بشيء، وبدا أن يحيى لم يكن مهتمًا بوجوده.. وعند دخولنا الغرفة ألقى يحيى بجسده في تثاقل شديد على المقعد.. ووضع اللفائف التي في يده فوق الطاولة الصغيرة جوار كتب الهيروغليفية.. ولم أنتظر منه أن يتكلم أو يسأل وأحسست أنه لم يعد يريد مخاطبتي.. فذهبت إلى الدولاب الكبير وأخرجت منه حقيبتي حيث كانت توجد بقية اللفائف.. وقال يحيى وأنا أُخرِج البرديات منها بحرص شديد كما وجدته يفعل:

- هـذه البرديـات شـديدة الأهميـة وبالغـة القيمـة الأثريـة.. كيـف عوملـت بـكل هـذا الإهمـال طـول هـذه السـنوات؟

قلت معقبة على كلامه وما زال غضبي باديًا عليَّ:

- لا تَلُم أحدًا يجهل قيمة ما يملكه.

فـصرف عينـه بعيـدًا عنـي بعـد أن فهـم قصـدي وناولتـه اللفائـف الثانيـة وأحـضرت لـه أوراقًـا ليقـوم بالترجمـة عليـه يهـدأ.. وكان يتثـاءب وعينـاه صارتـا محمرتـين مـن فـرط السـهر.. وكنـت أعـاني مثلـه.. فقلت دون اهتـمام:

- سأعد قهوة لنفسي.. هل ترغب؟

فأومـأ برأسـه دون رد فذهبـت إلى ركـن المطبـخ لأصنع القهـوة.. وعندما عـدت كان قـد بـدأ فعليًـا في ترجمـة البرديـة الأولى مـن اللفائـف الجديـدة.. ناولتـه القهـوة فأخـذ منهـا رشـفة سريعـة وقـال في امتنـان:

- شكرًا.. شكرًا جدًّا.

وكان الحـماس قـد بـدأ يغـزو صوتـه بعـد أن بـدأ الترجمـة.. ووضـع الفنجـان بعيـدًا خوفًـا عـلى البرديـات.. وسـألته:

- كم سوف تستغرق ترجمة هذه المجموعة؟

فقال في شرود وهو يقلبها وكأنه يبحث عن شيءٍ ما:

- لا أعرف تحديدًا.. ربما أربع أو خمس ساعات.. وربما النهار كله.

فأرحت ظهري على وسادة الفراش وتثاءبت في ملل.. وقال يحيى:

- لكن من الواضح أن هذه ليست نهاية البرديات.

فقلت:

- ماذا تقصد؟

- التقسيم هنا تحت الخرطوشة الملكية يشير إلى أن هذا هو التدوين الثاني لمجموعات ثلاث.. وكان الآخر هو الأول.. وهذا هو الثاني.. لكن لا يوجد أي شيء هنا عن التدوين الثالث.. هل أنت متأكدة أنك أخذتِ كل اللفائف التي كانت في قبر جدتك روز؟

- لا أعرف.. هل يكون عمار قد خدعني؟

فقال يحيى مفكرًا:

- لا أظن.. إن كان ينوي خداعًا لكان سرقها كلها من البداية.. فهمت من كلامك أنه كان يخشى من غضب والده.. قلتِ لي ماذا كان اسمه؟

- مسعود؟

- نعم نعم الحاج مسعود.. لا يهم الآن.. أترجم هذه أولًا ربما وجدنا فيها إجابة على كل هذا الغموض.

ثم عاد يحيى للترجمة واندمج فيها بشغفٍ كبيرٍ بعد أن أنهى قهوته وبدا أنها أنعشته قليلًا..

بعد ساعة بدأ الملل يتسرب إليَّ، وكنت أقاوم النوم بصعوبة شديدة ولما وجدت أن الأمر سيطول قمت إلى الترجمة التي قام بها يحيى للمجموعة الأولى وأخرجتها وجلست أطّلع عليها ربما أفهم منها شيئًا جديدًا.. وأخذت أقرأ عن الأميرة «نفرو-رع» وقصتها تلك، حتى انتهيت من القراءة.. وكنت قد فشلت تمامًا في إبقاء عيني يقظتين فغلبني النوم بعد انتهائي من القراءة مباشرة، وكان يحيى يترجم البرديات بانهماكٍ شديدٍ، ولم يعد يشعر بوجودي.. حتى رحت تمامًا في النوم وحلمت بيحيى وهو يقبلني في رقة شديدة.

عندما استيقظت بعد نوم عميق ولم أدرِ كم مضى عليَّ في تلك الحالة ووجدت يحيى هو الآخر ممددًا على الكرسي مادًا قدميه على طرف الفراش وقد راح في النوم هو الآخر.. ووجدته قد وضع غطاء فوق جسدي عندما كنت نائمة.. فنهضت في هدوءٍ شديدٍ كي لا أوقظه.. ووجدت أمامه على الطاولة ما قد قام بترجمته.. فمددت يدي إلى الأوراق في فضول شديدٍ لأكمل ما قد قرأته عن تلك الأميرة.

***

(٩)
الزعفرانة
الثاني الأوسط من ثلاثة

أنا الزعفرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة.. أنا التي رضي الإله مُلكي وما رضيت.. أنا التي تقدَّست أسمائي وتبجلت ألقابي من الشمال إلى الجنوب.. فنبذت هذا كله وسعيت مع مَن آمن بي نحو الشرق..

ولمَّا كان من قومي ما كان. زاد إيماني بنبذي لهذه الحياة وكل ما فيها من خبثٍ وأيقنت في قرارة نفسي أنني لابد راحلة.. إنما أنتظر الإشارة من سيد الآلهة.. وأنتظر المباركة من معبودي الأبدي «رع» العظيم.

أنا الأميرة «نفرو- رع» ابنة المقدَّسة دومًا «ماعت- كا- رع- حتشبسوت».

أنا الزعفرانة.

***

أُعدم الحارسان والضابط المكلف وكبير الحرس بالقصر.. وتفنن الجلادون في تعذيبهم كثيرًا قبل أن تُقطع رؤوسهم.. ولم يفلح التعذيب معهم في انتزاع أي اعتراف منهم بمن أمرهم بدس السم لي.. كان الكل ينكر معرفته بأي شيء عن

الكأس المسموم بعد أن ثبت فعلًا ما وُضِعَ فيه من سم كاد أن يقضي عليّ.. لولا أن تدخل «حور» في اللحظة الأخيرة.

انقلب القصر رأسًا على عقب بحثًا عن أي خيطٍ يؤدي إلى معلومة تثبت تورط «إيست» في تلك الفعلة.. وكان من الواضح أن من فعل ذلك أتقن فعله جيدًا.. فإما أن ينتهي التحقيق إلى شخص ميت.. أو إلى شخص نفذ أمرًا من شخص أصبح ميتًا.. وأصبح الوضع يدعو إلى السخرية الشديدة.. وما زاد من السخرية أن «تحتمس» نفسه كان يتزعم فِرَق التحقيق.. رغم أنه كان جليًا للجميع أن الشكوك كلها كانت تحوم حوله وحول «إيست».

قالت الملكة بعدها لـ«سننموت»:

- لم يعد هناك وقت لنضيعه.. لن أنتظر حتى أجد ابنتيَّ وقد هلكت إحداهما.. والكهنة متورطون في ذلك.. رأيت هذا أم لم تره.

وكان «سننموت» مصرًا أن الموضوع مقتصرًا على «تحتمس» وحده.. خاصة بعد انتشار خبر فشل مشروع زواجنا المقدّس.. وتعطل حصوله على الشرعية الكاملة لاعتلاء العرش وحده. وقال «سننموت» لأمي:

- أفهم جيدًا جلالتك أن يسعى الملك إلى ذلك.. أو أن يتم ذلك بتدبير من «إيست» وحدها.. لكن ما دخل المعبد وكهنته في ذلك؟ لماذا يلوثون أياديهم وشرفهم بدماء مولاتي «نفرو- رع» ؟

قالت الملكة:

- لا أظن أن «تحتمس» له يد في هذا.. أعلم أنه خائف وغاضب منذ رفضت زواجه.. لكنه قائد كبير في الجيش الآن.. ورجل ذو عزة وشأن.. إن أراد بها شرًّا لدخل عليها مخدعها وذبحها ثم خرج علينا برأسها.. ليس الخداع أسلوبه ولا

الخيانة من خصاله.. دماء أبيه الملكية تسري في عروقه رغمًا عنه وعن رأس الأفعى والدته.

وجدت أمي تتحدث عن ذبحي وكأنني بقرة أو ماشية عاقر لا قيمة لها ولا ثمن.. قلت في حنق:

- هل أصبحت الآن ذبيحة تختلفون فيما بينكم على من سينال حظه في ذبحها.

فقالت أمي في رفق:

- هوني على نفسك يا بنيتي.. إنما نحاول أن نتأكد من الفاعل حتى لا يتكرر ما حدث.

- وهل سيتكرر ما حدث؟

- في الغالب لن يهدأ من حاول حتى يصل إلى هدفه.

- وما الهدف من التخلص مني؟

- العرش يا زعفرانة.. العرش.

- أليس العرش لـ«تحتمس».. سواء تزوجنا أم لم نتزوج؟ لم صار التخلص مني أمرًا يسهّل عليه الوصول إلى العرش؟

هنا تدخل «سننموت» مفسرا:

- وجودك إلى جواره كزوجة ملكية كان يمنحه شرعية قوية في الانفراد بالعرش لنفسه، منحيًا مولاتي الملكة جانبًا.. ورفضك مع إبقاء الملكة واصية عليه لعام أو عامين يقلقه بشدة.. أو أنه يقلق من هم وراءه وتتعارض مصالحهم مع جلالة الملكة.. أما التخلص منك فإنه سوف يدفع بالملكة إلى أمرين لا ثالث لهما.

قلت:

- وما هما؟

إما التنازل عن العرش له وإنهاء الوصاية عليه.. وإما ترشيح أختك «ميريت» بدلًا منك لتشاركه الحكم.. وكل الأمور تدفع إلى تنحية جلالتها عن العرش.

- وما المانع في أن تشاركه «ميريت» في الحكم أو أن يتزوجا؟ أنا لا أرى في الأمر أي غضاضة.

وهنا صاحت أمي بغضبٍ:

- قلت لك لا، هذا أمر لن يكون ما دمت حية.

- ولِمَ؟

لم ترد أمي على سؤالي.. فنظرت إلى «سننموت» مستفسرة فقال:

- يبدو أن أمك يا بنيتي ترى خطراً من توليهما سويًّا حكم البلاد.

- خطراً؟! على مَن؟

قالت أمي:

- على البلاد نفسها.. وعلى أختك.. وعليك يا ابنتي.

- ولماذا تتعاملين معهم جميعًا على أنهم أعداء لنا.. ألم تقولي بنفسك إن الحرب قد ولت وانتهت؟ لماذا تبحثين عن الأعداء الآن حولك؟

- أنت صغيرة حالمة يا بنيتي.. ولا تعين العالم من حولك.. الحرب لا تنتهي أبدًا.

ثم أضافت:

- وفي الحرب.. من يعرف عدوه يكسب نصف هذه الحرب.. ومن يعرف قدراته يكسب نصفها الآخر مهما كان ضعيفًا.. وفي بعض الحروب قد يكون العدو هو أقرب الناس إليك.

ونظرت إليَّ في إشارة لقصدها فقلت:

- وقد يكون هو نفسك.

لرمقتني في حدة بعينيها وتدخل «سننموت»:

- جلالتك.. صغيرتنا لا تقصد شيئًا بذلك.

فقلت بغضب:

- بل أقصد كل ما أقول.. لماذا لا يكون ما نحن فيه الآن من خوف وترقب وقلق لن ينتهي إلا بموتي بسبب الطمع في الحكم؟ لمَ كل هذا التآمر والترقب والتحايل؟ من أجل ماذا؟ العرش؟! ولماذا يجلس شخص واحد على العرش يستأثر به لنفسه؟ لماذا يجب أن يكون الحاكم ملكًا؟ لماذا لا يكونون ملوكًا وأمراء ونبلاء وأشرافًا من عامة الشعب؟

فاجأتني أمي بضحكة عالية طويلة أطلقتها وأدارت لي ظهرها منصرفة إلى كرسيها، ووجدت «سننموت» يبتسم في تحفظ وقالت أمي بعد أن أنهت سخريتها من قولي:

- أي خرف تنطقين به يا نفرو- رع؟ أتظنين أن أهل طيبة و سائر الأقاليم سوف يدينون بالولاء لمجموعة من الناس العاديين دون ألقاب ملكية أو نسب إلهي؟ ألم تعرفي شيئًا عن شعبك بعد؟ يا طفلتي الصغيرة البريئة.. الناس هنا لا تؤمن إلا بالملك الفرعون.. لا تدين بالولاء إلا للملك القوي الأوحد. ثم نظرت إلى «سننموت» وقالت مكملة:

- ولا تسجد إلى للإله وأبنائه.

وعلمت أنني لن اصل إلى شيء يجدي، هذا وكل ما أقول بالنسبة لها هو مجرد

تخريف لصغيرة لا تفقه شيئًا في الحياة.. فسكتُ عن الكلام.. إلا أنها لما رأت من صمتي هذا عادت لتقول في رفق:

- أكثر ما يحزنني يا بنيتي هو أنك أصبحت تحدثين بلغة المغيب عن واقع بلاده.. ألم تري بنفسك ما فعلته للناس وللبلاد طوال حكمي إلى الآن..لم يعد يوجد بيت واحد في طيبة لا يدعو للملكة لما أصبح فيه هو وأهله من نعيم في عهدي. دانت لنا الأرض كلها من حولنا بالطاعة وانتهى عهد طويل من الحروب والدماء.. امتلأت خزائننا بالذهب وامتلأت المخازن بالمؤن والغلال.. حتى صرنا نبني من المخازن أضعاف ما كنا نبنيه منذ أعوام. ألا يعني لك هذا شيئًا؟.. ألا ترين في أمك شيئًا سوى الملكة الطاغية؟. ولا تجدين فيها الحاكمة الأمينة التي خدمت شعبها رغم ما كانت عليه البلاد بعد الحروب الطويلة من ضعف وفقر؟

- أنا لا أنكر أيًا من هذا.. بل أقره وأسعد به وأعرف ما هو أكثر منه.. أنا لست أعيش في وطن آخر يا أمي.. ما أتكلم عنه هنا هو الثمن مقابل كل هذا. انظري إلى أين انتهى بنا الأمر.. الحرس المكلف بحماية ابنتك خان أمانته.. وحاول قتلي أي أمان سيجيء بعد هذا؟ كسبتِ العرش وخسرتِ الأمان؟ وولاء كهنة المعبد اتضح أنه وهمي.. إلى أين نذهب بعد الآن؟ هل نعتزل الحياة كي نعيش في أمان.. أم سنقضي عمرنا ننظر خلفنا في انتظار الخنجر المسموم الجديد.

صمتت والدتي في حينها وفكرت قليلًا ثم قالت موجهة الحديث لي ول«سننموت»:

- الحرس أمرهم سهل.. سوف يتغير طاقم القصر بالكامل.. وأنت يا «سننموت» من ستختارهم بنفسك هذه المرة.. وإن شئت رأيي.. حاول أن تلح على «تحتمس» في تغيير حرسه هو أيضًا.. الخيانة قد تطوله رغم أنه قد يبدو للعامة أنه المستفيد الأول منها.

وقال «سننموت»:

- وهل سيقبل بذلك جلالتك؟

- في الغالب سيقبل.. أنا أعرف ما يفكر فيه.. لقد قلت لكم.. إنه قائد بارع في الجيش وليس قاطع طريق.

- أمر جلالتك..

- أما الكهنة..

ونظرنا إليها في ترقب منتظرين قرارها بينما أخذت تهز قدمها في توتر، ثم قالت لـ«سننموت»:

- أما الكهنة يا «سننموت» العزيز.. فلا توجد فرصة أفضل من الآن للضغط عليهم. أصابع الاتهام كلها تشير إليهم جنبًا إلى جنب مع «إيست»، وسوف يفعلون أي شيء ويقبلون أي تهدئة يطرحها القصر.. محاولة لإثبات نواياهم الحسنة تجاه ملكتهم.. وقد نويت أن أستغل هذا بأفضل صورة ممكنة.. وهذه في النهاية مشيئة عليا من «أمون» الإله ولا يَد لي في ذلك.

فقال «سننموت»:

- إذًا فقد آن الأوان جلالتك.. ليتقدس اسمك يا سيدة الأرضين..

ولم أفهم ما كانا يتحدثان عنه.. وقد بدا لي أنه أمر يعدّون له منذ فترة فسألت مستفسرة:

- عم تتكلمون يا أمي؟ أي تهدئة تنوين وتقصدين؟ ما هي مشيئة آمون تلك؟

فقالت أمي وهي تتحاشى النظر إليَّ:

- ستعرفين كل شيء في حينه يا زعفرانة.

- في حينه؟ مثل العامة؟

- إنما أحافظ عليك يا حبيبتي.

ثم التفتت إليّ واقتربت مني حتى صارت أمامي مباشرة وقالت وهي تنظر في عيني طويلًا:

- صدقيني.. يومًا ما سوف تعرفين وتفهمين كل شيء.. ألم تقولي أنت منذ قليل أن الإنسان قد يكون عدوًا لنفسه؟

فنظرت إليها ولم أرد.. وبقيت هكذا حتى أشارت إليّ بالذهاب قائلة:

- والآن.. اتركيني مع «سننموت».. سوف نتحدث في أمورٍ لا نريد أن نشغل قلبك الرقيق هذا بها.

فانصرفت في صمت.. وعدت في خوفي إلى الجناح الجديد الذي كدت أن أقتل فيه. وقبل أن أدخل غرفتي وجدت «ميريت» في انتظاري وكلها ترقب وفضول لتعرف ما جرى بيني وبين أمي و«سننموت» في الديوان الملكي فدعوتها إلى غرفتي وحكيت لها.

كانت «ميريت» قد بدأت تكبر، وصار عقلها يعمل في سرعة وتحفز ورثته من أمي بالطبع.. وكانت قد أصبحت تنطق بلسان أكبر من سنها بكثير.. وتظل تفسر المؤامرات وأحاديث الكهنة كلها وتحللها لتستنتج ما سوف يدور في طية قبل حدوثه.. كما أنها اعترفت لي منذ فترة أنها عندما انتقلنا إلى القصر بأنها قامت بزرع بعض العيون الخاصة لها لتعرف كل ما يدور داخل أسواره دون أن تتحرك من غرفتها.. وقالت لي وهي تمزح وقتها.. أنها تعتبرني أهم عين من تلك العيون المتلصصة.

بعد أن حكيت لها ما دار بيني وبين أمي وسننموت قالت «ميريت» في شرود:

- أتعرفين يا زعفرانة أن أمنا كانت تعشق الصيد منذ الصغر، وكان أبونا «تحتمس» الأكبر العظيم هو من علمها الصيد؟

- وما شأن ذلك بما حكيت؟

- شأنه شأن كبير.. أنا فقط لا أصدِّق أن «إيست» تمتلك هذه الجرأة على أن تدبر تلك المؤامرة.. وواضح للجميع أن «تحتمس» ابن أبينا يعشقك ويرغبك.. والرجل لا يؤذي من أحب وإن رفضه الحبيب ما دام في منزلة أقوى منه.. وتحتمس قوي.. قوي جدًّا يا نفرو.. القادة جميعهم في الجيش الآن يدينون له بالولاء.. ورجل في مثل قوته.. لن يفعل هذه الخدع والمؤامرات التي لا تليق إلا بالنساء..

- لم أفهم ما ترمين إليه إلى الآن..

- حسب ما تنتويه أمي وما تحضِّر من مفاجأة هائلة للشعب.. فإنها وحدها..

ثم صمتت «ميريت» ولم تكمل.. فقلت أستنطقها:

- إنها وحدها ماذا؟ أتقصدين أنها المستفيد من تلك المؤامرة؟ أجننتِ يا «ميريت»؟

قامت «ميريت» متجهة إلى باب الغرفة تنوي الخروج وقالت بخبث:

- أنا لم أقل مثل ذلك بالطبع.. لكن أتعرفين القول أن أفضل شرك يصنعه الصياد لفريسته هو ما يتركه لتصنعه هي بنفسها لنفسها..

ثم قالت قبل أن تغلق الباب وترحل:

- لقد أجادت الملكة اللعب بكهنة المعبد بشكلٍ غير مسبوق.. وإني لأشفق عليهم.

ثم أغلقت الباب خلفها وعادت إلى غرفتها.. وتركتني وحدي أفكر في كل هذا الخرف الذي قالته حتى ضاق رأسي، وكادت روحي أن تزهق من كل هذا الجو الخانق من المؤمرات والدسائس والخداع الذي صار يمتلئ به القصر..

فقمت إلى نافذة غرفتي وفتحتها وأخذت أنظر إلى الليل وإلى بستان القصر وأفتقد «حور» الذي كان أول ما تراه عيني فيها كل صباح.. وأخذت أتذكر ملامحه وأشرد فيها ثم أفكر في السر الذي جعله يدّعي كونه أصم طوال هذه السنوات العديدة.. وابتسمت رغمًا عني عندما تذكرت كيف كنت أتحدث أمامه كل ليلة في حرية وأحكي له عن أدق تفاصيل روحي وعن هيامي به وبجسده الرائع ورائحته العطرة دائمًا.. لكني لم أجد في نفسي حرجًا.. بل اشتقت له أكثر وقد صار يعرف ما كان في نفسي من عشقٍ له.. وصرت أتمنى لو كان موجودًا حولي الآن كي نتناجى ويُسمعني صوته الذي أفتقده رغم أنني لم أسمعه سوى مرة واحدة فقط.. إلا أنها كانت كفيلة بتعلق روحي به أكثر.. بعد أن أنقذها من تلك الخيانة الدنسة.

مر أسبوع مشحون بالزيارات العديدة لكهنة المعبد وزيارات أخرى لقادة الرحلة التجارية المتجهة إلى «بونت» وقد صار الركب في تأهب شديد وينتظر الإشارة في أي وقتٍ للذهاب إلى بلاد الرب.. وكان واضحًا أن الملكة قد قررت إطلاق الرحلة البحرية بعد انتهائها مباشرة مما كانت تعده للمعبد وللكهنة وللبلاد كلها.. وصرت أترقب ما سوف يحدث مثل الجميع.. وأقضي الليل في مناجاة صامتة إلى «رع» أسأله أن يعيد إلى «حور» بأي طريقة.. وقد بدأ قلبي ينفطر يومًا بعد يوم عندما طال غيابه.. وفي الليلة الأخيرة من نفس الأسبوع جاءتني قرعات متقطعة على نافذة الغرفة ظننتها في البداية صوت الرياح المشتدة في خارج القصر.. لكنها تكررت بشكل أكثر انتظامًا فقمت إلى النافذة أفتحها ونظرت خارجها فلم

أجد شيئًا غير طبيعي.. وكان الحرس الجدد في مكانهم تحت شرفتي.. لكني وجدت عددًا من الحصى المستخدم في تدريبات الرماية للصبية الذين كان يُجرى إعدادهم لفرق الرماة عندما يبلغون سنًا مناسبة.. ووجدت إلى جوارها لفة صغيرة من زهور البنفسج ملفوفة بأعواد رقيقة من زهور اللوتس.. فاختلج قلبي في صدري وعرفت أنه «حور» ورحت أبحث عنه في الحديقة لكن مشهد الحرس اليقظ أكد لي أنه كان قد وضعها قبل فترة.. ربما أثناء راحتهم.. كما أن الحصى هذه توحي إلى أنه يوجد في مكان بعيد عن هنا.. ربما يقف مبتعدًا عن سور القصر.. وقد كان «حور» راميًا ماهرًا للسهام ويستطيع أن يصوّب على نافذتي من أي مكان.

بقيت لفترة في مكاني محتضنة الزهور إلى صدري ربما كان يراني.. وجاء الهواء باردًا وطبًا لطّف من روحي وغسلها بدماء تدفقت من قلبي النابض بسرعة من شوقه إلى «حور».. ثم عدت بعد ذلك وأغلقت النافذة واحتضنت الأزهار حتى نمت وهي بين ذراعيّ.

في اليوم التالي احتشد الجميع في معبد آمون تنفيذًا لأوامر الملكة ولطلب الكهنة أيضًا.. حيث جرى الكلام في البلاد طوال الأيام السابقة لليوم عن الإعلان الهام والقرار الذي سيتم اتخاذه في المعبد.. والذي من أثره سوف يعم الخير على المصريين جميعًا.

تلقى النبلاء ورؤوساء الدواوين وقادة الأفرع في الجيش دعوات غير مقبولة الرفض للحضور إلى المعبد.. ولم يكن من أحد في طيبة ولا مصر كلها بإمكانه أن يرد طلبًا مباشرًا من المعبد وقد صدر في هيئة أمر يطاع. ودخل المدعوون الرسميون إلى الصالة الرئيسية للمعبد.. بينما احتشد عدد هائل من عامة الشعب ومن الجنود بالجيش في الخارج.

توسطت جلالتها الجهة اليمنى من الصالة بحيث بقيت جالسة أمام المدعوين جميعًا وعن يمينها ويسارها حاشيتها وكبار القصر.. واحتل الكهنة المنصة بالطبع واتخذ كبير المرتلين مكانه البارز أعلى المنصة في الجهة المقابلة للنافذة الرئيسية تجاه الشرق.. فكانه مكانه الأكثر بروزًا في الصالة كلها.

وقام الكاهن المرتل رافعًا يده في إشارة آمرة إلى كل من في القاعة بالتزام الصمت حيث سيبدأ الكلام.. فسكن الجميع وتعلقت أنظارهم جميعًا به.. ونظرت إلى أمي فوجدتها الوحيدة التي لم تنظر إليه.. إنما كانت تتابع وجوه الحضور وتنقل ناظريها إليهم في ترقب.. وكان «تحتمس» ابن أبي جالسًا قبالتنا وسط قادة الجيش يتابع في قلقٍ بادٍ رغم صمته الشديد.. قال الكاهن الأكبر:

- «الصلاة لك يا رع.. الصلاة لك يارب السماوات ويا خالق الكائنات.. يا من كنت قبل أن يكون الجميع.. ومنذ البدء...»

ثم التفت إلى الحضور محركًا بصره متنقلًا بعينه ليتأكد من انتباه الحضور.. وثبتت عينه على مكان أمي وتابع قائلًا:

- «يا سادة القوم.. يا من بورتكم بكونكم أبناء هذه البلاد المقدسة التي رضيت عنها الآلهة.. نتلو عليكم الآن نص النبوءة التي نطق بها الإله آمون.. في العام الثاني من حكم جلالة الملك «تحتمس الأول».. أمام قصر رأس القناة عند المقر الملكي لجلالته.»

ازداد انتباه الجميع واتسعت أعينهم عندما أعلن الكاهن المرتل بأنه سيتلو عليهم تلك النبوءة التي يقول إنها حدثت في عهد جدي لأبي «تحتمس الأول» عندما كانت أمي لا تزال طفلة.

قال الكاهن في ترنم:

- «وكان أن خرجت الملكة في وقتها وقالت لهيئته الإلهية وهي ساجدة: يا لها من طريقة تجاوز النبوءات المعتادة.. يا من تفكر دائمًا في كل شيء.. ما الذي تريد أن يتحقق ليكون؟ قل لنا لننفذ مشيئتك.. فكان أن أشار الإله «أمون» العظيم إليها أن تنهض من سجودها لتتحرك مع موكبه المقدس ناحية مقام «ماعت»[٦] العظيم.. فتحركت.. وكذلك تحرك النبلاء خلف جلالته..»

ثم سكن الكاهن المرتّل حينًا والتفت إلى حيث يجلس النبلاء.. وكان جميعهم مشدوهين تعلو وجوههم الدهشة مم يسمعون.. ولا يكادون يطيقون صبرًا لسماع باقي الحكاية والوصول إلى نص النبوءة التي تنبأ بها آمون في ذلك الوقت.. وأكمل الكاهن:

- «وبعد أن دخل كافة رجال البلاط وعلى رأسهم كانت جلالة الملكة إلى المكان المقدس والمقام العظيم لـ«ماعت» في صالة التقدمات بالمعبد قام جلالة «آمون» إله الكون.. وبعد أن وضع الملك «تحتمس» المنديل الأوزيري.. ومد يده المقدسة على كتف جلالتها الصغيرة..»

وهنا أشار بناظريه في وضوح إلى أمي وثبت عليها قليلًا ليؤكد لجميع من كان يقصد بكلمة جلالتها.. ثم أعاد الجملة الأخيرة مكملًا:

- «ومد يده المقدسة على كتف جلالتها الصغيرة.. وعلى ذراعها.. وأخذ جلالة الملك يتأملها.. وكانت متلألئة.. وكان تاجها عظيمًا مزدوجا يحكم بالعدل.. مرتفعًا في كبرياء الأحياء.. ثم قال جلالته ناطقًا باسم الإله الأعظم وسيد الآلهة: ....»

وصمت الكاهن ناظرا ببصره ناحية السقف المرتفع للمعبد قبل أن ينطق نص النبوءة التي قالها سيد الآلهة:

٦) إلهة تمثل بهيئة سيدة تعلو رأسها ريشة النعام رمز العدالة وإلهة الحق والعدل والنظام في الكون عند القدماء

- «أقبلي إلينا أيتها العظيمة[٧].. يا رائعة الجمال كوني أمامي أضمك إلى ذراعي لتشهدي ملوك العرش.. ولتتقلدي مظاهر الوقار والمُلك.. لتزداد عظمتك في القصر.. فتكوني عظيمة بسحرك.. قوية بجرأتك.. ملكة للأرضين تضربين على يد المتمردين.. فتظهر جبهتك المزدانة بسلطان التاجين.. ولتفرحي لأنك أنتِ وريثة «حورس» الذي سلمك القيادة.. أمام عروش الآلهة.. أيها النبلاء جميعًا.. يا من ترأسون الشعب.. هذه ابنتنا.. «حتشبسوت»» لتحيا.. هي وارثتي في الملك.. وهي من سوف تجلس على عرش مصر بكل تأكيد.. ومن سوف تصدر الأوامر للناس في القصر وخارجه.. وسوف تسمعون لها.. وتطيعونها.. فهي من ستقودكم جميعًا.. هي ابنتنا «ماعت - كا - رع - حتشبسوت» الحاكم التي ستعيش للأبد.. وستحارب الآلهة لنصرتها كل يوم.. هذا أمر جلالتي وأوامري سيد الآلهة جميعًا»

ثم انتهى الكاهن المرتل من سرد نَص النبوءة كما نطق بها سيد الآلهة آمون عند رأس الفتاة منذ سنوات.. نظر الكاهن متلفتًا برأسه إلينا يمينًا ويسارًا ثم استقر إلى مكان مجلس أمي الملكة الساكنة في وقار.. وقد سكن كل من حولها تمامًا بعد أن أعلنها سيد الآلهة بنبوئته تلك ملكًا إلهًا يعيش للأبد.

قامت في وقارها الذي على شأنه بعد تلاوة نَص النبوءة وتحركت في عزة وشموخ إلى حيث كان الكاهن المرتل يقف.. فأحنى رأسه في إجلال عظيم لها.. وترك المنصة وانزوى جانبًا إلى جوار بقية الكهنة.. ويممت أمي وجهها ناحية الضوء المنبثق من النافذة وصاحت منادية:

- الصلاة لك يا رع.. يا من أنت في عليائك رب السماء ورب الأرض.. هبني القوة.. هبني الحكمة.. ارسل بنورك إليّ.

ثم التفتت إلينا جميعًا بغتة ثم إلى كهنة المعبد ونظرت في حزم وقسوة بادية..

٧) بتصرف من النص الأصلي

وخروا جميعًا إلى الأرض سجدًا يقبّلون الأرض حولها تحت قدميها.. ثم تبعهم رؤساء الشعب ثم النبلاء ومن ورائهم قادة الجيش والحرس.. سجد كل من كان بالقاعة.. ولم يبق سواي أنا و«تحتمس» الذي كان محتقن الوجه مصدومًا.. لكنه ركع في النهاية صاغرًا ثم نظر ناحية الأرض.. وسجدتُ أيضًا وراءه.. ومن ذا الذي يجرؤ على مخالفة ما جاء به آمون سيد الآلهة في نبوءته.. وسمعنا الملكة الإلهة التي تابعت ما بدأته من قسمها:

- سأكون مهيأة من عند جلالته.. أملأ الأرض من خيراته.. وأملأ مخازن الغلال في طيبة.. أزود المذابح في المعابد وأعزز أوضاع الكهنة.. كلٌ في منصبه.. أحرص على تنفيذ القوانين كلها.. ليستقر الحكم أخيرًا في البلاد.. وليعم السلام الأرضين في عهدي.. وليصبح المستقبل مشرقًا لمن بعدي.. ولأتقلد كافة الرموز الملكية.. كما أمر جلالته.. تنفيذًا لوصاياه العليا.

ثم سكن حديثها وبدا الساجدون مترددين بين مواصلة السجود أو محاولة سرقة النظر لما سوف يتم من مراسم التتويج الملكي.. والتف الكهنة جميعًا حول الملكة وقام كبيرهم بوضع تاج الفرعون الملكي المزدوج ثم ركع الكهنة أمامها بعد أن قاموا وقال كبير الكهنة في تبجيل:

- نحن الذين نقر بكبريائك ووقارك الملكي.. وقد منحت القدرة على قيادة الأحياء للأبد.. مثلما فعل رع.. يا من تعيشين للأبد.

وخروا سجدًا مرة أخرى ثم قامت الملكة لتمشي أمام الجميع معلنة سلطانها الجديد غير المسبوق على الجميع.. ونادى الحراس في الخارج على الجموع المحتشدة أمام المعبد معلنين النبوءة والبدأ في طقوس إعداد الإله الملك الجديد «ماعت كا- رع- حتشبسوت».. فهلل الجميع داخل المعبد وخارجه.. ورقص من رقص وسجد من سجد..

وتباركوا جميعًا متفائلين بالإله الفرعون الجديد الذي يحيا بينهم.. والذي يعيش للأبد.. والذي هو.. أمي!!

عدت مع من عادوا بعد انتهاء أمور المعبد إلى القصر.. بينما توجهت أمي الملكة الإله إلى الجرية الطقسية حول الحائط ثم بعدها توجهت إلى أعمال التطهير التي يجب أن تمر بها كملك متوج في المياه الخمسية.. كي توهب الحياة والحيوية والصحة والاستقرار كما يعد رب المياه المقدسة في بحيرة «موريس»[٨].

ووجدت الشعب في طيبة وقد جن فرحًا.. كانوا يرقصون كمن ذهبت رؤوسهم من فرط الخمر.. وسكرت أرواحهم فرحًا.. وظلوا على هذه الحال بين الرقص والصلاة والاحتفال في أرجاء القصر وخارجه.. قبل وبعد عودة أمي وانتهائها من الطقوس الملكية.. وظلوا يرددون الأغاني والحكايات حول المعجزة الإلهية التي حدثت لهم.. والتي حتمًا ستعم عليهم بالخير كما وعدهم سيد الآلهة آمون.

وكان مستشارو الملكة مستعدين أتم الاستعداد لاستقبال هذه الفرحة فنظموا احتفالات شعبية ومراسم رقص وعروض ومسابقات رياضية وألعابًا شارك فيها الضباط من الجيش والعامة جنبًا إلى جنب.. وعادت الملكة بعد ليلتين لتجلس على عرشها ملك فرعون منفردًا في حكمه مباركًا من آمون وكهنته وكبار موظفي الدولة.. ولكي تضمن ولاء الجيش قامت بالإبقاء على «تحتمس» إلى جوارها في الحكم بشكل صوري.. وإن كان واضحًا للجميع الآن من الفرعون الحاكم الآمر والناهي.. وانتهت اضطرابات من يحكم مصر بشكل نهائي.. وفي الليلة الثالثة لحكمها الجديد.. كنت جالسة في جناحي أفكر فيما حدث.. ولا أتخيل كيف نظمت هي و«سننموت» كل هذه الأمور بمباركة من الكهنة وتحت رضاهم؟ وأين كانت نبوءة آمون الإله هذه كل هذه السنوات؟ ولماذا لم تظهر إلا الآن؟ وكان رأيي

٨) بحيرة قارون حاليا

ينشغل من كثرة الأسئلة.. وأكثر ما كان يسبب لي اضطرابًا.. هو ذلك الطيف الذي رأيته وأنا خارجة من المعبد عائدة إلى القصر.. وكانت له عينان مثلهما مثل عيني «حور» لكنه كان يضع رداءً دثّر به نفسه من فوق ركبتيه إلى رأسه.. فلم يظهر منه لي إلا عينيه.. وكان ينظر إليَّ بقوة وكنت متأكدة أنه هو حور بنفسه.. ولولا خوفي عليه أن يحدث له مكروه لكنت أمرت الحرس بجلبه إليَّ.. وبقيت جالسة طوال الليل أنتظر الزهور التي لم تعد تأتي منذ أيام.. وصار الحرس حول القصر أضعافًا مضاعفة.. بعد أن صار الجيش بنفسه مسئولًا أمام آمون عن حماية ابنته!

أرسلت الملكة في طلبي وأنا في غرفتي أفكر في «حور» وسر غيابه عني وكيفية الوصول إليه.. وعندما تأهبت للذهاب إلى الديوان لملاقاة أمي أخبرتني وصيفتها أن الملكة تنتظرني في جناحها الملكي.. ولم يسبق أن استقبلت الملكة أحدًا منا أنا أو «ميريت» في جناحها الملكي أبدًا.. ولم يطأه سوى أبي.. ويعمل على أمور العناية به عدد مختار بعناية لا يدخلونه أبدًا.. وإنما تترك لهم أمي ما تريد العناية به في غرفة مجاورة مخصصة لذلك.. فلا يدنس جناحها المقدس أي إنسان.. وكان الفضول يأكلني لمعرفة سبب هذا التغيير الكبير.. ذهبت إليها ودخلت وحدي إلى مخدعها.. وكانت جالسة تتعبد في صمت.. فوقفت مكاني تأدبًا حتى تنتهي.. ولما قامت من جلستها من فوق الوسائد الناعمة المتناثرة أرضًا.. أقبلت إليَّ وقالت وهي مبتهجة:

- كيف حال ابنتنا الجميلة؟

- بخير حال جلالتك.

فنظرت إليَّ بعينيها في لوم وأشارت بيدها إلى المكان الذي لا يوجد به غيرنا، فقلت في فهم:

- بخير حال يا أمي.

فأقبلت تحتضنني في رقة وقبّلتني في جبيني وسألتني أن نجلس فقد تعبَت من الصلاة.. جلسنا.. ثم قالت:

- مالي أراك تخفين ابتسامة خبيثة داخل ثغرك الجميل هذا؟

وكانت صادقة.. فقلت في حرج:

- لم يسبق لي أن أرى إلهًا يتعبد إلى آخر من قبل.

وكدت أن أضحك لكني كتمت صوتي في صعوبة بالغة.. وكتمَت هي غضبها وقالت:

- هل أراكِ معترضة على مشيئة آمون سيد الآلهة يا زعفرانة؟

- ليس لي من موافقة أو اعتراض يا أمي.. هذا شأنك أنتِ والكهنة وشعبك.

فصاحت:

- وشعبك من بعدي.. لا تنسي أنك وارثتي في الملك.

- ألم نكن قد انتهينا من هذا يا أمي؟

- الأمور اختلفت الآن.. استقر الاضطراب الذي كان يا بنيتي.. لقد أصدرت أوامري الجديدة لكونك الزوجة الملكية لـ«تحتمس».. لست مجبرة على معاشرته. لكنكما ستحكمان جنبًا إلى جنب من بعدي.. وسيضمن المعبد حمايتك وحماية مقامك المقدس من بعدي.

لم أرد، وكنت أعرف من «سننموت» ومن «ميريت» أيضًا ما تحدث عنه.. لكنه لم يكن يعني لي أي شيء في الحقيقة.. لتصدر أوامرها كما تشاء.. لكني لن أجلس على عرش جاء إليّ بهذه الطريقة مهما حدث.. ولما رأت من صمتي ما كان، تعاملت ضمنيًّا على أني أقبل بالمرسوم الملكي هذا.. قامت من جلستها وقالت:

- الآن.. ما أرسلت إليك من أجله.. هو أمر لا يخرج أبدًا عن جدران هذه الغرفة مهما كان.. لا لجارية ولا محبوب ولا حتى لـ«ميريت» أختك.. هو أمر يجب أن تعلمي عنه الآن حتى تتولي حراسته وحمايته من بعدي. وقامت إلى ستائر جانبية عريضة احتلت الجدار بالكامل فأزاحتها في صعوبة بالغة حتى بدا خلفها ممر مختبئ في الظلام.. وقامت بإشعال النيران من شمعة في الغرفة أضاءت بها مشاعل جانبية في الممر الصغير الضيق والذي كان ينتهي إلى جدار وضع أمامه صندوقًا خشبيًا صغيرًا وجواره صندوق آخر أكبر حجمًا زُين كلاهما بأعين حورس الراصدة وكان كلاهما محكم الغلق بقفلين كبيرين.. وطرحت حولهما برديات صغيرة وأقصوصات ورقية كان بعضها ممزقًا، وكان ببعضها عددٌ من الصلوات والتراتيل التي كنت لا أعرفها ولم يسبق لي أن سمعت أيًا منها في المعبد.. وقفت في دهشة أنظر إلى ما أرتني إياه أمي وقلت سائلة في تردد:

- أتمارسين السحر يا أمي؟

فنظرت إلي في عتاب ولوم شديدين وقالت:

- بالطبع لا..

ثم تقدمت إلى الصندوق الأكبر وتحسسته بيدها في شغفٍ وتنهدت متابعة:

- إنما أحرسه.. مثلما فعلت عائلتنا دومًا.

والتفتت إليّ مفسرة وقالت وهي تشير إلى الصندوق الكبير:

- هنا تكمن نصوص وصايا وأسرار التاسوع المقدس كما دوّنها آباؤنا وأجدادنا منذ قديم الزمان.. منذ بدأ الخلق.. من يملكها يملك الحكمة.. ومن يملك الحكمة يملك العالم كله.

إذًا أنتِ تحكمين بالسحر.

- لماذا تصرين على عدم الفهم.. هنا يكمن السحر وطرقه وأسراره ومفاتيح الشر.

وكانت تشير إلى الصندوق الصغير الآخر.. فسألتها:

- ولماذا إذًا تجمعين بين الاثنين؟ وما شأن الملوك بالسحر وأسراره؟

- قلت لك.. لا أحكم به.. إنما أحرسه.

- إذًا تحكمين بأسرار التاسوع المقدس.

هزت رأسها في يأسٍ وقالت بتنهد:

- يا بنيتي.. كفاك ظلما لأمك. أنا أكثر من يحبك في هذه الدنيا.. أمك لا تحتاج إلى قوة عُليا كي تحكم.. إنما أنفذ الوصية وأبقي على الأمانة.. وأحفظها من الأيدي الخائنة المتربصة.. لكن أتدرين بماذا أحكم؟

- بماذا ؟

تحركَتْ من أمام صومعتها السرية هذه عائدة إلى مخدعها وقالت:

- علمتني الحياة أن للإنسان أعداء ثلاثة.. إما العلة.. وإما فقر الحال.. وإما نفسه.. وأنه إذا انتصر على نفسه سخَّر الطبيعة لخدمته.. فاستعان على فقر الحال.. وإذا ما انتصر على فقر الحال.. صادفته العلة.. فإن تجاوزها بصبرٍ بلغَ الحكمة.. وأنه إذا بلغ الحكمة.. ملك الدنيا بما فيها.. فشيَّد وأنشأ وعلا ولم يتكبر.. فهم الكون وإليه انتمى.. فنال الحياتين وصار ملكًا يمشي.

وقالت سائلة وهي تنظر إليَّ بعمق في عيني:

- أتظنين أن الملوك لا يسكنون سوى القصور؟!

- ولِمَ كان التحايل على القصر والكهنة إذًا مادمتِ تملكين كل هذه الحكمة؟

- يا بنيتي.. قلت لك.. إن مصر لا تقبل إلا ملكًا.. ضعي إنسانًا واحدًا على

الأرض وسيقوم بزراعة عشرات الأراضي.. ضعي عشرة أفراد وسيزرعون مئات الأراضي...لكن ضعي مئة وحدهم دون ملكٍ عليهم وسوف يقتلون بعضهم بعضًا على ما زرعه الأولون.. إنما نحن الخير والشر مجتمعان في ناموس قديم قديم.. لا يفهمه إلا خالقه.

وصمتت لوقتٍ قصير وبدا أنها انتهت مما دعتني إليه، ثم قالت وهي تشير إلى الصومعة السرية:

- أما وقد عرفتِ عن الصندوقين.. فقد صرتِ مسؤولة من بعدي عن حفظهم.. هذا ما دعيتك بسببه.. هذه أمانتك التي سوف تحمينها طوال عمرك.

قت من مجلسي واتجهت إلى الباب لأنصرف فقالت بتعجب:

- ألن تودعي أمك حتى قبل رحيلك؟

نظرت إليها وللمرة الأولى قلت لها في لومٍ شديدٍ:

- ألم تفكري بحكمتك العظيمة هذه ما الذي سيجرى علينا على يد «تحتمس» وجيشه بعد أن تذهبي أنت إلى نعيمك الأبدي؟

- قلت لك سيدبر الكهنة هذا الأمر.. وسوف نجد لهذا حلًّا في حينه.

- أتظنين حقًّا أن «تحتمس» سيصبر علينا إذا ما رحلتِ.. وأنه سوف يعمل حسابًا للكهنة؟ بعد أن يكون قد ضاع منه العرش كل هذا العمر؟

وصمتت أمي هذه المرة ولم يكن من ردٍّ لديها.. فقلت لها وأنا راحلة في حنق لخرج صوتي مختنقًا:

- فلتتدبري هذا بحكمتك سريعًا.. فربما لا يسعفنا الوقت.. ولتستشيري الآلهة ربما ساعدتك في هذا أيضًا.

ثم انصرفتُ عائدة إلى غرفتي وكلي غضب من الأسرار التي أطلعتني عليها أمي وحمّلتني أمانتها دون رغبة مني في ذلك.. وازداد يقيني بأني حتمًا تاركة هذا القصر قريبًا.

عند انتقالي من جناح أمي إلى جناحي الخاص مررت في ممر مكشوف بين المبنيين، وكان الليل قد حل، وكانت نافذتي ظاهرة من بعيد فوق البستان الصغير الذي كان يرعاه «حور» قبل أن يختفي ذلك النهار المشئوم.. تمشيت إلى الحديقة وانتبه الحرس لقدومي فأمرتهم بالانصراف للوقوف مع بقية الحرس الآخرين خلفي.. ورحت أتفقد البستان الصغير أبحث عن رائحة «حور» بين زهوره.. واستبد بي الحزن الشديد وبدأت عيناي تدمعان فجلست على إحدى أرائك الحرس.. ونظرت إلى النجوم بعيدًا في السماء ثم أسقطت رأسي بين يدي ورحت أتنهد في حزن ووحدة.. حتى جاء صوت «سننموت» من خلفي سائلًا بهدوئه الشديد:

- مالك يا بنيتي.. هل صار اجتماعك مع جلالة الملكة إلى أي سوء؟

لم تواتني القوة لأرفع رأسي منتبهة لما يقول.. فرددت من بين حزني الشديد:

- صار إلى ما صار إليه.. لم يعد شيء يعنيني في هذا القصر.

فوضع يده فوق كتفي ورفع بيده الأخرى ذقني حتى لمح الدموع في عيني فقال بقلق بالغ:

- مالك يا زعفرانة؟ ماذا بكِ؟ احكي لي يا طفلتي الصغيرة.

قلت بين بكائي:

- ضاع قلبي منّي.. ذهب لا أدري إلى أين.

- وهل تبحثين عن قلبك هنا تحت قدميك يا حبيبتي؟

ثم استدار وجلس جواري وتابع سائلًا:

- تولي لي يا طفلتي الصغيرة، يكاد قلبي أن ينفطر عليك كلما شممت رائحة الوحدة هذه تفوح من قلبك كل يوم.

- رائحة الوحدة؟ وهل للوحدة رائحة؟

- يا حبيبتي.. إن كان للخوف رائحة.. وللحزن رائحة.. وللاشتياق ألف رائحة.. فكيف برائحة الوحدة؟ وهي مزيج من هذا كله؟

تأملت كلامه وقلت:

- ماذا أفعل إن كانت وحدتي هذه قد أصبحت مشيئة الآلهة مجتمعين؟

- يا بنيتي.. لا تظلمي جلالة الملكة.. تعرفين أكثر مني عن حبها لك وخوفها عليك؟

- دائمًا ما تدافع عنها يا «سننموت» الحكيم.. لكن قل لي.. وأنت من تحدثني عن وحدتي.. مالي أراك غارقًا في وحدتك أنت منذ كنت تحملني وأنا صغيرة في مهدي.. أين أحبّتك يا «سننموت» الحكيم؟ أين عشيرتك ورفقاؤك؟ أينَ أصدقاؤك؟ هل هربوا جميعًا من هذا الذي تعيش فيه ؟

أطرق برأسه إلى الأرض وبدأ حزنٌ يغزو وجهه.. ثم عاد شاخصًا ببصره إلى السماء حيث كانت أعين رع الخافقة متلألئة هنالك.. ثم قال وهو ما زال ينظر إليها:

- رحل مَن رحل.. وابتعد من ابتعد.. وسرقني العمر حتى صرت ما صرت..

وتنهد طويلًا ثم أكمل:

وكان العمر كلما مر تخففت شيئًا فشيئًا من أحمال المحبين.. وحُمّلت بدلًا منها أوزار ذكراهم.. ولما طال الطريق.. ووجدت خطاي فيه قد ثقلت.. وظهري فيه قد لان.. نظرت معي ولم يكن شيئًا معي.. فعلمت أن وِزر الذكرى أثقل وأبقى من حمل صاحبها.

وكانت عيناه تلمعان من دموع احتبست فيهما.. ولما لاحظ نظرتي إليه قام من مجلسه جواري وقال لي:

- ابحثي بنفسك عن قلبك الذي ضاع منك يا بنيتي.. ولا تنتظري ذلك من أحد.. ولا تتركي نفسك لمخالب القصر.. فهي لن تهدأ إلا بعد أن تنتهي منك.

وهمَّ بالرحيل فاستوقفته سائلة في غير ابداء لاهتمام:

- ألم تعلموا أي شيء بعد عن ذلك الصبي.. أعني الذي كان يدعي الصمم؟

فابتسم بين دموعه التي جرت رغمًا عنه على خده وقال:

- لا شيء محدد بعد.. لكن أغلب الظن هو ما قاله البيت الذي جلبته منه.. هو أحد أحفاد «كاموس» الراحل أو أحد الملوك السابقين.. سأعلمك إذا تأكدت من شيء لا تقلقي يا صغيرتي الجميلة.

ثم ودعني بابتسامة طيبة ورحل.. وعدت بعدها أنظر إلى أزهار البستان التي بدأت تذبل من قلة العناية بها بعد هروب «حور» ثم عدت إلى غرفتي بجناحي..

وقفت في النافذة أكمل مراقبتي للنجوم واستبدت بي الوحدة من جديد وعادت تفترس قلبي فقلت أناجي «حور» في توسُّل: «يا نوري الذي حل سريعًا ورحل سريعًا.. عُد إليَّ.. أمتع ناظري بوجهك الجميل.. وطَمئِن قلبي الذي لم يهدأ منذ أن رحلت.. عُد إلى حبيبتك التي وهبتك نفسها ذات مرة فأبيت إكرامًا لعزتها.. رغم ما كان باديًا من حب في عينيك اللتين كنت تناجيني بهما.. عد إلى حبيبي فأنا أشتاقك ولا أعلم كيف أبحث عنك.. عُد إليَّ أو دلني كيف أجدك».

ثم أغلقت نافذتي ومسحت دموعي التي أفلتت مني وناديت على إلهي المحبوب رع قائلة: «هبني إشارة من لدنك تصبّرني على شوقي وأيامي.. فإني وحيدة..»

وعدت لأنام وأزيد من توسلاتي لرع كي يزورني «حور» في أحلامي..

وعندما صحوت من نومي وقمت بفتح شرفتي وجدت تاجًا من الزهور مزينًا بالبنفسج.. وُوضعت زهرة ذهبية رقيقة لم أرَ مثلها في حياتي كلؤلؤة في مقدمة التاج.. فارتديته في فرج وعاد قلبي إلى صدري من جديد.

وعلمت من «ميريت» أن الملكة قد أصدرت مرسوما ملكيا في صباح اليوم بتقليد «سننموت» الحكيم منصب مديرًا لبيت آمون الرب.. وعدت أسترجع ما قاله لي «سننموت» ليلة أمس.. وخطرت إليَّ فكرة مبهجة وكنت متأكدة أن معبودي رع هو من أوحى إلي بها، فصليت له شاكرة كرمه ورعايته.

بعد شهر جاءت الأخبار محمَّلة بالبشارة من بونت.. وقد اقتربت السفن من سواحل الأخضر العظيم.. وأخذ الكهنة يترقبون الهدايا والمنح العظيمة التي وعدتهم بها الملكة من جراء القيام بتلك الرحلة.. وأخذت البلاد ترتدي مظاهر الابتهاج منتظرين الخيرات الكثيرة مثلهم مثل الكهنة.. وقد اتجهت أنظار الناس وقلوبهم تدعو للملكة وتبتهل لها في تضرع بعد أن شكك المتربصون من حاشية «إيست» وأعوانها في جدوى هذه البعثة التجارية الضخمة وإمكانية نجاحها وعودتها سالمة من تلك البلاد البعيدة الغريبة..

توسلت إلى أمي الملكة أن تتركني أذهب مع الموكب الذي سترسله لاستقبال الفوج الأول من الرحلة العائدة من بونت عند سواحل الأخضر العظيم.. فأبت وخافت عليَّ.. لكنها قبلت في النهاية مشترطة على أن أذهب أولًا في بعثة قصيرة إلى شبه جزيرة الفيروز مع «تحتمس» بصفتي الزوجة الملكية له.. على أن يرافقني الحرس الخاص الذي يعينه «سننموت» بنفسه.. وكانت بعثة صغيرة لتفقد المناجم

العديدة الموجودة هناك.. ولإرساء حكم «تحتمس» الملك على الحدود والأقطار البعيدة التي أَحَبَّ هو مسؤولية العناية بها لميله الشديد للحرب ولمطاردة المارقين المتمردين على الحكم..

وافقت رغمًا عني في النهاية أملًا في أن تتركني الملكة أخرج من بين أسوار هذا القصر.. فارتديت عني فوق رأسي التاج ذا الريشتين الطويلتين.. ووافقت «تحتمس» في بعض المراسم التقليدية التي أكرهها.. وكنا نفترق مباشرة بعد انتهاء هذه المراسم ولم أدعه يمسني أو ينفرد بي حتى عدنا إلى طيبة.. ومكثت ليومين اثنين ثم تحركت إلى المرفأ الذي شيد على ساحل البحر حيث كانت السفن العائدة من بونت قد اقتربت.. وصرت أتردد بين القلعة الصغيرة التي بناها المهندسون حديثًا على ساحل البحر، وبين الخيم في المرفأ التي نصبتها الجالية للنبلاء الذين حضروا ومعهم عدد من كهنة المعبد وكتيبة مسلحة من الحرس.

صرت أفكر في طريقة تسمح لي بالتخلص من الرقابة الحرجة المفروضة عليَّ في القلعة وفي الخيمة التي اخترتها قبالة الساحل.. واستقريت في النهاية على التحرك عندما تصل أول السفن.. وفور أن ينشغل الجميع بالحديث عن الخيرات والعجائب التي قد تأتي بها.. وعندما انتشر خبر اقتراب أول السفن من المرسى المخصص لها على ساحل البحر وبدأ الهرج يغزو المكان واندفع معظم الناس إلى المرسى وارتبك الحرس وتهرب عددٌ منهم تاركًا خدمته وذهب مع مَن ذهبوا، عدت في حرص شديد إلى خيمتي ألملم أشيائي لأفر هاربة.. وفور أن دخلت الخيمة وجدت امرأة تضع عباءة من عباءات الجواري على جسدها وتوليني ظهرها.. فسألتها في صوت مرتبك من مرآها المخيف:

- من أنتِ.. وماذا تفعلين في خيمتي؟

فكان أن استدارت إليَّ وألقت عباءتها أرضا.. فوجدته «حور» وقد كان متخفياً.. فاتسعت عيناي دهشة ورقص قلبي فرحًا وألقيت بنفسي بين ذراعيه.. ورحت أقبِّله.

***

(١٠)

يحيى

أنهيت الترجمة للبردية الثانية.. ولم أصل إلى شيء وتأكدت من وجود بردية ثالثة كما هو مذكور في التقدمات في بداية البرديتين.. شككت أنه في الغالب قد سرقها أحد أبناء مسعود.. وقد صار شيخًا كما حكت ياسمينا.. وتجارة الآثار المسروقة في مدن الأقصر وأسوان لا تهدأ ولم تنتهِ أبدًا.. وبرديات أصلية وملكية كهذه يدفع فيها المولعون بجمع التحف والآثار مبالغ طائلة.. لكن ما جعل ظني غير مؤكد هو ما الذي يجعل السارق يأخذ بردية واحدة ويترك الأخريات؟ ما أهمية الثالثة عن الأولى والثانية كي يتركها هكذا؟

نظرت إلى ياسمينا النائمة كالطفلة من فرط السهر والإرهاق ويبدو أنها استسلمت للنوم سريعًا وهي تقرأ ترجمتي للبردية الأولى. قمت إليها وسحبت الأوراق برفقٍ شديدٍ من يدها كي لا أوقظها.. ووجدت يدها باردة بشدة وكانت آخر ليالي ديسمبر والبرد صار شديدًا، ففردتُ أحد أغطية الفراش من تحت قدميها

في حرصٍ وقمت بتغطية جسدها وفتحت هي عينيها ونظرت إليَّ بصعوبة، ولم تلبث أن عادت للنوم في ثوانٍ دون أن تلاحظني. ابتسمت لبراءتها الشديدة ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا أطبع قُبلة هادئة فوق جبينها، ثم عدت أشرد فيما قرأته في البردية الثانية وأقارنه بما درسته من التاريخ. وكان كل ما وصلنا في الكتب يتوقف عند اللحظة التي اختفت فيها الأميرة «نفرو- رع» بين العام الثامن والعاشر لحكم والدتها الملكة حتشبسوت.. وكل الآثار والتماثيل التي شيدت لها كانت لها وهي بعد طفلة صغيرة بين يدي مربيها ومهندس القصر ذائع الصيت «سننموت».. وكان آخر ما وصلنا من أخبار عنها هو نقشٌ وُجِدَ في سرابيط الخادم[9] بسيناء في مناجم الفيروز القديمة آن ذاك.. وكان النقش يجمع بين الأميرة نفرو- رع وأخيها من أبيها.. وقد ذكرَها النقش على كونها الزوجة.. في الغالب كانت هذه هي الرحلة التي حكت عنها الأميرة في تلك البردية والتي قامت بها تنفيذًا لرغبة أمها المكلة..

سافر بي التفكير إلى تلك الحقبة الزمنية البعيدة متجاوزًا مئات السنين التي تفصل بيننا.. وكنت مشبّعًا بنشوة كبيرة لم أعهدها في حياتي منذ قمت بدراسة التاريخ.. ورغم تعبي البالغ لم يهدأ رأسي عن التفكير فيها.. وأخذت أتساءل بيني وبين نفسي عما يكون قد آل إليه مصير البردية الثالثة.. وقد كان من الطبيعي أن تكون في مقبرتها الملكية.. إلا أنها كانت قد سرقت بالكامل مثل معظم المقابر الملكية في وادي الملوك.. ورحت أفكر وأفكر حتى غلبني النوم.

---

[9] تقع في جنوب غرب شبه جزيرة سيناء ويوجد بها معبد حتحور

في الحلـم جـاءني «سـننموت» وكان جالسًـا مـع جـدي في صالـة بيتنا القديمـة.. وكانـت إلى جـواره زينـب وهـي طفلـة وكان يمشـط لها شـعرها في هـدوء ونعومـة.. ولمـا انتهـى خلـع شـيئًا كان يرتديـه حـول عنقـه وأعطـاه لي.. ولمـا نظـرت فيـه وجدتهـا قـلادة علـق فيهـا مفتـاح الحيـاة.. وكانـت زينـب تنظـر إليَّ وتبتسـم وهـي تلملـم شـعرها. واسـتيقظت فجأة مـن الحلـم ووجدتنـي قـد نمـت مـكاني عـلى الكـرسي أمـام الفـراش.. وكانـت ياسـمينا قـد صحـت مـن نومهـا مرتديـة ملابسـها كاملـة ووافقـة أمـام المـرآة تعـدل مـن تصفيفـة شـعرها.

حاولـت أن أسـتعيد تركيـزي وقـد فقـدت الصلـة بعـالم الواقـع بسـبب الحلـم الأخـير بـ«سـننموت» وزينـب.. ولمـا تأكـدت مـن صحـوي سـألت ياسـمينا عـن الوقـت فأخبرتنـي أن المسـاء قـد حـلَّ منـذ فـترة وتجـاوزت السـاعة التاسـعة.. ولمـا نظـرت إليهـا ثانيـة ووجدتهـا تعـدّل مـن هندامهـا وهيئتهـا أمـام المـرآة سـألتها في فضـولٍ:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

فردَّت بمرحٍ:

- سأقوم بتوصيلك.. أنا لا أستقبل غرباء في غرفتي!

فاجئنـي قولهـا الغريـب هـذا ولمـا وجـدت الدهشـة قـد غمـرت وجهـي ضحكـت وأشـارت إليَّ قائلـة:

- كان يجب أن ترى وجهك الآن.. أمزح معك يا يحيى.

ثم اقتربت وقالت برقة:

أعلـم أنـك كنـت سـترحل فـور أن تسـتيقظ كـي لا نظـل وحدنـا في

الغرفة.. ففكرت أن أستبقيك قليلًا وفكرت أن نذهب لنسهر قليلًا في المارينا.

ونظرت إلى عينيها، وكانت قد زينتها بكحل مثل الذي كانبها في عرس القرية بالأمس فقلت:

- أرى أنك قد أعجبتك زينة نساء القرية.

- نعم.. وجدت عينيّ أكثر جمالًا في الكحل.. لا أعلم كيف لم اجرب ذلك من قبل.. هل أعجبك؟

- نعم.. جدًا.

ثم امسكت يدي وقالت وهي تنظر إليّ:

- أرى أنك قد تفهمت إخفائي أمر البرديات عنك.

- بشكلٍ ما.. لكن كان من الأولى أن تخبريني من البداية.. ولا تتركيني للشك هكذا.

- أنا آسفة.. والآن هيًّا قم واغسل وجهك.. الوقت تأخر والمارينا تغلق معظم الكافيهات فيها مبكرًا منذ بدأ الشتاء.

- أية مارينا الآن يا مجنونة.. لن أفعل أي شيء قبل أن أفهم سر هذه البرديات.. ألم تقرئي البرديات الأولى؟

- قرأتها هي والثانية أيضًا وأنت نائم.. لكن لم أفهم شيئًا.. بالمناسبة.. ما هو التاسوع المقدس هذا؟ فهمت من حكاية الأميرة أنه شيء كبير ذو شأن.

نسميه تاسوع هيليوبولس المقدس.. نوع ما من تحالف لكبار الألهة القديمة التي عبدوها.. تحكي الأساطير القديمة عن دورهم

في بدء الخلق وماهية الصراع الأزلي بين الخير والشر.. كان له أشكال عدة وله نظائر في ثقافات أخرى.. التاسوع المقدس الذي تحدثت عنه الأميرة والذي كانت ترعاه أمها الملكة هو ما يسمى التاسوع العظيم.. فقد كان يجمع بين المعبود الأهم لديهم وهو «رع» جنبًا إلى جنب مع ست وإيزيس وأوزوريس أصحاب الأسطورة الشهيرة.. وخمسة آخرين من أهم الأرباب لديهم في ذاك الزمان.

هزت ياسمينا رأسها في فهم، وكانت يدها ما زالت ممسكة بيدي.. سحبتها في لطف وتحججت بذهابي إلى الحمّام لأغسل وجهي وقلت لها:

- ما وصلني وفهمته من البرديات هو أن حتشبسوت الملكة كانت تقوم على حماية لطقوس أو صلوات تخصهم.. جنبًا إلى جنب مع الصندوق الآخر الذي تحدثت عنه الأميرة في البردية.. صندوق أسرار السحر المحرّم.

وجاء صوت ياسمينا وأنا أغسل وجهي.. سائلًا في شرود:

- أتظن أنه موجود؟

- ماذا تقصدين؟

- أعني هذا السحر واللعنات وكل هذا الذي كانت تحكي عنه الأميرة «نفرو-رع».

خرجت لأجفف وجهي وسألتها منشفة فأحضرتها إليَّ وهي في نفس شرودها وقلت لها:

- ربما.. وربما لا.. هذا عالم كان مليئًا بالأسرار بداية من بناء

الأهرامات وإتقان علوم معقدة مرتبطة بالرياضيات والطبيعة والنجوم والفلك وأسرار التحنيط.. لا يوجد ما يمنع وجود السحر نفسه. المحزن هو أننا لم يصلنا منها فعلًا إلا الفتات.. بينما ضاع منها ما ضاع على مَر عصورٍ طويلة قضت حروبها وثوراتها على ما بقي من تلك الحضارات.. فلم يبقَ منها إلا المعابد والنقوش.

وعادت ياسمينا لتهز رأسها في نفس الشرود.. وقالت:

- لكنني أصدق أن هذا السحر كان موجودًا..

قلت: ربما. الآن كل ما يشغل بالي.. أين ذهبت البردية الثالثة؟

- بحكم عملك السابق.. أين تظنها قد ذهبت؟

- أكثر شيء أظنه، أنها موجودة في غرفة الدفن الخاصة بالأميرة ولم تكن مع البرديات الأولى والثانية.. المشكلة أن غرفة الدفن المزعومة نفسه.. سرقت منذ زمن.. هذا إن كانت غرفتها من الأساس وليست مجرد تمويه.. وربما كانت البرديات الثلاث في الغرفة التي سرقت في الماضي.. ووصلت البردية الأولى لجدتك بشكل أو بآخر.. لكن يظل السؤال: لماذا لم تكن البردية الثالثة موجودة مع مسعود وآل عواد من البداية؟

أخذت ياسمينا تتمشى في الغرفة وتتفحص البرديات بيديها وتقلب فيها وقالت وهي تنظر إلى البردية الثانية:

- الموضوع كله معقد ومرهق.

- ربما لو ذهبنا إلى بيت «آل عواد» للاستفهام أكثر.

- ربما لكن ليس الآن.. الآن عليك أن تعزمني على قهوة في الماريناا.. وسأسمح لك أن تتغزل فيّ قليلًا. وربما أسامحك.

وكانت تبتسم وتنظر إليّ بطفولتها التي تظهر بين حينٍ وآخر.. تنهدت في صبرٍ على إلحاحها للذهاب إلى المارينا الآن.. وقلت:

- هل أنتِ فعلًا لا يهمك الموضوع إلى تلك الدرجة.. ألا يدفعك الفضول حتى لمعرفة ما وراء هذه البرديات؟

سكنت حركتها تمامًا هذه المرة وغادرتها روح الطفلة التي كانت منذ دقيقة.. وعادت عينا ياسمينا القويتان اللتان تقتحمان روحي فور أن تنظر إليّ في عيني وقالت وهي تقترب:

- كان يهمني أن أعرف في البداية.. والآن قد عرفت ما وراءها.. لم يعد شيء يهم.

- وما هو وراءها؟

- وراءها أنت يا يحيى.. أن أجدك.

واقتربت أكثر.. وقالت:

- لا تدرك الراحة والطمأنينة التي شعرت بها اليوم عندما قمت من النوم ووجدتك نائمًا جواري على المقعد.. للمرة الأولى في حياتي أجرّب إحساس الأمان هذا.

ثم أراحت رأسها على صدري ولفت ذراعيها حول عنقي في قوة وتابعت في همس:

- وأنا لن أتنازل عن هذا الإحساس ما حييت.

ووجدتني أطوقها بين ذراعي وأضمها إلى أكثر وأكثر.. وغمرتني سكينة لم أكن أعرفها منذ رحلت زينب.. فتركت نفسي للسكينة تغمرني وتربت على روحي.. لكن جزءًا عنيدًا من عقلي كان هناك..

مع البرديات القابعة على الطاولة تجاورها علامات استفهام كثيرة..

وشعرت ياسمينا بشرودي .. فقالت وكان صوتها خافتًا تمامًا:

- ماذا الآن.. لماذا تقاوم.. ماذا تريد أن تثبت أيضًا؟

قلت وأنا أضمها أكثر:

- لا.. لم أعد أقاوم.. فقط يأخذني الفضول بشأن البرديات ولا يريد أن يتركني وشأني.

- دعك من كل هذا الآن.. لا شيء يهم الآن سوانا..

- لو أعرف فقط ما علاقتي أنا بكل هذا.. ولماذا قصدني مسعود تحديدًا؟

- وما أدراني.. يمكنك أن تسأله بعد ذلك.. هذا هو ما أخبرني به زين.. وعمار والملثم الذي كان معهما.

- الملثم.. أي ملثم؟

- الرجل الثاني الذي حضر مع عمار عند مقبرة روز.. الرجل الذي كان يملك المفاتيح الخاصة بالمقبرة.

انتبهت لما تقول ودار في رأسي ظن غريب فأبعدتها بهدوء عن صدري وسألتها وأنا أنظر في عينيها بفضولٍ شديدٍ:

- وكيف كان يبدو هذا الملثم؟

- قلت لك من قبل يا يحيى.. كان شكله مهيبًا في الليل ولم ألمح له وجهًا، كان يضع عباءة بيضاء هائلة على جسده ويلف معظمها حول وجهه فلم أرَ منه أي شيء.

قلت وقد بلغ فضولي منتهاه:

- عباءة بيضاء.. وملثم؟

- نعم.. كان الوقت ليلًا، وكان يبدو واضحًا في عباءته تلك وكان منظره مرعبًا.

عدت لأجلس على المقعد أفكر ورأسي تتناوبه مئات التفسيرات لوصفها لهذا الملثم.. وعدت لأسألها:

- ما الذي قاله لك مسعود تحديدًا بشأن قدومك إلى هنا؟

- لم يقل لي إنما قال لزين.. وزين هو الذي أخبرني.

- نعم نعم أفهم.. أعني ما الذي قاله لك نَصًا؟

- قال زين.. اذهبي إلى الغردقة.. إلى وادي حبيبة، وابحثي عن كبيرهم الذي يعمل هناك هو الذي يملك الإجابة على أسئلتك.

قمت مرة واحدة من فوق المقعد وقد فهمت أخيرًا وصحتُ:

- كبيرهم.. كبيرهم.

وسألتني ياسمينا:

- ماذا؟

- لم يكن يقصدني يا ياسمينا.. لقد كان يقصد الشيخ ياسين.

ونظرت إلى البرديات مرة أخرى، وقلت بعد أن أدركت كل شيء.

- الضريح!!

***

انطلقت السيارة في الطريق بسرعة داخل الممر الجبلي في الطريق

إلى القرية.. وكانت الظلمة حالكة وكانت ياسمينا تقول:

- ألم يكن من الأفضل أن نذهب في الصباح.. أرى الطريق بصعوبة.

فرددت:

- لقد رآنا عارف صباحًا وأنت تدخلين إلى غرفتي.. وإن صح ظني فهم يعرفون الآن بأمر البرديات وبكل شيء.. لا يمكنني المغامرة والانتظار حتى الصباح.

- الطريق سيء جدًّا.

- لو كنتِ حكيتِ لي منذ البداية بالتفصيل ما كنا تأخرنا هكذا.

التفتت إليَّ ياسمينا وقالت بتحفز:

- وكيف لي أن أفهم مَن كان يقصد زين.. كانت معي برديات مكتوبة باللغة الهيروغليفية.. وكنت أنت خبيرًا باللغات وتعيش في وادي حبيبة.. ما الذي يجعلني أفكر في شيخ قبيلة بدوية يقطن الجبال؟

أشرت إليها أن تنتبه إلى الطريق وقلت:

- في الغالب هم ليسوا ببدوٍ.. أظن أنهم أقرباء لبيت «آل عواد» بشكلٍ أو بآخر.. على الأقل الشيخ ياسين وولده.

ثم عدت أنظر إلى الطريق وأفكر في البرديات.. لو صح ظنّي فقد هربت الأميرة الزعفرانة مع «حور» هذا عبر ساحل البحر الأحمر وتوجها شمالًا على خط الساحل.. واستقر بها المقام بين الجبال.. وربما عاشت هناك حتى دُفِنت فيما أصبح بعد ذلك قرية الجبل.. لكن لا يمكن التأكد إلا برؤية ذلك بنفسي.. وقلت لياسمينا:

- أتعلمين.. لو أننا على صواب، فنحن على بعد خطوات من أهم كشف تاريخي في العصر الحديث.. ربما أكثر أهمية من مقبرة «توت عنخ آمون» نفسها.. ستكون هذه مقبرة ملكية بِكر لم يدنسها إنسان من قبل.

نظرت إليَّ ياسمينا وقالت في ابتسامة خبيثة:

- الآن كل ما أصبح يهمك هو المقابر والاكتشافات.. لا تنسَ أنه لولا فهمي الخاطئ لكلام زين لما تقابلنا من البداية.

ثم عادت تنظر إلى الطريق.. وكنت أبتسم فقد كان كلامها صحيحًا.. فلولا ما حدث لكنت قابعًا الآن في غرفتي أتقاسم وحدتي مع صمت الجبال من حولي.

وصلنا القرية بعد نصف ساعة من القيادة المتهورة لياسمينا.. وزاد يقيني أننا على الطريق السليم عندما لمحت قبل مدخل القرية بدقائق من يسمونهم عفاريت الصحراء مرتين متتابعتين.

دخلنا القرية وكانت مظلمة بالكامل ترقد في عتمة الليل.. ولم يكن هنا أي مصدرٍ للإضاءة سوى نور خافت مصدره مسجد للقرية جوار المقام.. وكانت هناك إضاءة خافتة أخرى مصدرها مصباح صغير نسيه أحدهم من عُرس الليلة البارحة.. طلبت من ياسمينا أن تتوقف أمام المسجد مباشرة في الساحة التي كان فيها العُرس.. وقبل أن أخرج من السيارة قلت لها:

- انتظريني هنا، ولا تخرجي من السيارة مهما حدث ولا تتركي أبوابها مفتوحة.. وكوني متأهبة للحركة في أي وقتٍ.

توترت ياسمينا بعد ما قلته لها من تحذيرات وسألت:

- أيوجد خطر ما؟

- لا.. لا أظن.. لكنه احتياط.. نحن لم نفهم كل شيء بعد.. وربما كنّا مخطئين في ظنوننا.

ثم أخذت بردية واحدة من البرديات التي وضعتها في حقيبة السيارة ولم آمن أن أتركها في الأستديو ولا في غرفتي بالكامب.. ولم أكن أستطيع تركها من يدي وقد كنت أدرك قيمتها الكبيرة.. ثم دخلت إلى المسجد.. وكان الشيخ ياسين هناك كما توقعت. أمام المنبر الصغير للمسجد وكان جالسًا يقرأ في صوتٍ خافتٍ.. وصدّق على ما كان يقرأ ونظر إليَّ في صمتٍ وقلت:

- السلام عليكم..

فردَّ بهدوءٍ شديدٍ:

- وعليكم السلام والرحمة.

وأغلق المصحف أمامه ثم سأل:

- لماذا تأخرتم هكذا يا ولدي.. ننتظركم منذ الصباح.

فاجأني رده هذا.. وقلت في رأسي في الغالب قد أعلمه عارف بتحركنا.. ثم سألته:

- تنتظروننا؟ مَن الذين ينتظروننا؟؟

- أنتظرك أنا.. وولدي يزيد ومن كان يتبعكم.

ثم نهض من مجلسه وقام بتهدئة الإضاءة في المسجد إلى أقصى درجة ممكنة.. وبدأ يقترب.. فسألته وأنا أشير إلى البردية في يدي:

- أتعرف شيئًا عن هذه يا شيخ ياسين؟

فقال بعد أن اقترب منّي ونظر إليها.. ثم تناولها من يدي وأخذ يتفحصها بين يديه ويقلّبها.. ثم أعادها وولاني ظهره واتجه إلى خارج المسجد وقال:

- طيلة عمرى وأنا أنتظر اليوم الذي أعرف أي شيء عنها يا ولدي.. أي شيء.

ثم تابع وهو يخرج من المسجد، وكنت ما زلت في مكاني:

- ثوانٍ لأوقظ يزيد ابني ثم أعود إليك.

ونظر إلى سيارة ياسمينا وقال في لوم:

- يمكنك أن تطلب من السيدة القدوم.. نحن قوم مسالمون يا ولدي ولا خوف منّا.. أنت تعرفنا منذ زمن!

ثم تركني في المسجد وخرج.. وبقيت واقفًا في مكاني وقد تأكدت ظنوني جميعها ولم يبقَ إلا أمرًا واحدًا كلما فكرت فيه وجدته مبالغًا فيه.. لكن لم يكن لدي شك في أمر آخر.. وخرجت إلى باب المسجد وأشرت إلى ياسمينا أن تنتظر.. وطمأنتها بابتسامة كانت مرتبكة.. ولاحظتها ياسمينا فازداد توترها خاصة بعد أن عاد الشيخ ياسين ومعه يزيد ولده.. وكان باديًا عليه الضجر وقد أخرجناه من بيت عروسه الجديد.

كان يزيد يحمل في يده بضعة أعواد غليظة من جذوع الأشجار المقلمة في نهايتها رأس مطعم من جريد النخل.. يبدو أنها تستخدم كمشاعل.. وكان الشيخ ياسين في يده زجاجة صغيرة وحلقة معدنية

صدئة بها مفتاحان كبيران في طرفيها.. وأشار إليّ الشيخ ياسين وإلى ياسمينا فخرجتُ من المسجد وتوجهت إلى ياسمينا التي كانت تراقب وقد بلغ قلقها ذروته.

خرجت من السيارة وتبعنا الشيخ ياسين ويزيد إلى الساحة الجانبية.. حيث كان يوجد الباب الخلفي لمدخل الضريح.. ولم أسأله لِمَ لَمْ ندخل من باب المسجد.

أولج الشيخ ياسين أحد المفتاحين في الباب الخشبي العتيق، وظل يحاول فتحه لكنه لم يفتح.. وقد بدا أنه قد مرَّ عليه زمن لم يقم أحد بفتحه.. ثم أخذ يزيد منه الزجاجة وسكب بعضَ ما كان فيها من زيت للتشحيم داخل القفل.. ثم حاول مع الباب مرة أخرى.. وظل الباب يقاوم دفع يزيد والشيخ ياسين فانضممت إليهما وبقينا نحاول حتى استجاب القفل ثم فُتح الباب أخيرًا. وقام الشيخ ياسين بإشعال أحد الجذوع التي كانت في يديه.. ثم مدَّ ذراعه إلى الداخل والمشعل في يده.

كانت غرفة صغيرة أدركت من موقعي أن جدارها المقابل للباب هو الجدار الذي يفصلها عن الضريح.. وقد عزلت عنه بهذا الجدار فقط، وكان في منتصفها باب خشبي صغير يصل المقام بغرفتنا هذه مباشرة. ولم يكن من باب آخر من ناحية المدخل الخاص بالمسجد.

قام الشيخ ياسين بإخراج المفتاح الثاني من الحلقة التي كانت في يده، وأولج المفتاح بالباب ففتح مباشرة دون مقاومة مثل الباب الأول.

وكانت الإضاءة الخضراء القادمة من الغرفة الكبيرة التي تحتوي الضريح تجاه المسجد تساعد على الرؤية بشكلٍ كبيرٍ.. ودخل الشيخ ياسين ويزيد.. ودخلت خلفهما ومن ورائي ياسمينا.

كان يتوسط شاهد الضريح من الداخل صندوقٌ خشبي فوقه مفرشٌ كبيرٌ من القماش من نفس اللون الأخضر الصادر من المصابيح ومن نفس لون الجدران الخشبية للضريح من الداخل والخارج.. وكان الصندوق تمويها كشاهد ضريح للناظر من خارج المقام.

قام الشيخ ياسين ويزيد بدفع الصندوق من مكانه فتحرك في يسر تحت دفع يديهما.. وبعد ذلك قام يزيد بطيّ السجادة التي كانت تحته فوجدنا حلقتين معدنيتين لباب صغير يفضي إلى أسفل الضريح.. ومدَّ يزيد يده إلى الحلقتين المعدنيتين اللتين كانتا في الغطاء الباب الأرضي وجذبهما إلى الخارج بقوة شديدة حتى فتحه.. فظهرت لنا درجات عدة تقود إلى ما هو كائن تحت الضريح.. وقال الشيخ ياسين في صوته الهادئ دومًا:

- انتظروا دقيقة أو دقيقتين ليتجدد الهواء بالداخل.. لم يُفتَح هذا المكان منذ زمن بعيد..

والتصقت بي ياسمينا وبدا الذعر على وجهها وهمست:

- ما الذي يوجد بالداخل.. أهذه مقبرة؟

فأومأت بالإجابة.. ثم قلت للشيخ ياسين:

- منذ متى وأنتم هنا؟

- سنين عدة يا ولدي.. سنين لا يعرف أحدٌ عددَها.

- وهذا الضريح بالطبع مجرد تمويه

- في هـذا الزمـان ضريـحٌ.. في زمـان سـابق كان معبـدًا صغـيرًا يسـكنه راهب.. ومـن قبلـه ربـما كان كهفًـا.. لم يعـد أحـد يذكـر مـا كان عليـه.

فسألته:

- والقرية؟ أهُم من البدو فعلًا؟

- مـن البـدو ومـن الصعيـد.. مـن النوبـة ومـن القبائـل الليبيـة ومـن الواحـات.. مـن كل مـكان.. لم نرفـض ضيفًـا جاءنـا.. مـا دام قـد جـاء في سلام.

- ومَن يعرف عن الضريح؟

- أنـا وولـدي يزيـد فقـط.. ومـن قبـل أبي وجـدي وأبـوه وجـده.. كنا ننقـل الأمانـة بعضنـا إلى بعـض.. ونسـلمها دون أن نعـرف مـا بهـا.. وكل مـا نعرفـه أننـا ننتظـر سـيدتنا وقـت أن تـأتي.

وكان ينظر إلى ياسمينا التي لم تكن تفهم شيئًا فسألته ياسمينا:

- سيدتكم مَن؟

وقال الشيخ ياسين:

- أحسسـت بذلـك عندمـا رأيتـك بالأمـس بصحبـة الدكتـور.. رغـم أننـا يأتينـا الكثـير مـن الغربـاء.. وكل حياتنـا وأكل عيشـنا وسـط الغربـاء والأجانـب.. إلا أن شـيئًا مـا في صـدري أنبـأني أن الوقـت الـذي طـال انتظـاره قـد جـاء.. وأكَّـد لي ظنـي مـا أخـبرني بـه عـارف عندمـا رآكـما صباح اليـوم.. فجلسـت أنتظركـما طـوال النهـار.

وعدت إلى أسئلتي رغم أن ياسمينا لم تكن قد فهمت شيئًا بعد، وقلت له:

- أكان عارف يعلم بأمر الضريح؟

- لا.. لكنه كان يتبع العيون التي تراقب الطريق.

- تعني.. عفاريت الصحراء؟

فردَّ وهو يبتسم:

- هو ما أعنيه.. كان مَن أسموهم بهذا الاسم هم أبناء عمومتنا في نجع الحسينات قديمًا.. ولم تكن المدينة قد زحفت علينا قبل ذلك.

فقالت ياسمينا وقد بلغ فضولها نهايته:

- أنا لا أفهم شيئًا.. عم تتحدثون جميعًا؟

فقلت لها وأنا أتناول المشعل من يد الشيخ ياسين:

- ستفهمين كل شيء بعد أن ندخل.

فسألَتْ في ريبٍ:

- ندخل إلى أين؟

فقال الشيخ ياسين:

- إلى جدتك يا ابنتي.. إنها تنتظرك منذ قرون.

واتسعت عينا ياسمينا عن آخرهما فربتُّ على ظهرها برفقٍ، وقلت:

- لا تخافي، أنا معك.

فقال الشيخ ياسين:

- أظن أنه من الصواب أن تدخل سيدتنا وحدها أولًا.

قلت في حزم:

- لن تدخل إلى أي مكان وحدها بعد الآن.

وأخذت يدها وأمسكت بها في قوة فقال الشيخ ياسين «ما تراه» وانسحب لنا الطريق إلى مهبط الدرجات من تحت أقدامنا.. ودخلت أولًا وتبعتني ياسمينا ومددت المشعل أمامي وناولني يزيد بضعة مشاعل احتياطية أخرى من التي كانت معه.. وقالت ياسمينا:

- ماذا يعني بكلمة «سيدتنا هذه»؟

فضغطت على يدها بقوة أكثر وقُلت:

- سنعرف كل شيء الآن.. لا تخافي يا ياسمينا.. أنا معك.

ولم تكن من مرآة في المكان حتى ألمح زينب فيها.. إلا أن روحها كانت حولي في كل مكان.. وأقسم إنها كانت تبتسم.

***

(١١)

الزعفرانة

الثالث الأخير من ثلاثة

أنا الزعفرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة.. أنا من انتظرتك طويلًا وكلي أمل أن يعوضني مرآك عمَّ لقيته في حياتي.. جلست وحدي أدون لكِ حتى يأتي اليوم الذي تدخلين علي فيه.. فتهدأ روحي وتستقر إلى نعيمها الأبدي

أنا أمك يا حبيبتي.

أموت شوقًا إلى رؤيتك الآن ومعرفة ما صرتِ إليه من جمال بعد أن أصبحتِ يافعة هكذا..

لم أكن أطيق صبرًا أن أراكِ بينما أنتِ ما زلت تلهين في مرح طول الوقت في بطني.. وأشعر أنك تكلميني مثلما أكلمك كلما وضعت يدي فوق بطني أتحسس حركتك داخلي.. وتدمع عيني كلما علمت أنني لن أكون موجودة عندما تأتين كما علمت من سننموت الحكيم.

لكني غير حزينة.. رغم كل ما حدث.. فأنا غير حزينة.. بعد أيام قليلة

من الآن سوف أجتمع بأبيك «حور» في حياته الأبدية التي سبقني إليها..
وسوف ننتظرك هناك سويًا.. بعد أن تنعمي بحياتك هنا في العالم الأرضي.

آه يا حبيبتي لو أنك رأيتِ أباك الجميل.. كانت له ذراعان قويتان يمكنه أن يحمل
نخلة بهما دون أن يتعب.. ولقد نعمت معه أيّما نعيم. ولولا ما جرى.. كانت عيناك
ستريانه أول شيء في هذه الدنيا عندما تأتين إليها بنورك.. ولطالما كان مرآه جميلًا.

يسألني سنموت أنّى لي أن أعرف بأنك فتاة؟ وأنك جميلة؟

وكيف لا تكونين كذلك وأنا أحلم بك كل ليلة.. وأراك طويلة يافعة.. جميلة
مشرقة كوجه معبودي الحبيب «رع» العظيم.. وقد ورثتِ جمالك من أجمل الفرسان
في طيبة وأكثرهم شجاعة.. حور الجميل.

آه يا حبيبتي لو كنتِ رأيته وهو يحتضنني أمامه فوق جواده القوي ونحن نفر
من معسكر الشاطئ عند البحر تلك الليلة منذ سنوات بعيدة.

كنت أشعر وأنا بين ذراعيه على سرج الجواد أنني ملكة.. ملكة حقيقية لا
تركع الأرض أمامها كسائر الملوك الذين أتوا على طيبة.. إنما كنت ملكة تنبسط
الأرض أمامها كي تنعم فيها بحُريتها للمرة الأولى دون قيود.. دون حراس القصر..
وأعين الملكة.. ودسائس «إيست».

ملكة بين يدي مليكها.. على سرج جواد أبيض قوي سريع يمرق بنا فوق الرمال
على شاطئ البحر.. لا يتوقف ولا يتعب.. ولم أسأل «حور» عن وجهتنا وأنا معه.
وقد كان يكفيني أنني معه.. وما هو دون ذلك بالنسبة لي لم يعد يهمني في أي شيء.

وصلنا بعد يوم وليلة إلى حيث كان أهل والدك الطيبون يعيشون.... كانت بلدة
صغيرة هادئة.. تبعد عن البحر أقل من نصف يوم فقط.. وعلمت من «حور» عندما

وصلنا أنهم من تبقى من نسل «كامس»[١٠].. وقد طُردوا من رحمة «أحمس» بعد أن وشى بعض الكهنة بطمع بعضهم في الحكم.

الكهنة يا حبيبتي.. اهِ من الكهنة.. رأيتهم بعيني وهم ينصّبون جدتك إلهًا بين الآلهة.. طمعًا في بعض الذهب والبخور القادم من بونت.. وخوفًا من بطش الملكة بهم بعد أن ألصقت بهم تهمة التآمر على قتلي دون أن يفهموا كيف حدث ذلك..

هرب من تبقى من نسل «كامس».. وجمعوا شتاتهم واستقر بعضهم هنا جوار البحر.. وبقي بعض قليل منهم في طيبة.. عيونًا تراقب ما يحدث فيها.. وكان حظك السعيد وهدية الإله رع لي.. أن كان والدك أحد هذه العيون التي تسللت إلى القصر.. فقط كي أقع في هواه.

كان لوالدك أخوان كبيران.. تطوع أحدهما بالعودة إلى طيبة كعين جديدة تأتي إليهم بالأخبار متى احتاجوها.. وبقي الآخر معنا هنا ضمن الحماية.. وطلب مني والدك أن أخفي هويتي عن أهل القرية البسطاء.. خوفًا من جواسيس إيست وتحتمس المنتشرين في كل أنحاء البلاد.

تزوجنا أنا وأبوك في اليوم الثالث لوصولنا القرية.. ولقد بارك رع العظيم زواجنا.. فعشت مع أبيك أجمل ما عشت في حياتي.. في تلك البقعة المباركة من الأرض التي من عليها رع بأعين الماء التي جرت تحت الأرض رغم كل هذه الصحراء الواسعة التي تحيط بها من كل مكان.

تعلمت من النساء في القرية الزراعة وأحببتها.. وعلمني والدك الصيد حتى أتقنته.. ووجدت نفسي أخيرًا في تلك الحياة البسيطة الهادئة.. حتى كدت أنسى مَن كنت..

---

١٠) الفرعون الأخير من الأسرة السابعة عشر حكم حوالي من ٣ إلى ٥ سنوات فقط توفى أثناء حربه مع الهكسوس عام ١٥٤٠ ق.م

أو أنني فعلًا نسيت.. ولم أكن أتذكر ما كان لي في الماضي من حياتي السابقة إلا عندما كان عمك «آمن» أخو حور الأكبر يأتينا بالأخبار من طيبة كل حين وحين.

ثارت أمي الملكة ثورة كبرى بعد اختفائي.. وثار «تحتمس» ثورة أكبر بعد أن تهدد عرشه المقبل بهروبي وعودة شرعيته للحكم من بعد أمي إلى الاهتزاز ثانية. فاستفحلت أنشطته في الجيش.. وبدا وكأنه يعد العدة لغزو طيبة نفسها. وانهمكت أمي الملكة وبإشراف «سننموت» في بناء معبدها العظيم على الضفة الغربية للنيل..

وانهمكت أنا في سعادتي المتجددة مع «حور».. ولم أعد أهتم لما أصبح يحدث في طيبة كل عام.. ولم يكن يجدّ أي جديد.. ارتدت أمي الملكة ذقنًا مستعارة وملابس الملوك الرجال حتى تأكد للناس أنها ملكًا إلهًا. وصارت تبني المزيد من المعابد بمساعدة «سننموت».. ويشيد «تحتمس» المزيد من الكتائب ويجند الشباب من أهل طيبة وينشأ مصانع أكثر للسلاح.. وكأنهما قد دخلا في صراع وتحدّ كبير على من سوف يكون أكثرهم مجدًا في التاريخ بعد رحيله.. وكان المستفيد الأكبر من هذا كله هو الشعب.

زادتهم حملات أمي التجارية ثراءً وزادتهم حملات «تحتمس» العسكرية أمانًا وقوة.. وأحسست بيني وبين نفسي أننا قد ربحنا جميعًا بهروبي هذا من ذلك الصراع الذي لم يكن لينتهي إلا بالدماء.

لكنني في النهاية.. ذهبت مضطرة بنفسي إلى تلك الدماء.

مرت سنوات من السعادة لم أكن أتخيل وجودها.. ولم يكن يكدر من تلك السعادة إلا تلك الأوقات التي كنت أشتاق فيها لأصبح أمًّا.. وأحمل داخلي ذرية لـ«حور».. وأهبه فرسانًا شجعانًا مثله.

كنت أتضايق قليلًا في بداية الأمر.. وعندما مر العام الخامس عليَّ دون حمل أصبح الأمر هاجسًا يكدر علينا صفو حياتنا البسيطة الهادئة.. فصرت أكثر حدة وأبكي لأهون سبب.. وكان «حور» يعلم بما يدور داخلي.. لكني لم أكن أحتمل فكرة أن يتزوج من أخرى كي تهبه ذُرية من بعده يرثون أرضه التي نزرعها سويًا.. ويساعدونه في جمع ثمارها ويقفون إلى جواره بعد أن يشيخ في السن.. ويحضرون جلسة التحنيط الخاصة به.. ويقيمون عليه الصلوات ابتهالًا وطلبًا للسلام في رحلته المقدسة بالعالم الآخر.. وكان «حور» يلومني كلما أتيت على ذِكر هذه الأفكار أمامه.. ويقسم لي بكل الآلهة أنه لم يفكر أبدًا في الزواج من أخرى. ولن يفكر في ذلك حتى نشيخ سويًا ونذهب معًا إلى عالم الأبدية.. ليهبنا «أوزير» ذرية من لدنه.. وكان دائمًا ما يقول لي «أنتِ مليكتي وسيدتي.. ولا أجرؤ على التفكير في غيرك ما حييت».. فكنت أخبره أنني صرت ملكة حقًّا عندما أخذني بين ذراعيه ذلك اليوم أمام شاطئ البحر.. وأخذت ألح عليه فأحضر الأطباء سرًّا من طيبة وقاموا بفحصي كثيرًا وقالوا إنه لا يوجد شيء يحرمنا من هبة الأبناء سوى أن هذه هي مشيئة الآلهة.. واقترح أحدهم أن نزور معبد آمون في طيبة تأدية للصلاة وتقديمًا للقرابين وطلبا للبركة.. فازداد حزني وهمي.. وصرفهم «حور» إلى طيبة مرة أخرى بعد أن قام بتغطية أعينهم كما جاء بهم خشية أن يتعرف أحد على مكاننا.

في يوم بين العام الثامن والتاسع من زواجنا جاءتني زوجة «آمن» بوجه فرح وأخبرتني أن واحدة من العرافات مشهورة بالبركة والقداسة ستزور القرية بعد أيام.. وأخبرتني أنها كان لها باع معروف في رفع العقم عن المرأة باسترضاء الآلهة ببعض الصلوات الخاصة التي تعرفها.. وبعض الخلطات من الأعشاب والعقاقير التي كانت تجلبها بنفسها من معابد «آمون» المنتشرة في البلاد.

بقيت أنتظرها في ترقب شديد.. وقد بدت أملًا كبيرًا تعلقت به وآمنت في داخلي أن معجزة ما قد تحدث على يدها وبركة قد تحل علي من إرضاء الآلهة. وطلبت من زوجة «آمن» ألا تدع «حور» يعلم عن ذلك شيئًا.. وقد خفت عليه من التعلق مثلي بالأمل دون تأكيد من إمكانية حدوثه.. فمهما ادعى أمامي أنه لا يهتم بهذا الموضوع.. كنت متأكدة أنه يتوق شوقًا إلى رؤية أبناء له مثل أبناء إخوته الذين يقضي معهم معظم النهار.

جاءتني العرافة في غياب «حور» وانشغاله بأمور الزراعة.. ومكثت معي النهار بأكمله.. تقرأ لي من الصلوات التي تعرفها وتسقيني من أعشابها المختلفة.. وقالت لي:

- رائحتك كلها شوق إلى الذرية.. وسوف يهبك آمون ما تبغين بعد أن تجزلي له العطاء.

فلم أبخل عليها ولا على آمون بأي شيء أمتلكه.. وطلبت منها أن تمر عليَّ كلما كانت قريبة من القرية.. فبقيت تزورني تسقيني من أعشابها وتقرأ عليَّ الصلوات والابتهالات المقدسة لآمون وغيره من الآلهة جميعًا.. وتأخذ مني ما تطلب دون أن أناقشها.. وتعددت زياراتها وزاد يأسي وطالت نوبات بكائي وتملك مني الحزن حتى كدت أن أيأس منها.. وفي النهاية بعد أعوام ثلاثة من الزيارات والصلوات والأعشاب والبكاء.. انقطعت دمائي الشهرية وبدأ بطني بالتكور والانتفاخ. فبقيت وحدي في غرفتي أصلي شكرًا لآمون لثلاثة أيام متصلة.. وابتهج وجه «حور» وعادت ابتسامته التي كنت قد نسيتها.. وقال لي وهو يضحك:

- يبدو أن تلك العرافة لم تكن مخادعة في النهاية.

فقلت له لما وجدته يعرف بأمرها:

- أكنتَ تعرف بأمرها؟

- أتظنين أن غريبًا يدخل بيتي لثلاثة أعوام دون أن أعرف عنه شيئًا؟ كنت أعرف بالطبع.. وكنت أخاف عليك من التعلق بالأمل دون جدوى لكني لم أشأ أن أغضبك وقد رأيتك تبذلين لها كل غالٍ تملكينه.

ثم مال على بطني وقبَّلها واحتضنني.. وكنتِ أنتِ بيننا يا حبيبتي.. ليتك كنتِ تسمعين مناجاته لك وهو يحكي لك كل ليلة عن يومه الشاق الطويل في أرضه.. ويحكي لك عن الأيام التي قضاها يتغزل فيَّ من خلف سور القصر وأنا أناجيه في غرفتي.

في زيارة لتلك العرافة عندما كانت تشرف عليَّ أثناء حملي وقد كسبت ثقة الجميع بعد حدوث الحمل قالت من بين ثرثرتها معي:

- الأمور في المعبد صارت مزعجة وأصبح إحضار الأعشاب المقدسة مكلفًا جدًا هذه الأيام.

وكنت أعرف طريقتها الملتوية هذه قبل التقدم في طلب المزيد من الأموال فسألتها:

- ولِمَ ذلك ماذا جدَّ في طيبة؟

- منذ مرض الملكة الأخير ورقدتها في فراشها منع «تحتمس» الملك البعثات البحرية التي كانت تقوم بها.. وصارت السلع أكثر غلاءً.. خاصة الأعشاب المقدسة التي كان يجلبها المعبد دائمًا تحت رعايتها وإشراف «سننموت» عندما كان مدير أعمال بيت آمون قبل أن يعزله «تحتمس» من منصبه.

ارتعدت أوصالي وارتجف قلبي فور أن أتت على ذكر مرض أمي.. وكنت أظن

أني لن تكبر أبدًا أو تشيخ وقد تركتها آخر مرة وهي في أوج قوّتها وجمالها.. وسألت العرافة:

- قولي لي ما الذي أصابها؟

فقالت:

- داء عضال حارَ معه الأطباء والكهنة.. ينهش في وجهها ويأكله.. حتى إنها لم تعد قادرة على تناول الطعام.. يقولون في المعبد إن آمون الإله قد تخلى عنها فأصبحت منبوذة لدى الآلهة جميعها.

قلت وقد أصبحت الدموع واضحة في عيني:

- وأين ذهب «سننموت» وابنتها «ميريت»؟

- لقد عُزل «سننموت» منذ فترة كبيرة بعد أن أصبح «تحتمس» هو الآمر الناهي في البلاد.. لكن الأميرة «ميريت» هي التي نعجب لأمرها في طيبة. منذ أصبحت الزوجة الملكية تركت قصر والدتها الملكة وتقيم مع زوجها «تحتمس».. ويقول الناس في المدينة إنهم لم يرونها مع أمها مرة واحدة منذ أكثر من عام أو يزيد.

طفرت الدموع من عيني حزنًا على ما آل إليه حال أمي في النهاية. وبعد أن انصرفت العرافة وقد أجزلت لها العطاء، طلبت من «حور» عندما عاد من الحقل أن يتأكد مما قالته لي العرافة.. فوجدته يعرف كل أخبار طيبة لكنه لم يكن يخبرني بأي شيء.. وعندما لمته على ذلك قال لي في حدة:

- ولماذا تهتمين بأمرها الآن؟ هل نسيت أنها كانت ستقدمك قربانًا للإيقاع بكهنة المعبد؟

فرددت عليه من بين دموعي:

- لكنها أمي في النهاية.. وقد تركها الخونة كلهم كي تلقى مصيرها وحدها.

- يمكنك أن تصلي من أجلها إذن.. ولترحمها الآلهة رغم ما كانت ستفعله بك.

- الصلاة وحدها لا تكفيني.

- ماذا تقصدين؟

قمت من فراشي وقلت له وأنا مازلت أبكي:

- أعني أنني أريد أن أراها.. ولو لمرة واحدة.. أريد أن أودعها.. إنها أمي.

قال في حزم:

- هذا لن يكون.

ثم تركني وانصرف، وبقينا على خلافنا هذا لأيام.. في كل ليلة أتوسل إليه أن يدبر لنا طريقة نذهب بها إلى أمي.. فتارة ما كان يغضب.. وتارة ما كان يبرر لي رفضه بخوفه علي من الظهور في طيبة وخطورة ذلك على حياتي.. وصعوبة الدخول إلى القصر وإلى مخدع الملكة نفسها والذي لم تعد تستطيع أن تفارقه كما علمت من العرافة.. إلا أنه في ليلة جاء إلي وأنا في فراشي أبكي أمي مثل كل ليلة وقال لي إننا سنذهب في الصباح إلى طيبة.. ولما سألته لم قد استجاب إلى رغبتي أخيرًا قال:

- لم تعد طيبة مثلما تركناها.. ولم تعد الملكة ملكة.. لم أُصدِّق نفسي عندما حكى لي أخي.

- وما الذي قاله لك؟

- لم يعد من حراس بالقصر.. فقط بعض الخدم القلائل الذين رفضوا أن يتركوا الملكة وهي تحتضر.. وقد بدأت أعمال تدمير وهدم لمعابد الملكة التي شيدها لما

«سننموت».. ويبدو أن «تحتمس» يحاول أن يمحو كل ذكرى لها عندما تموت كي ينساها كل الشعب.

غلبتني نوبة بكائي وازدادت حدة، واقترب مني «حور» وجلس جواري ثم احتضنني في قوة شديدة وأخذ يطمئنني حتى هدأت.

ووصلنا طيبة بعد بضعة أيام من السفر الهادئ خوفًا من الطريق على حملي الذي كان في شهوره الأخيرة.

عندما وصلنا طيبة وجدتها مدينة غير تلك التي كنت أعرفها.. لم تكن أقل جمالًا أو أكثر فقرًا.. لكنها كانت عابسة متوترة.. وقد أصبحت الشوارع كلها مدججة بالعربات العسكرية الجديدة التي ابتكرها «تحتمس» للجيش.. وعند كل شارع وكل زاوية عدد مهيب من الجنود الواقفين في تأهب.. رغم أنه لم تكن هنالك أي توترات أو تمردات داخل طيبة أو خارجها.. فقد كان الجيش في أوج مجده وأقوى حالاته منذ عهد الملك «مينا».. وعندما اقتربنا من قصر أمي.. فهمت ما كان يقصده «آمن».

كانت البوابات مفتوحة على مصراعيها لا يوجد أمامها حرس كما كان في السابق.. وقد تهدَّم معظم السور الخارجي له.. فدخلنا القصر دون أن نجد من يسألنا عن هويتنا أو وجهتنا.

في الداخل كان خادمان عجوزان يجلسان في بستان القصر القديم.. أو ما كان بستانًا في السابق وقد صار أرضًا جرداء ذبل ومات كل ما كان بها من أزهار.. وسأل أحدهم عما نريده فقال له «آمن» الذي جاء معي ومع «حور» أنه طبيب

أرسلَتْ في طلبه الملكة.. فوصف لنا مكان مخدعها دون أن يقوم من مكانه.. وقال إنه هناك طبيب آخر معها في غرفتها.

وعندما دخلت على أمي وجدتها ملقاة على فراشها في تلك الغرفة التي كان محرما على أي إنسان دخولها.. وكانت تتألم بشدة وتمسك يدها بيد «سننموت» الجالس جوارها وقد ادعى أنه طبيب هو الآخر.

صرختُ حزنًا فور أن رأيتها وارتميت عليها أقبل يديها ووجهها، ورحت أبكي في حزن ولوعة على ما صار إليه حالها.. وجذبني «سننموت» من يدي وقد صارت تتألم أكثر عندما احتضنتها.. فجلست جوارها وأمسكت يدها ورحت أبكي في صمت.. وقال «سننموت»:

- مخاطرة كبيرة أن تأتي إلى هناك بنفسك يا بنيتي.. أعين «تحتمس» و«إيست» في كل مكان.

- لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من رؤيتها.

فراح يتمتم في خفوت:

- لكن هذا خطر.. خطر كبير عليكم.

ورحت أقبِّل يدَ أمي وأنا أبكي فوضعَتْ يدها على خدي ونظرت إلى بطني البارزة.. وبانت ابتسامتها من بين ألمها بصعوبة شديدة وقالت بوهنٍ:

- كنت أنتظر دخولك عليَّ كل ليلة يا حبيبتي.. لماذا تأخرتِ هكذا؟

ولم أستطع أن أرد عليها.. فقالت:

- لكنك في النهاية جئت.. وهذا خير من لا شيء..

ومدت يدها إلى رقبتها وأمسكت القلادة التي كانت في عنقها ولم تكن تنزعها أبدًا.. وأخرجت منها مفتاحًا صغيرًا وأشارت إلى الستائر التي كانت فوق الجدار وأمام الممر المؤدي إلى الصومعة الصغيرة.. وهنا صاح «حور» ولم يكن قد تكلم منذ جئنا:

- لا يا «نفرو- رع».. لا شأن لنا بهذا..

فرمقته أمي بنظرة غضب رغم ضعفها الشديد وقالت:

- أتحب أن تضع «إيست» و«تحتمس» أيديهما على الصناديق.. هذه الأمانة ملكها وحدها.. وهي من تقرر.

- لا أمر لكِ عليها.. ألا يكفي ما فعلتِ بها؟ أنسيتِ أنك حاولتِ أن تدسي لها السم كي تورطي الكهنة في قتلها؟

- وهل كنت تظن أني سوف أعرض حياة ابنتي للخطر؟ كان ترياق السم معدًا قبل السم نفسه.

نظرت إلى أمي وأنا لا أصدق أنها تقول هذا أمامي وعيني كلها لوم. وقبل أن أنطق بأي كلام عادت ومدت يدها إليَّ بالمفتاح الوحيد الذ كان موجودًا بالقلادة وقالت:

- لا وقت.. الصندوق الصغير مفتوح.. به بعض اللفائف قد أخرجتها لأقرأ بعض ما فيها ربما ساعدني على التخلص من تلك اللعنة التي حلَّت بي.. اجمعيها كلها وضعيها فيه.. أما الآخر فاتركيه كما هو لم يفتح بعد.. ولا تقومي بفتح أيهما إلا مضطرة.

وهنا عوى طائر بصوتٍ غريبٍ حادٍ خارج القصر فانتبه «حور» واندفع إلى النافذة وقام بفتحها وصاح:

- هذه إشارة «آمن».. هناك حرس قادمون.

واندفع يسحبني من يدي فصرخت أمي، وحاولت أن تنهض من فوق فراشها وقالت:

- الصناديق.. لا تتركي الصناديق.. الأمانة يا زعفرانة.

فتناولت المفتاح منها في سرعة وهب «سننموت» يساعدني واتجهت مسرعة إلى حيث كانت الصومعة وأخذت الصندوق الأصغر.. وعاد صوت الطائر مرة أخرى فصرخ «حور»: «أسرعا.. لا وقت».. وانضم إلينا وقام برفع الصندوق الكبير مرة واحدة وملت على الأرض أحاول جمع ما تناثر من الصندوق الصغير وسمعنا جلبة في ساحة القصر فأسرع «حور» إلى الشرفة ونظر منها مرة أخرى وصاح:

- لا وقت لدينا لقد حاصرونا.

وجذبني من يدي في عنفٍ وهرعنا إلى خارج الغرفة ولم يترك لي فرصة كي أجمع كل ما كان ملقى على الأرض من لفائف.. ولا حتى أن أقبِّل أمي قبل أن نخرج.. وفور أن خرجنا من الغرفة سمعت صوت «إيست» قادمة من ردهة القصر: «أريدها حية».. فلم نعلم إلى أين نذهب فنادى علينا «سننموت» هامسًا وهو يشير بيده:

- الجهة الأخرى.. في نهاية الرواق يوجد مخرج خلفي لا يعرف عنه الحرس الجديد أي شيء.. خلف تمثال الملكة.

فرحت أركض مع «حور» إلى نهاية الرواق حتى وجدنا التمثال الذي كان يقصده ووجدنا خلفه بابًا صغيرًا فتحه «حور» بصعوبة وهو يحمل الصندوق الكبير

في يده ووجدنا درجات تهبط بنا إلى أسفل ووجدنا أنفسنا في النهاية خارج القصر وأمام البستان الصغير الذي كان يعمل به «حور» قديمًا.. وقال لي:

ـ لقد أصبحنا في الجهة الخلفية للقصر.. و«آمن» ينتظرنا في الجهة المقابلة ومعه الخيل.

ثم أخذ يفكر ويدور حول البستان بحثًا عن مخرج وأشرت إلى تهدم كبير في سور القصر من الناحية الجانبية.. فرحنا نركض إليه وكانت خطواتي شديدة البطء بسبب حملي والصندق الذي أحمله.. وكان «حور» يجرني جرًا وهو يركض.. وفور خروجنا من سور القصر أطلق «حور» من فمه ذلك الصوت الذي كان يصدره «آمن» منذ قليل وانتبه إلى صوته عدد من الحرس الذين احتلوا شرفات القصر بحثًا عنّا وأقبل «آمن» على جواده وهو يجر جوادًا آخر وأخذ الحرس يطلقون سهامهم نحونا وفور أن أقترب «آمن» أمسك حور بلجام الجواد الحر وساعدني على امتطائه ثم ناولني الصندوقين فوق بعضهما وركب خلفي وأصاب أحد السهام ذراعه وانطلقنا فارين من حول القصر قبل أن يلحق بنا الحرس.. وفور ابتعادنا عن القصر قال «آمن»:

- لن نستطيع الخروج من المدينة هكذا.. الجند منتشرون في كل الطرقات سنذهب إلى منزل أحد العيون ولن نتحرك حتى يصبح الهروب ممكنًا.

ذهبنا إلى بيت ريفي فقير لا يبتعد عن القصر إلا قليلًا.. وفور دخولنا جلست أتفحص مكان السهم الذي أصاب «حور» في ذراعه وقال لي إنها ليست إصابة خطرة.. وعندما رآها صاحب العين تكدّر وجهه وهمس إلى «آمن» بشيء لم أسمعه.. وفي المساء دخل «حور» في حمى شديدة رافقته حتى الشروق.. وعلمت من «آمن»

أن «تحتمس» كان قد جعل جنده في المدينة يستخدمون السهام المسمومة.. وعندما انتصف النهار أخذ «حور» ينطق بكلامٍ غير مفهوم وينادي على أشخاص غير موجودين.. وبعد أن غاب عنا رع في المساء.. كان قد أخذ «حور» إلى جواره.

***

آه يا ابنتي لو تعرفين ما لاقته أمك من أيام قاسية من الحزن والوحدة بعد أن فارقني أبوك وحبيبي ونور أيامي التي ذهبت مع ذهابه.

أحسست في تلك الأيام أني كنت أموت كل يوم.. لكني لا أُبعث في الحياة الأخرى ونعيمها الأبدي.. بل كنت أُبعث كل يوم في نفس الجحيم.. وأظل أنظر وأنا على فراشي في القرية إلى الصناديق التي من أجلها ضاع مني زوجي وحبيبي.. وألعن «تحتمس» و«إيست» و«ميريت» والعرش.. بل صرت ألعن أمي نفسها.. فلولاها ما كان «حور» قد ضاع مني وتركني أتجرع مرارة فقده.. وقد تيتمتِ يا حبيبتي وتيتمت أنا أيضًا معك.. وقد كان حور هو كل أهلي ومن بقي لي في هذه الدنيا. وفي الزيارة الجديدة للعرافة أخذت أتوسل إليها أن تبحث لي عن أي شيء ينزع عني حزني ويصبرني على مرار الفقد.. وما إن دخل علينا «آمن» ورآها حتى قام بجرها من شعرها وألقاها خارج المنزل.. وقال إنه لولا مجيئها من البداية ما كنا ذهبنا إلى طيبة.

اختفت العرافة لفترة طويلة، وقبل أن يحل موعد الولادة جاءتني متسللة ذات ليلة.. وكان الحزن ما زال في مكانه لم يفارقني. وهمست في أذني أنها أعدت لي مجموعة من الأعشاب المقدسة جلبتها من معبد بعيد من معابد آمون القديمة. وناولتني قنينة زجاجية صغيرة بها سائل كان شديد المرارة لم أستطع أن أشربه إلا بعد أن

أمرت على تناوله كاملًا.. وقالت إنه فيه من الأسرار المباركة التي سوف تذهب بمزني بعيدًا عني.. وعادت بعد يومين ومعها نفس القنينة.. وبعد أن تناولتها كلها رُحت أتعذب من مرارتها، وفور أن انتهيت وتهيأت هي لتخرج من المنزل هجم عليها «آمن» وصار يسبها وهو يجرها للخارج وهو يصرخ «ملعونة» وصرخت العرافة بصوت شق سكون الليل ثم سكتت بعدها.. وعلمت أن «آمن» قد قطع رأسها بسيفه.. وكان قد رآها منذ أيام وهي خارجة من قصر «تحتمس».. وفي صباح اليوم التالي بدأ النزيف من كل جسدي..

كان نزيفًا شديدًا في البداية رحت بعده في إغماءة طويلة وأفقت في المساء.. ثم عاد مرة ثانية في صباح اليوم الجديد.. وأخذ يجيء كل نهار، تارة يكون نزيفًا شديدًا، وتارة ينقطع بعد فترة قصيرة.. وصرت شاحبة أنتظر الموت كل يوم.. وعلمت أن «إيست» قد استخدمت ما وجدته من اللفائف التي سقطت مني من الصندوق الملعون وأنا أهرب من القصر.. وصرخت في «آمن» أن يبحث عن «سننموت» ويحضره إليَّ بأي طريقة..

غاب «آمن» لثلاثة أيام ثم دخل عليَّ بعدها وكان معه «سننموت»، وكان «آمن» قد وجده بعد بحث قصير حتى لقيه في مقبرته يشرف على إنهاء تجهيزاتها وقد أيقن أن وقت رحيله قد اقترب.. وعندما دخل «سننموت» عليَّ ووجدني في تلك الحالة من الضعف والشحوب وحكيت له ما كان من أمر العرافة والسائل المُر الذي تناولته.. اكفهر وجهه وأبدى حزنه لما سمع.. وقال إن هناك من قام بعمل تعويذة للعقم أنا وذريتي من بعدي.

قال «سننموت» أن «إيست» قد أرادت أن تنكل بي وتعذبني لا أن تتخلص

مني مباشرة.. وجلس يبتهل ويتضرع إلى الآلهة أن تعافيني مما أنا فيه. ثم طلب من «آمن» أن يتركا وحدنا.. وبعد أن رحل «آمن» سألني «سننموت» عن الصندوقين.. وكنت أحتفظ بهما تحت فراشي ولا أتركهما يغيبان عن عيني.

قضى «سننموت» الليلة كلها يقرأ كل ما طالته يداه في صندوق وصايا التاسوع المقدس.. ورفض أن يمس الصندوق الآخر وقال إنه ملعون وكل ما فيه ملعون مثله.. وبعد أن انتهى وضع يده الباردة على جبيني وصار يقرأ من إحدى اللفائف.. وكنت لا أفقه شيئًا مما يقول.. وبعد أن انتهى تنهد في صبر وقال:

- لقد لعنتِ بتعويذة شر وكره ولا يفل الشر والكره إلا الخير والحب.. وأنتِ خير يا حبيبتي وابنة خير.. وسأحاول معك ما استطعت.. لكن المكان هنا أصبح غير آمن.. سنرحل فجرًا إلى قرية مهجورة مجاورة في داخل الجبل.. رأيتها وأنا قادم إلى هنا.. ربما استطعنا الاختفاء عمَّن سيبعثهم «تحتمس» أو «إيست» بحثًا عنك.

ورحلنا فجرًا كما قال، ولم يخبر أحدًا بمكاننا سوى «آمن» خوفًا عليَّ من جند «تحتمس» الَّذي كان يقترب.. وعاودني النزيف فور أن وصلنا وكان قد اختفى الليلة الماضية.. وقال «سننموت»:

- التلاوة ربما أبطلت جزءًا من تأثير اللعنة.. لكنها بالتأكيد لم تنهها.

ثم عاد «سننموت» يفتش في الصناديق مرة أخرى.. وكان ما انتهى إليه كئيبًا وحزينًا.. قال «سننموت»:

- إما أنتِ.. وإما ما في بطنك.. لقد بدأنا صلواتنا لكن ما صُنِعَ لك كان أقوى من مقاومتنا له.. كان كرهًا خالصًا لا يرفعه إلا حبًّا خالصًا.. مهما مَر الزمان.

فوضعت يدي دون شعور على بطني ورحت أضمك إلي أكثر وأنت مازلتِ داخلي.. ولم أمنع بكائي.

وظل «سننموت» معي يحاول كل يوم أن يجرب كل ما يعرفه أو يصل إليه من صندوق التاسوع المقدس.. لكن النزيف كان يروح ليلة ويجيء ليلة أخرى. فاستسلمت لقدري في النهاية.

وفي ليلة جاء وجهك الرائع النبيل يزورني في أحلامي.. وأخذ يزورني كل ليلة. فعشقتك قبل أن تكوني.. وبعد عدة أيام من رؤيتي لك في أحلامي.. دخل «سننموت» عليَّ ذات نهار ووجدني أبتسم.. وكنت أفكر فيك. وقلت له وقد غمرتني البهجة:

- إنها صبية يا «سننموت».. صبية جميلة وغاية في الجمال.. لقد عشقتها.

ورحت أبكي يا حبيبتي.. لكني كنت أبكي من بهاء منظرك الرائع.. وربت على يدي «سننموت» الطيب.. وطلب مني أن أكتب إليكِ.

***

كان الوقت قد حان.. وبات قدومك وشيكًا بين لحظة وأخرى يا حبيبتي.. وكنت أعرف أن نوبة النزيف هذه المرة ستكون الأخيرة.. وطلب «سننموت» أن يعد عمك «آمن» مخبئًا ليدفني فيه.. لا يعرف أحد مكانه، ولا حتى «سننموت» نفسه. وقال إنه سيعمل بنفسه على حفظ جسدي حتى تعودي إليَّ بعد أن تصبحي يافعة وقوية لتستردي أمانتك التي تركتها لنا جدتك. وعاهدني ألا تفتحي ذلك الصندوق الملعون مهما كان.. فهمتنا يا حبيبتي هي أن نحفظه لا أن نتطلع على ما به.. وقد رفض «سننموت» تمامًا أن أقوم بحرقه. وقال إن هذا قد يحرر الشرور التي

حُبست داخله.. وقد رأيت ما جرى لجدتك عندما حاولت الاستعانة به.. ولقد قرر سننموت أن يأخذك بعد أن تصلي إلى هذه الدنيا..ولكنه رفض أن يأخذ الصناديق معه.. وقال هذه أمانة لا يقدر هو على حملها.. ولا يحملها إلا من وُكِّلت له.. ورفض أن يأخذها معه حتى تكبري وتستردينها. ولا أن يأخذها أي إنسان آخر سواكِ.. وقال أنها ستحفظ معي في مكان مقبرتي.. حتى تأتين إلي.

دونت لك يا حبيبتي ما جرى لي وما كان من أمي وأختي كي تعلمي مثلما علمت ما يدور في هذه البلاد.. وما يؤدي إليه في النهاية.. دونت لك كي تبحثي عن الحب حتى تجديه خالصًا نقيًّا.. فتذهب عنك هذه اللعنة.

سأدعك ترحلين مع «سننموت» ومعك رسالتي الأولى.. وسيعهد هو برعايتك في مكانٍ في الشمال بعيد عن هنا.. وسيكون مع الرسالة الأولى قصاصة بمكان تلتقين فيه بأبناء عمومتك بعد أن يشتد عودك ويقوي بأسك بعد أعوامٍ من الآن.. وسينتظرونك في الأيام الأولى من الشهر الأول من الربيع كل عام أمام المعبد الجنائزي لجدتك الملكة الراحلة.. أو ما سيتبقى منه بعد أن يخرب فيه «تحتمس» قدر ما يستطيع.. وحتى تصبحين قادرة على حمل هذه الأمانة سيكون مع أبناء عمومتك -ومن يخلفهم- البرديات الثانية كي تتعرفي عليهم بها.. ويتعرفوا عليك برسالتك.. وبعد أن تهدأ مطاردة «تحتمس» لك تمامًا.. وسيأخذك أبناء عمومتك بعد ذلك إلى مكاني الذي سأنتظرك فيه.. والذي لن يعلمه أحد سواهم. ولتسامحيني يا حبيبتي على كل هذا الشقاء وكل هذا التعقيد.. لكني لم أكن لأسمح لأحد غيرك أن يحصل على تلك الصناديق وما بها من أسرار.. وقد مات والدك وأصابتني هذه اللعنة بسبب محاولاتنا للحفاظ عليها من أن تقع في أيدٍ خبيثة. وسيكون معي ما بقى من أسرار في تلك البردية الأخيرة. وفي مقامي الأخير.

سأنتظرك يا حبيبتي وأظل أتخيلك يوم أن تدخلين علي بعد أن صرت جميلة بالغة.. تأخذين الأنظار من جمالك ورقتك كما أحلم بك دائمًا هذه الأيام. أراكِ تدخلين علي وقد وجدتِ حبًا خالصًا يطهرنا من هذه اللعنة إلى الأبد. ومعك فارسك المُخلِّص. يحميك ويردك إلى أمك وحبيبتك التي تنتظرك هنا ومعها من الأسرار ما سوف يحارب العالم كله لأجل الحصول عليه.. أسرار الآلهة المقدسة.. وكنوز الأرض المخبأة.. أسرار عائلتنا ومن سبقوها، أسرار التحنيط القديم.. وأسرار الموت.. لكني تركت لك هنا ما هو أجمل من ذلك كله يا حبيبتي.. تركت لك أسرار الحياة.



(١٢)
خاتمة

عزيزتي بيلا:

كان الوقت قد مر.. وحل نور قوي بالخارج.. وكنا نقبع في ظلام طويل أنا ويحيى لم نكن لنعرف له نهاية إن لم نلتقِ.

كانت حياة قاسية ووحيدة.. لكننا وجدنا في وحدتنا الصبر.. ووجدنا من صبرنا الحكمة.. وهدتنا حكمتنا إلى بعضنا في النهاية.

أرى نورًا قويًّا بالخارج.. وأرى حياة طيبة تنتظرني.. لم يعد يهمنا فيها الخوف من نزيف جديد.. أو المعاناة من الوحدة والحزن.

لم أعد أبحث أو أفكر إن كان ما قالته جدتي الزعفرانة عن اللعنة حقيقيًّا أم أنه محض أساطير.. لقد تركت لي الرسائل وظلت تنتظر قدومي كل هذه السنوات كي نجدها في النهاية أنا ويحيى.. وكل ما يهم الآن أننا وجدناها بعد أن وجدنا أنفسنا.

لم أعد أخشى شيئًا بعد الآن.. ما دامت يد يحيى في يدي.. وقد بعثنا سويًا من جديد.. وتلبستنا أرواح غير الأرواح.. أكثر جمالًا وعذوبة.. وأكثر قدرة على حب الحياة.

أراه وهو مقبل عليَّ.. أرى فيه الونس والدفء.. وأرى في عينيه حبًا خالصًا بعد كل ما عاناه من وحدة.. أرى فيه الأمل.. وأرى فيه الصحبة والرفقة.. أرى فيه ذلك كله.. بل وأجمل منه.

ابنتك الحبيبة: ياسمينا

تمت

أحمد سلامة

***

على هامش الرواية



سننموت يحمل الأميرة نفرو رع - المتحف المصري

- في عام ١٤٨٥ ق.م وُلدت الأميرة نفرو رع لأبيها الملك تحتمس الثاني ووالدتها الملكة حتشبسوت. وهما من أهم ملوك الأسرة الثامنة عشر

- توفي الملك تحتمس الثاني تاركًا ابنتان هما نفرو رع، وميريت رع. وكان له ابنا آخرًا من إحدى محظياته وهو الملك تحتمس الثالث.

- تولت حتشبسوت الوصاية على تحتمس الثالث الذي كان صغيرًا.

- عين المهندس سننموت مسؤولًا عن رعاية ابنتها نفرو رع. وكانت علاقة سننموت ونفرو رع كما تبدو من تماثيلهما العديدة علاقة أبوية شديدة الحميمة.

- نصبَّت حتشبسوت نفسها ملكًا إلها على مصر استنادًا إلى نبوءة آمون ودونت نصوص هذه النبوءة على جدران معبدها. وبعد أن كانت وصية على الحكم، أصبحت هي الملك الفرعون.

وظلت تحكم حتى وفاتها وقد بلغ عمرها ٥١ عامًا. وكانت من أطول فترات الحكم لامرأة على عرش مصر.

- بعد وفاتها كُشطت أسماؤها من على المعبد وهشمت بعض تماثيلها وجرت عمليات تخريب عديدة لاسمها وذهب أغلب الظن إلى انتقام تحتمس الثالث منها بعد أن حرمته الملك لسنين عديدة. وذهبت ظنون أخرى إلى أسر وملوك لاحقين بعد تحتمس الثالث.

- تميز عهد حتشبسوت بالرخاء الاقتصادي وازدهار التجارة والبعثات التجارية العديدة والتي كان أشهرها الرحلة التاريخية إلى بلاد بونت.. والتي دونت هذه الرحلة وتفاصيلها على جدران معبدها بالدير البحري.

شيد المهندس سننموت للملكة حتشبسوت معبدها الشهير بالدير البحري. وقدم سننموت تصميمًا جديدًا متفردًا للمعبد الجنائزي لحتشبسوت وأشرف بنفسه على إنشائه. وكان التصميم يختلف بشكل كامل عن تصميمات المعابد الأخرى لدى قدماء المصريين.

- بعد تولي تحتمس الثالث ملك مصر أسس أقوى إمبراطورية في مصر استمرت لسنوات عدة وكان من أقوى الحكام الذين أتوا على مصر في تاريخها. وكان يتمتع بعبقرية عسكرية لم يسبقها إليه ملك من قبل. وصلت حدود الدولة المصرية في عهده إلى نهر الفرات شرقا. وإلى ليبيا غربًا. وإلى ساحل قبرص شمالًا وإلى منابع النيل جنوبًا.

- جرى الظن أن تحتمس الثالث قد تزوج أحدى الأميرتين

بنـات حتشبسـوت حفاظًـا عـلى الملـك. وكانـت المرشـحة الأولى هـي الأمـيرة نفـرو رع. ووجـدت نقـوش تتحـدث عنهـا بصفتهـا الزوجـة الملكيـة لـه وعاهلـة مـصر العليـا والسـفلى، إلا أن اسـمها تـم محـوه وحـل مكانـه اسـم والـدة الملـك بعـد ذلـك.

- لم توجـد أي أخبـار تتحـدث عـن الأمـيرة بشـكل مؤكـد بعـد عامهـا السـادس عـشر. ويظـن بعـض علـماء المصريـات أن مـن تزوجهـا الملـك تحتمـس هـي الأخـت الصغـرى ميريـت رع، وأن نفـرو رع ربـما تكـون ماتـت في ذلـك السـن.

- حتـى وقـت قريـب جـرى الظـن أن الملكـة حتشبسـوت ماتـت مقتولـة. إلا أنـه تـم التحقـق مـن موميـاء حتشبسـوت وهـي تبـدي علامـات مـوت طبيعـي كان سـببه الأغلـب هـو السرطـان.

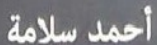
- شـيد سـننموت سردابًـا لم يكتمـل يربـط بـين مقبرتـه بالديـر البحـري وبـين معبـد الملكـة حتشبسـوت.

***

الزعفرانة

هنا موعدُ مختلف: حبيبان التقيا صدفة.. لا هما يعرفان بعضهما ولا هما غريبان عن بعضهما! مُرتبطان رغم كل تلك الغربة.

"يحيى الطيب" خبير الآثار المصري الذي يحاول الهرب من حكايات الحبيبات القديمات، ومن لعنة كسرة القلب ومرارة الوحدة في نهاية كل علاقة، فيهرب إلى الصحراء بحثًا عن سرٍ قديم.. و"ياسمينا" الفتاة اليونانية التي جاءَت إلى مِصر هربًا من لعنة تصيبها كلمًا اقتربت من الرجال. فحاولت اللجوء إلى صحراء مصر ومعها سرٌ قديمٌ، ومفتاحٌ لكل ما يبحث عنه يحيى. يلتقيان صدفة، أو هكذا ظنًّا، لتبدأ رموز كل الشفرات تُحل وتتشابك أيضًا، هكذا الأمرين معًا!





أحمد سلامة

طبيب وكاتب وروائي مصري، تخرَّج في كلية الطب عام 2011، يعمل طبيبًا لأمراض الباطنة. عضو إدارة تحرير سلسلة "مدونات مصرية للجيب"- أول سلسلة كتب للمدونين المصريين. مستشار للتحرير والنشر. قام بتحرير العديد من الكتب الأدبية لعددٍ من الكتّاب والمؤلفين على مدار سنواتٍ، صدرت روايته الأولى "محطة الرمل" عام 2013 وصدر منها طبعات عديدة حتى الآن.

تصميم الغلاف كريم آدم



ISBN 978-977-806-108-6

